عماد م. الأمين

الرفيقة وداد

رواية

مدونة ابو عبدو

عماد م. الأمين

الرفيقة وداد

الكتاب: الرفيقة وداد/ رواية
المؤلف: عماد م. الأمين
عدد الصفحات: 232 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-87-0

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:
التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة – وسط البلد – 8 شارع قصر النيل – الدور الأول – شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

عماد م. الأمين

الرفيقة وداد

رواية

الفصل الأول

ـ 1 ـ

استيقظ برهوم من نومه في الخامسة صباحاً، مُبكراً على غير عادته، وقد أمضى تلك اللّيلة الممطرة من تشرين الأول 1954 بين النائم والمستيقظ، يتقلّب من جهة إلى أخرى، بعد أيامٍ عصيبة، لازمتهُ فيها، كظلّه، حالةٌ من الاضطراب والقلق.

نهض من فراشه ولبس ثيابه على عجل، ثمَّ بدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً على الحصيرة المستطيلة الّتي تفصله وأخاه عن الجهة المقابلة حيث تنام أخواته الخمس، مُفترشاتٍ الأرض، وغامِراتٍ رؤوسهنَّ بالأغطية من شدّة البرد. وتمنّى لو يستطيع الدّخول إلى قاعة الاستقبال الواسعة فيتحرّك على راحته. ولكنَّ والدته كانت قد أقفلتها قبل أن تأويَ إلى الفراش، لتحافظَ عليها مرتّبةً وجاهزةً لاستقبال الزّوار. هذا إذا كان الخبر سعيداً.

لماذا كلُّ هذا الخوف؟ فهذه ليست المباراة الأولى الّتي تجري في

لبنان لتعيين مدرّسين رسميّين. لقد سبقتها مباراةٌ في أوّل السّنة، ونجح فيها جارهم الّذي وإن كان يكبره بسبع سنوات، فقد كان دونه معرفةً باللّغة العربيّة والرّياضيّات، وأيضاً، هو على ثقةٍ بل على يقين من نجاحه.

هل أنهكتْه هذه الشّهور من الانتظار منذ تاريخ المباراة في الصّيف، وجعلتْه يبدأ بفقدان الثّقة في نفسه؟ شعر للمرّة الأولى في حياته كم أن الانتظار يدفع إلى الشّكّ حتى باليقين.

عندما ذهب عمّه، منذ يومَيْن، إلى بيروت ليأتي بالنّتيجة، أخبره أنّه سيرجع متأخّراً هذا الصّباح، لأنّه يجب أن يُغيِّر البوسطة في مدينة صور، وهذا يعني صعوبة معرفة موعد وصوله بالضبط، لأن عليه أن ينتظر اكتمال ركّاب البوسطة. ومع هذا، ها هو يفقد صبره ويندب حظّه الّذي رماه في هذه القرية البعيدة كلّ هذا البعد عن العاصمة.

وظلّ برهوم يتنقّل ساعاتٍ بين المشي السّريع في الغرفة والعودة إلى الفراش محاولاً النّوم، إلى أن سمعَ زقزقة العصافير تتعالى، مؤذنةً بتوقّف المطر، فانتعل حذاءه بسرعةٍ وخرج، ثمّ اجتاز باب الحديقة غير آبهٍ بالماء الذي يبلّل أصابع رجليْه عبر الحذاء الذي ورثه منذ سنواتٍ عن خاله، والمثقل بسنينٍ طويلةٍ من الدّعك في البراري.

حثَّ الخطى مسرعاً باتّجاه السّاحة حيث تتوقّف البوسطة عادةً، وكان أوّل الواصلين، فقصد شجرة السّرو الوارفة في طرف السّاحة. أخرج من جيب سترته الدّاخليّة ورقة جريدةٍ فيها بعض التّبغ المفروم، ولفّ سيجارته وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار، خوفاً من أعين الواشين، وأتى على آخرها بسرعةٍ كمن يلتهمها، ثمّ رجع إلى وسط السّاحة.

تباعاً، وصل رجالٌ كُثُر، هذا الّذي كان أوصى أحد المسافرين على دواءٍ من بيروت، وذاك الّذي ينتظر رسالةً من المهجر. أمّا أكثر الوافدين

فقد جاؤوا لتبادل الأحاديث والأخبار، ولانتظار البوسطة ليس إلّا. إنها البوسطة الّتي يشكّل قدومها الأسبوعيُّ إلى القرية حدثاً في حدِّ ذاته. وما إن سمع برهوم هديرها آتياً من بعيد، حتّى وجم قلبه ورجع إلى تحت شجرة السّرو يختبئ من شماتة الناس في حال لم يحالفه الحظّ.

ما هي إلّا دقائقَ حتّى رأى عمّه يترجّل، مُحيّياً بسرعةٍ الرّجال المتجمهرين عند باب البوسطة. وما إن لمح برهوم تحت الشّجرة يتوثّب كلصٍّ يخاف انكشاف أمره، حتّى توجّه صوبه مباشرة، ومع كلِّ خطوةٍ كان يخطوها، كانت دقّات قلب برهوم تزداد سرعةً وقوّةً وتختلج في كلِّ ناحيةٍ من صدره، كصدى طبلٍ يَضرِبُ عليه طبّالٌ غاضب. ولم تعد رجلاه تحملانه، فاتّكأ على الشّجرة ناظراً صوب عمّه. جمّع عينيْه وقلّصهما قدر المستطاع، حتّى بدتا كثقبيِّ إبرة، محاولاً أن يستبينَ اختلاجات تقاسيم وجه عمّه، إلى أن رأى بسمةً تفترُّ عنها شفتاه، فأيقن أنّه نجح في الامتحان. ولم يطلِ انتظاره إلّا ثوانيَ، فقد سحب عمّه ورقةً مطويّةً من الجيب الدّاخليِّ لسترته ولوّح بها عالياً.

هزَّ برهوم ساعده بقبضةٍ مشدودة، ورفع رجله اليمنى وخبطها على الأرض بقوّةٍ وقال بصوتٍ خافتٍ وهو يشدّ على أسنانه: «أجل، أنا أستحقُّ هذا!»، ونزلتْ من عينه دمعةٌ مسحها بسرعةٍ مخافة أن تُرى، فلطالما ردّد والده على مسمعه أنَّ دمع الرّجال نادرٌ وثمين، ولكن، تبعتها دمعاتٌ أُخَر، فكيف يستطيع لجمها وهذه أوّل مرّة في حياته يشعر بهذا القدر من الفرح والزّهو؟ ها هو في سنِّ الثّماني عشرة، وقد كافح بجهدٍ لينجحَ في الامتحان الّذي سوف يسمح له بالحصول على الوظيفة، وبالتالي تقاضي راتبٍ شهريّ، يحلم به كلُّ شابّ. وسوف يستطيع بعدها تحقيق حلمه بالزّواج من حبيبته وداد، الّتي يواعدها بالنّظرات والغمزات منذ

سنتيْن، وبالكاد استطاع الحصول على قبلةٍ مسروقة منها.

ناوله عمّه الورقة، ثمَّ قبّله على جبينه وقال له:

- مبروك يا برهوم!

فردَّ بصوتٍ خجولٍ مُطأطئاً رأسه:

- لقد كبرتُ يا عمّي، لم أعد صغيراً لتغنّجوني، نادوني منذ اليوم إبراهيم.

فاحتضنه عمّه من كتفه وسارا عائدَيْن إلى البيت، وخلفهما عددٌ من الرّجال القادمين للتّهنئة، وسط أصوات زغردة[1] النّساء العالية، الّتي يُسمعُ صداها من التّلال المقابلة.

سمع والد ابراهيم «الزّلغطة» تقترب من بيتهم، فوقف على عتبة الباب. وما إن أطلَّ الجمع حتّى اقترب من ابنه واحتضنه بفخرٍ ومحبّة؛ فالوالد كان من القلّة القليلة المتعلّمة في القرية، لا بل في المنطقة. ففي أيام طفولته، كانت القراءة والكتابة حكراً على الأغنياء، وكان تعليمه يخوّله أن يجدَ وظيفةً في الدّولة، ولكنّه آثر الاهتمام بأراضيه والبقاء في القرية.

لم يكن والد ابراهيم من المتعلّمين الميسورين الذين يتعالون على الناس، بل كان ودوداً حكيماً يحفظ الشّعر ويجيد نظمه. وكان يملك منزلاً فسيحاً، مكوّناً من دارٍ واسعةٍ وغرفتيْن للنّوم، متميّزاً عن أكثر بيوت القرية الشّبيهة بالأكواخ والمبنيِّ أكثرها من الطّين. وحين ترشّح كمختارٍ للقرية منذ نحو عشرين عاماً، فاز بالتّزكية، على الرّغم من أن عائلته ليست العائلة الأكبر في القرية. ومنذ ذلك الوقت، لم يجرؤ أيُّ وجيه عائلةٍ آخر على منافسته، حتّى إنَّ مناصريه أصبحوا يطلقون عليه لقب وجيه الوجهاء.

وعلى الرّغم من كونه كان ميسور الحال، فقد كان «المختار» يحرص حرصاً خاصّاً على أن لا يُشعرَ أولاده بأنّهم أفضل من بقيّة الأولاد في شيء. ولم يكن يهتمُّ لامتعاض زوجته التّي كانت تريد أن يلبسَ أولادها أفضل من أترابهم، وأن لايعملوا في الأرض كما يعمل غيرهم. وحين كانت تتجرّأ على التّلميح إلى الأمر أمامه من حينٍ إلى آخر، كان ينهرها مُوبّخاً، فالولد، بالنّسبة إليه يجب أن ينشأَ على العوَز، وأن يفهمَ منذ الصّغر معنى المساواة. وعندما كبُر ابراهيم وانخرط في صفوف الحزب الشّيوعيّ، تقبّل الوالد الأمر الغريب في حينه عند أهل القرية، بفكر المتنوّر العادل رغم إيمانه الفطريِّ الشّديد المتوارث في عائلته أباً عن جدّ.

في صباح اليوم التّالي، وبعد يوم قضاه مع أهله يستقبلون المهنئين، نهض ابراهيم والغبطة تغمره. فرك عينيْه بسرعة ثمَّ فتحهما ليتأكدَ من أنّه ليس في حلم، وأنَّ كابوسه قد مرَّ بسلام. وبسرعة البرق بدأ يحثُّ الخطى صاعداً التّلة باتّجاه شجرة البطم العملاقة، التي اعتادت أن تجمعَه بوداد، فوجدها على غير عادةٍ قد سبقته. وما إن رأته حتّى ركضت في اتّجاهه لتعطيَه القبلة التّي وعدته بها إن نجح، والتي حلم وحلمتْ بها طوال اللّيل، ولكنّها عندما أصبحت على بعد خطواتٍ منه، شعرتْ بالخجل فاكتفت بأن مدّت يدها مصافحة:

- مبروك يا برهوم.

- ألله يبارك فيك ياوداد.لقد كان النّاس يحتفلون في بيتنا البارحة، وأنا لم أكن أفكّر إلّا فيكِ.

- حقاً؟

نظر إليها نظرة عتب رداً على نبرة الشّكِّ في كلامها، فتبسّمت بهدوئها المعهود، وجرّته من يده باتّجاه صخرتهما الكبيرة المشرفة

بجبْروتٍ وعنفوانٍ على القرية، كنُصُب أبي الهول، واستظلّا بها، جذبها نحوه فمالت بوجهها لتسمحَ له فقط أن يسرقَ القبلة من خدّها، مُبعدةً إيّاه بكتفها، فالوقت لم يحن بعد للذّهاب أبعد من ذلك، فأمسك يدها النّحيفة النّاعمة بشغفٍ وقال بضحكةٍ خافتة:

- انظري كم هي جميلةٌ ضيعتنا، كنتُ ألعنها البارحة لبعدها عن العاصمة.

- أعتقد أنّها أجمل قرية.

ثمَّ أردفت:

- وما أدرانا، فنحن بالكاد نعرف القرى القريبة، أتعرف بماذا أشبّهها؟

- قولي.

- أراها وسط التّلال تحيط بها من كلِّ صوب كجرنٍ مستطيلٍ مُقفل، فنحن بالكاد نستطيع رؤية الممرّين الضّيّقيْن في أعلى الوادي وأسفلها حيث تعبر الطّريق.

- معكِ حق، كم أنت دقيقة الملاحظة يا وداد، مع أنّني أرى ذاك الممرَّ في الأعلى أوسع بكثير ممّا ترينه، وكأنّه امتدادٌ للتّلال الخضر حوله. والآن، قولي لي هل أنتِ سعيدةٌ باقتراب تحقيق حلمنا؟

- البارحة، حين عرفتُ بنجاحك شعرت بأنَّ قلبي قفز من مكانه من شدّة الفرح. وكم كان بودّي لو أذهب إليك وأهنّئك، ولكنّك تعرفُ ما كان ليقولَه النّاس.

رسما تفاصيل حياتهما الواعدة كأنّهما عصفوران يجمعان القشَّ لينسجا عشّهما فوق أغصان شجرة البطم، وتعاهدا ألّا يفترقان أبداً، وأن يبقيا أوفياء لحبّهما ما حييا.

لم يمضِ شهرٌ حتّى عُيّن ابراهيم مدرّساً في قريةٍ تبعد عدّة كيلومترات عن فطر. فالقانون حينها كان يفرض على المعلّمين أن يبدأوا التّدريس خارج قراهم. وكان ابراهيم يدرّس كلَّ الصّفوف وكلَّ المواد، مع أنَّ شغفه بالأدب العربي والشّعر، الموروث من أبيه، جعلاه يولي هذه الحصّة أهميّةً خاصّة. وبعد سنةٍ استطاع الانتقال إلى فطر.

لم يطل به الوقت، حتّى صارح والده برغبته في الزّواج، فوافقه من دون أن يسألَه عمن تكون الفتاة. لم يستغربِ ابراهيم هذه الموافقة السّريعة، فلطالما كان يردد على مسمعه: «تزوّجْ من الفتاة التي تريد ولن أسألكَ». ثمَّ كان يلتفت إلى أخواته قائلاً: «إذا عُرض على إحداكنَّ الزّواج من شخصٍ ورفَضَت فلن أناقشَ السّبب، بينما في حال قبلتْ فسوف يتحتّم عليها انتظار موافقتي»، لأنّه كان يدرك أهميّة أن تتزوّجَ الفتاة العربيّة من رجلٍ خلوق، وإلّا استخدم السّلطة شبه المطلقة المعطاة له من المجتمع، وبحكم الشّرع الدّينيِّ، كما يهوى ويشاء.

وحدها، والدة ابراهيم اعترضت على هذا الزّواج، وذكّرت زوجها بفقر هذه العائلة وخصوصاً ما يُروى عن والدة الفتاة الّتي ظلّت خمس سنواتٍ من دون إنجابٍ بعد الزواج، وكاد زوجها يُطلّقها لأنّها امرأةٌ عاقر، إلى أن كان حمْلها الوحيد بوداد. ولكنّها لم تلقَ أذناً صاغيةً من زوجها الّذي نهرها مانعاً إيّاها من إعادة الكلام في هذا الموضوع ثانيةً، فخضعت مُرغمة.

في اليوم التّالي، شكّل أعمام وأخوال ابراهيم وفداً، وقصدوا منزل عمِّ العروس يتقدّمهم والده «المختار»، ليطلبوا يدها. اختلى الرجال في غرفة الجلوس، بينما تجمّعت النّساء في غرفة النّوم الملاصقة، يسترقنَ السّمع من خلف الباب. وما إن سمعنَ الرّجال يقرأون الفاتحة، دلالةً

على الاتّفاق، حتّى انطلقن بالزّغاريد:

آوييييها ياجماعة كِلْكُنْ

آوييييها وما نسينا فضلكنْ

آوييييها واليوم عنّا

آوييييها وانشالله بكرا عندكنْ

ليلييييييييش

-2-

تتربّع ضيعة فطر على سهلٍ فسيحٍ من منطقة جبل عامل، وتنتشر حولها ضيعٌ وبلداتٌ أخرى، تارةً في الأودية المجاورة، وطوراً على سفوح وقمم الهضاب، لتشكّلَ معاً نسيجاً جميلاً من الطّيبة والبراءة والعناد.

أمّا السّبب في إضفاء هذا الاسم غير المألوف على الضّيعة، فيُعيده النّاس إلى أنَّ الفطر ينبت كثيراً في ترابها، فترى الصّغار والكبار ينتظرون موعد الرّعد والبرق في شهري «كوانين» لينتشروا في الحقول وعلى التّلال، وأعينهم شاخصةٌ إلى الأرض، يبحثون عن «فطروشٍ» هنا أو هناك.

كانت تلك القرى تعتمد في معيشتها على زراعة التّبغ، يشارك أفراد العائلة جميعاً في مواكبتها بجهدٍ وتعبٍ على مراحل متقطّعةٍ من السّنة. فما إن تنتهي مرحلة تحضير المشاتل ونفّها بالبذور، حتّى يأتيَ، بعد أسابيع، موسم الزّرع، فتُقلع الشّتلات ويتمُّ زرعها في الأراضي المفلوحة جيداً والمثلّمة. ثمَّ بعد نحو شهرين، يأتي موعد قطاف الورقات، وشكّها واحدةً واحدة، بمساعدة مسلّاتٍ في خيطان مصّيص[2]، ثمَّ توضع تحت الشمس، وما إن تجفّ الورقات بعد أسابيع، حتّى تبدأ مرحلة التّصفيف[3]، فتُفرطُ من خيطانها وتُصفّفُ في مجموعاتٍ لتصبحَ جاهزةً للبيْع.

مرحلة الزّراعة هي الأصعب والأهمّ، والعامل المحوريُّ فيها هو «المنطعجيّ»، الّذي يجب أن يكونَ بالضّرورة رجلاً متين البنية، مفتول

عضلات السّاعديْن، يستعمل الـ«منطاع»[4] لإحداث خرقٍ تلو الآخر في الثّلم، يملأها بالماء لتزرع الشتلات فيها. ويجب أن يكونَ باستطاعته المتابعة على هذا المنوال لساعاتٍ طويلة، وبئس العائلة الّتي ليس لديها منطعجيّ، لأنّها ستكون مضطرةً لاستخدام أحدهم بأجرةٍ مرتفعة.

إنّ مشاركة أفراد العائلة كافةً في هذه المرحلة إلزاميّة؛ فهناك من يهتمّ بإيصال الماء والشّتلات، ومن يحضّر الشّاي أو الطّعام، وكأنَّ العائلة خليّة نحل، تعمل بتنسيقٍ وتراتبيّةٍ ممتعيْن للنّظر.

وفي الأسابيع والشّهور الّتي تفصل مراحل العمل، كان العدد القليل من الأطفال الّذين يتابعون دراستهم يقصدون مدرسة القرية المتواضعة، إذ عليهم العمل في زراعة التبغ.

في الخمسينات من القرن الماضي كانت هذه القرى الفقيرة مهملةً منسيةً من الدّولة، فلم يكن في المنطقة كلّها إلّا طبيبٌ واحدٌ متواجدٌ في البلدة الأكبر والّتي هي عاصمة القضاء. أمّا المدرسة فقد كانت عبارةً عن غرفةٍ واحدةٍ تُجمع فيها كلُّ الصّفوف، حيث كان الأستاذ الوحيد في القرية يشرح درس الجغرافيا للجهة اليمنى من الصّفّ، وتكون الجهة اليسرى منهمكةً بحلِّ مسألةٍ في الرّياضيّات، والجهة الوسطى تطالع نصّاً باللّغة الفرنسية.

بالإضافة إلى الفقر والحرمان، لم تنعم هذه المنطقة بالاستقرار منذ قدم التّاريخ. فقد كانت دوماً مسرحاً للحروب والغزوات المتكرّرة والدّوريّة، الّتي كان آخرها في تلك الفترة نكبة سنة 1948 حين قُسّمت فلسطين إلى دولتيْن، فلسطينيّة وإسرائيليّة، وهُجّر مئات الآلاف من الفلسطينيّين من مدنهم وقراهم، ليلجأوا إلى الدّول العربيّة المجاورة، ومن ضمنها لبنان.

وهكذا، انحشر سكان فطر، كما سائر سكان القرى المجاورة، بين سندان الفقر ومطرقة الحالة الأمنيّة غير المستقرّة. وتزايد النّزوح إلى البلدات والمدن البعيدة وصولاً إلى بيروت. ثمَّ أخذت الهجرة طريقها إلى الدّول الأفريقيّة والأميركيّة. كانت الهجرة في أكثر الأحيان ظرفيّةً وآنيّة، إلّا أنها أخذت، عند جزءٍ لايستهان به من النّاس، شكل الهجرة الدّائمة والنّهائيّة.

وبدأت تظهر علامات التّذمّر والتّمرّد على الأوضاع السّياسيّة، ووجد النّاس ضالّتهم في الأحزاب العقائديّة، وخصوصاً «الحزب الشّيوعيّ» و«حزب البعث» و«حزب الكتائب» و«الحزب القوميّ»، وكان لصعود الاتحاد السّوفياتيِّ الستالينيِّ في حينه، كبير الأثر في نفوس الشّباب، فانتشر الحزب الشّيوعيُّ فوق حقول التّبغ من قريةٍ إلى أخرى، سرّاً في البداية، ثمَّ بدأ يعمل في العلن، على الرّغم من الحظر الّذي كان مفروضاً عليه من السّلطات، داعياً إلى الإضرابات والتّظاهرات الّتي كانت تعلو فيها أهازيج:

نحنا رْجالكْ ماركس بيْكْ

مامِنْخافْ المَنيّة

الصّحة مليحة سْمالله عليْكْ

بْهاللّحْية الأشبهيّة.

ولكي تواجهَ السّلطات تذمّر أهل القرى حسّنت من أدائها، فشهدت فطر كما القرى المجاورة، تغيّراتٍ عمرانيّةً وخدماتيّةً كبيرة، وكذلك تضاعف عدد سكانها، وصار النّاس يسمعون بأطباءَ جدد، من قريتهم أو من القرى المجاورة، يستقرّون في عاصمة القضاء، وبدأت تظهر السّيّارات لتحلَّ محلَّ الحمير وسيلة نقل.

-3-

وداد، فتاةٌ متوقّدة الذّكاء، واثقةٌ من نفسها، ما رآها أحدٌ إلّا وأُعجب برصانتها وهدوئها. ومنذ وفاة والدها وهي طفلة، عانت الأمرّيْن من ظلم أعمامها، الّذين كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم أنّها لا تمتُّ إليهم بصلة قربى، وأنَّ ما يتداوله النّاس حول حمْل أمّها من الجار صحيح. ولهذا كانوا لاينفكّون يعاملونها كالغريبة ولا يمدّون يد العوْن لها ولوالدتها، فاعتادتا العيْش في كوخهما الصّغير، تقتاتان من عمل الأمِّ في خدمة البيوت.

إلّا أنَّ التّفاؤل بالحياة الجميلة لم يفارقها قطُّ، وعرفت كيف تجعل ابراهيم يقع في شباكها، بتوجيهٍ ومتابعةٍ دقيقةٍ من أمّها، الّتي وجدت في الشّابِّ صفقةً جيدةً أرادت من خلالها مصاهرة بيت المختار والزواج من المدرّس الميسور، وإثبات هويّة ابنتها في الوقت نفسه.

وبزواجها من ابراهيم، انتقلت وداد من حياة الفقر والهوان إلى الحياة الرّغيدة الكريمة، ولكن، مضت ستّة أشهرٍ ولم تظهر عليها بوادر الحمْل، وبدأت دورة معاناتها الثّانية.

وها هي، بعمرها الّذي لم يتجاوز السّبعة عشر ربيعاً، وبشعرها الأملس الأسود وعينيْها اللّوزيّتيْن الخضراويْن اللّتين تضفيان على وجهها الأسمر جاذبيّة مميّزة، تصبح سيرتها سريعاً على لسان كلِّ امرأةٍ في القرية، بالهمس في البداية، ثمَّ جِهاراً على مسمعها. كان الكلام من الحاسدة الّتي كانت ترغب بابراهيم زوجاً لابنتها، إلى الشّامتة بنَسَبِها

المشكوك فيه، أو المتهكّمة بالشّبه الكبير بينها وبين جارهم القريب.

وها هي تجد نفسها مشروع ضحيةٍ لهذا المجتمع الذّكوريّ، الّذي لا يعترف بأنّ هناك رجلاً عاقراً، بل هناك فقط نساءٌ عاقرات. وها هم رجال القرية ينقسمون حولها، بين أكثريّةٍ جاهلةٍ تعتبرها نصف امرأة، وأقليّةٍ متنوّرةٍ تقف في صفّها، وإن كانت أكثريّتهم تمنّي النفس أن تقعَ عليه القرعة فتختاره لإخصابها.

وها هي أمّها تشعر بمهزلة مأساتها الّتي تأبى أن تفارقَها، فتعود لتحطَّ على ابنتها، فهل ستتركها تنتظر أيضاً سنواتٍ من العذاب لتتصرّف؟ فأيُّ لعنةٍ هذه التي تستعيد ماضيها، وأيُّ مهزلة هذه التي تطوّق حاضرها! وأدركت بسرعةٍ أنّه لابدَّ من الإسراع، فخير البرِّ عاجله. وأسرّت لابنتها بالوصفة السّريّة إذا ما طال الأمر. ولكنَّ وداد رفضت رفضاً قاطعاً في البداية، ثمَّ بدأت تلين مع الوقت، وتركت لنفسها فرصة سنةٍ بعد الزّواج قبل أن تعملَ بنصيحة أمّها، وإن كان الشّكُّ قد بدأ يتسرّب إلى ذهنها. ماذا لو كانت عاقراً فعلاً؟

كان والد زوجها أكثر ما يعزّيها في محنتها، لقد أحبّها كابنته، ولم يكن يسمح، على الأقلِّ أثناء وجوده، أن يُوجَّهَ إليها أيُّ كلامٍ مُهين. وكان يفاتحها بالموضوع كلّما سنحت له الفرصة، ناصحاً إيّاها بالصّبر وعدم التّوتر. ومع أنّه باشر ببناء منزلٍ لها ولابنه، وأصرَّ قبل البدء بإنشائه أن يسجلَه لها كعربون محبّة، إلا أنّه ظلَّ يتمنّى أن تبقى قربه ولا تبتعد عنه أبداً.

أما ابراهيم، فلم يكن يكترث لكلِّ ما يُقال، وكأنَّ الأمر لايعنيه، صار يهملها وتحوّل من رجلٍ محبٍّ لزوجته، شغوفٍ بها، إلى أنانيٍّ كلُّ همّه حياته الشّخصيّة. كان مثالاً للرّجل المتفاني في عمله، وغالباً

على حساب حياته الزّوجيّة ثمَّ العائليّه في ما بعد. يقضي جزءاً كبيراً من وقته بعد انتهاء الدّوام في المدرسة، يتابع أحوال التّلاميذ وتطوّرهم، فلم يرسب عنده تلميذٌ إلّا نادراً. أمّا الوقت المتبقّي عنده، فكان يكرّسه للنّشاط الحزبيّ، أو للمشاركة في النّدوات الشّعريّة والأدبيّة، أو ارتياد المقهى الوحيد في القرية حيث يمارس هوايته في لعب الورق.

لم يناقش معها يوماً موضوع حملها، ولم يحاول الحديث عن الذهاب إلى طبيب. ربّما لأنّه كان يعرف في قرارة نفسه أنّه يعود، على الأرجح، إلى أدائه الجنسيِّ المشين، بل تابع اهتمامه بمشاغله الأخرى غير آبهٍ بالمعاناة الّتي تمرُّ فيها. لم يكن يعلم أنّه يزرع في قلبها بذرةً من الضّغينة، ويتركها تنمو وتتغلغل في كلِّ جزيئات جسمها، وأنَّ حقد المرأة المكبوت لا بدَّ وأن ينفجرَ يوماً ما، وفي مكانٍ لن يتوقّعَه، وربّما لن يعرفَ به أبداً.

اعتادت وداد أن لا يرجعَ زوجها إلى المنزل إلّا في أواخر اللّيل منهكاً تعباً، فلا ينتبه لوجودها إلّا عند حاجةٍ تتطلّبها نفسه، فينهرها على التأخّر في تحضير وجبته، أو تسخين الماء ليستحمّ. وتدريجاً، أصبحت اللّقاءات بينهما تقتصر على العلاقة الجنسيّة، فقط حين يشعر هو بالرّغبة من حينٍ إلى آخر، فيأخذها، وهي نائمةٌ في أغلب الأحيان، ويفرغ فيها، أو عليها، مخزونه بسرعةٍ كأنّها دميةٌ مطّاطيّة، من دون أن يكترثَ إذا ما بلغت هي الذروة أم لا. وهي في الواقع لم تعرفها معه أبداً.

لم يكن ابراهيم حالةً خاصّة في تعاطيه الجنسيِّ مع زوجته، فكان مثَلهُ مثَلُ الكثير من الرّجال الشّرقيّين الّذين يغتصبون زوجاتهنَّ في ليلة الدّخلة ويأخذوهنَّ بالقوّة والعنف من دون أيِّ اعتبار لكونهنَّ كائناتٍ بشريّة، ولاحقاً، غالباً ما كان هذا الصّنف وغيرهُ من الرّجال يأخذ امرأته

وهي نائمة، كمن يسرق منها شيئاً لا تريد منحه له، ربّما خوفاً من أن تضبطَه متلبّساً بالجريمة فتسأله عن حياته وتفتح ملفاتٍ سابقة.

هؤلاء النّساء كنّ يقضين حياتهنَّ في كبتٍ وحرمان، مغلوباتٍ على أمرهنَّ أو، أحياناً، جاهلاتٍ معتبراتٍ أنّه لا يحقُّ لهنَّ التّساؤل فيكتفين بما يُمارَسُ عليهنّ، ولكنَّ مخيلتهنَّ غالباً ما تستفيق، كبرعمٍ يتفتّح بعد طول انتظار، خصوصاً عند معرفتهنَّ بخيانة الزّوج، أو عندما تتجرّأ إحدى العارفات بمعنى لذّة الجنس على البوح بتلك المشاعر أمامهنّ، فتلجأنَ إلى الخيانة، إمّا عن سابق إصرارٍ وتصميمٍ ومعرفة، وإمّا بدافع الغريزة الجنسيّة.

بعد سنةٍ من الزّواج، انتقل ابراهيم وزوجته إلى منزلهما الجديد، المُحاط بشجيْراتٍ عديدةٍ زرعها والده بيده نصبةً نصبة. وبينما كان اليأس قد بدأ يستحوذ على وداد، وبدأت تستكشف الشّباب لاختيار الفحل الوسيم المتين ليقوم بالمَهمّة، شعرت بحمْلها، ولكنّها انتظرت شهريْن قبل أن تزفَّ الخبر، في البداية لأمّها، ثمَّ لزوجها، وأنجبت في كانون الثاني من العام 1957 طفلها الأوّل الذي سمّته نجماً. وجرياً على التّقليد في المجتمعات العربيّة، منذ اليوم الأوّل لولادة نجم، ولأنّه صبيّ، أصبح لابراهيم اسمٌ ثانٍ «أبو نجم»، وأصبح لوداد اسمٌ ثانٍ «أمُّ نجم».

وجاء الجيران والأقارب يهنّئون أبا نجم وهو يحاول إخفاء فخره وفرحه. فكم من رجلٍ انتظر طويلاً قبل أن يأتيَه المولود الذّكر، وتحمّل الذّلَّ والهوان، وصَبَرَ بألمٍ وخزيٍ على سماع النّاس يتابعون مناداته باسمه. وكم من طفلةٍ عانت الإهمال، لأنّها كانت المولودة الأولى، فكيف الحال إذا كانت المولودة الثّانيّة أو ما بعدها، وكم من امرأةٍ عانت

الأمرّيْن وضُربت وأُهينت، من الزّوج وأهله وأقاربه لأنَّ أولادها الأوائل كانوا إناثاً، وكم تحمّلت نظرات الازدراء، الممزوجة أحياناً بالشّفقة، من بقيّة النّساء اللّواتي يهسهسن ويثرثرن: «هذه امرأةٌ لا تنجب إلّا إناثاً، ماذا ينتظر زوجها ليعيدَها إلى أهلها؟».

أمّا أبو نجم، فعلى الرّغم من سعادته بمولوده الأوّل، فإنّه لم يغيّر شيئاً في سلوكه. حتّى عندما ولدت بعد سنةٍ ونيِّف طفلتهما الأولى زينب، كان غائباً عن البيت في مَهمّةٍ حزبيّة، غير آبهٍ بصعوبات الولادة الّتي كانت تجري في حينه في المنازل بإشراف الولّادة أو ما يسمّونه «الدّاية» بالعاميّة، وهي امرأةٌ لم تتلقّ أي تعليم يخصُّ مهنتها، بل اكتسبتها بالخبرة في أغلب الأحيان.

وتدريجاً، بعد مرور وقتٍ قصيرٍ على ولادة زينب، أصبح أبو نجم عدائيّاً في كلامه وتصرّفاته مع وداد، وصولاً إلى الشّتائم والإهانات، وهو الرّجل المهذب مع النّاس إلى حدِّ المثاليّة. واكتشف، أو ربّما هُيِّئَ له، أنَّ السّبب الأوّل لإصراره على حبّها والزّواج منها كان إغاظة والدته الّتي لم تثق به يوماً، والّتي كانت دوماً تفضّل أخاه الأصغر المدلّل عندها، والّذي يشبهها بعجرفته.

كانت أمُّ نجم، بهدوئها وكرهها للشّجار، تتحمّل بصبرٍ وكبرياء. هي الفتاة العفويّة الّتي لاتستطيع عادةً إخفاء مشاعرها. ولكن ما عساها تفعل؟ هل تعود إلى بيت أمّها ذليلةً مكسورة؟ وإذا قبِل تطليقها، فهل سيسمح لها برؤية طفليْها؟ وماذا ستكون ردّة فعل أعمامها الّذين شعروا منذ زواجها بخروج العار من عائلتهم، ولن يقبلوا بأن يتسلّل إليهم من جديد. ولم تكن في يدها حيلة إلّا متابعة عذاباتها بانتظار الفرج. وبدأ حبّها الّذي كانت تخاله أبديّاً يتهاوى كورق الخريف.

ولما حملتْ بمولودها الثّالث، وربما بتأثير أفكارها وإصرارها على أن تكون قويّة وتواجه مصيرها، شعرت بعلاقةٍ خاصّة مع هذا الجنين الّذي ينمو في أحشائها، كانت تتلمّس بطنها وتتحسّسه بفخرٍ وفرح، وكلّما كبر وتكوّر كانت تزداد تعلّقاً بجنينها، ولم تفهم أبداً سرَّ هذا الإحساس الّذي لم تشعر به في حَمْليْها السّابقيْن. حتّى إنَّ «الدّاية» عندما سحبته من رحمها، بسهولةٍ لم تعهدها إلّا نادراً، أصدر صرختيْن يتيمتيْن خافتتيْن ثمَّ فتح عينيْه على وسعهما بغرابةٍ لافتة، كمن يلج مكاناً كان يظنّه خالياً فيُفاجأ بكثرة الحضور.

ولمّا تناولته أمُّ نجم بين يديها، ضحكت بملء فيها رغم الألم الّذي تشعر به، واحتضنته بحنانٍ وهي تلهث من التّعب، وخاطبته بصوتٍ منهك: «بماذا أنت شاردٌ يا طفلي الصّغير؟». وبعد أيام، أصرّت أن تطْلقَ عليه اسماً غريباً، شارد، ولم تلقَ طبعاً، لا اعتراضاً ولا موافقةً من زوجها، فعنده الكثير من الأولويّات الأخرى ليهتمَّ بها.

-4-

ثلاث سنواتٍ ونيِّف مرّت بعد ولادة شارد، استمرَّ فيها إهمال أبي نجم لعائلته، وانقطعت علاقته الجنسيّة مع زوجته بشكلٍ شبه كلّيّ. كانت الزوجة تشعر بخيانته وتشّكُّ بغيباته المتكرّرة حتّى أواخر اللّيل. ثم بدأت تتابع ما تتهامس به النّساء عن علاقته بتلك الفتاة المسيحيّة من قرية عين الوادي القريبة.

أما هو، فكان كلّما أحسّ أنها تشير إلى هذا الموضوع أمعن في الاستهتار بها وطعن مشاعرها. فلم يعُدْ يبدي اهتماماً بقميصٍ ملوّثٍ بالحمرة هنا أو بالشّعرات الكستنائيّة التي تجمعها عن ثيابه. وبدأت تتساءل عن الجدوى من عصاميّتها ورصانتها، وما هي الفائدة من حبّها وتفانيها؟ عانت كثيراً في طفولتها؟ وها هي، من جديد، تجد نفسها في موقع الخاسر الّذي يجب عليه أن يضحّيَ، ولمن؟ ثم أين أصبح حلم السعادة الذي كان يعدِها به؟

عند حلول صيف العام 1964، كان كبتها الجنسيُّ ورغبتها بالانتقام قد وصلا إلى حدود الانفجار. وعلى عكس المنطق، يظنُّ أكثر الرّجال الّذين يخونون زوجاتهم أنَّهن مخلصات لهم وقد استسلمن للأمر، بعكس الرّجال المخلصين لزوجاتهم، فتراهم يغارون ويدبُّ فيهم الشّكُّ لمجرّد أن تلتقيَ نظرات زوجته بنظرات رجلٍ آخر. وأيضاً، يشعر الرّجل أنَّ سكوت زوجته عن خيانةٍ كشفتها، مردّه حرصها على بيتها

العائليّ، ولا يدرك أنّها سوف تلجأ للخيانة بأسرع ما يمكن، وأحياناً فقط لمجرّد الرّيبة، مدفوعةً بكبتها الجنسيِّ الدّفين، وبرغبتها في الانتقام. وكثيراً ما تتوجّه إلى الخيانة المتطرّفة، كأن تختار أحد أقرب أصدقائه أو حتّى أخاه، ما سوف يشبع غريزتها الشّهوانيّة، وفي الوقت نفسه يشبع رغبتها في انتقامٍ أكثر لؤماً وأشدَّ وقعاً.

هكذا، وقع اختيار أمِّ نجم على أبي أمين، الرّفيق، والصديق الأقرب والأوفى لأبي نجم، والّذي يقع دكّانه على مقربةٍ من منزلهم. ولمّا رأته في ذلك الصّباح، يبالغ في حلاقة ذقنه، لدرجة أنّه تسبّب لنفسه بجرحٍ بسيط، ويتحاشى تلاقي نظراتهما، تقدّمت منه، منقادةً بحسّها الأنثويّ، وبخبرة النّساء الفطريّة بنصب الكمائن الحواريّة، سألته:

- هل ننتظرك على العشاء الليلة؟

أربكه سؤالها، وحاول إخفاء ارتباكه بأن أطال مسح وجهه بالمنشفة. كان متيقّناً أنَّ عينيْها تراقبان كلَّ حركةٍ، وبغبائه الذّكوريِّ الفطريِّ المتعالي أجاب:

- لا، عندي مَهمّةٌ تنظيميّةٌ هذا اليوم، وسأذهب بعد المدرسة خارج البلدة، فلا تنتظروني على العشاء.

لم تنتظر طويلاً بعد خروجه مصطحباً ولديْهما نجم وزينب إلى المدرسة، حتّى دخلت إلى غرفة نومها، نزعت عنها ثيابها العلويّة ووقفتْ أمام المرآة تخاطب جسدها كأنّها تختلي به للمرّة الأولى. شعرت بمعاناته وبتأنيبه لها على إهمالها له في السّنين الفائتة. ألقت نظرةً متفحّصةً على ثدييْها قبل الحدث الّذي كانت قد خطّطت له، وكأنّها ستنتقل معهما إلى مرحلةٍ جديدةٍ من حياتها. أزعجها التّكوّر الّذي بدأ

يظهر في أسفل بطنها، فهي حاملٌ في شهرها الرّابع. ثمَّ ما لبثت أن قالت في سريرتها: «وما همَّ، هذا أفضل»، هزّت رأسها بسرعةٍ فتراجع شعرها الأسود النّاعم إلى الخلف، وتابعت متمتمةً: «فليكن لك ماتريده يا أبا نجم».

اختارت تنّورتها الحمراء وراحت ترفعها إلى أعلى متأمّلة انكشاف فخذيها الأملسين كالرخام. ونبشت حمّالة الصّدر الحمراء الّتي اشترتها وخبّأتها منذ يوميْن بغفلةٍ من أبي نجم، زمّت ثدييْها داخلها، وقد ازدادا حجماً مع الحمْل. وبعد أن لبست قميصاً أبيضَ عادت فخلعته ثمَّ نزعت الحمّالة لتطلقَ سراح نهديها في مشوارهما الجديد، واختارت لهما قميصاً ضيقاً أسودَ فارتسما من خلاله كرمّانتيْن ثقيلتيْن وقد تأخّر قطافهما.

لم تنتبه لشارد، الّذي بدأ يقترب من سنِّ الرّابعة، واقفاً وراءها يسألها:

- إلى أين تذهبين يا ماما؟

لم يعتدْ خروجها باكراً قبل شرب القهوة على المصطبة مع السّيجارة التي تُخرجها، كما كلَّ يوم، من مخبئها في خزانتها؛ اقتربت منه وقبّلته قائلةً إنّها مضطرّةٌ لشراء بعض الحاجيات من الدّكان، وتريده أن يبقى في انتظارها عند الجارة، وهو الّذي تعوّد أن لا تتركَه أبداً طوال النّهار.

ألبسته ثيابه بسرعة، ثمَّ جرّته من يده ومشت بوجهٍ جامدٍ وخطىً ثابتةٍ وتصميم جنديٍّ مُنطلقٍ في مَهمّةٍ لا مجال للرّجوع عنها. دخلت حديقة الجارة المحنّكة، الّتي كانت ترقب ورودها الحمر والصّفر تتفتّح تحت أشعّة الشّمس المذهّبة، فناولتها يد شارد، وطلبتْ منها، على غير عادتها، العناية به لحين عودتها من الدّكان. كانت الكلمات تخرج من فمها مقتضبةً مرتعشة، هاربةً بعينيها في كلِّ الاتّجاهات، فنظرت الحاجّة

عليّة إليها متفحّصةً ولسان حالها يقول: «كاد المُريبُ أن يقولَ خذوني!».

دخلت أمُّ نجم الدّكان وما إن رآها أبو أمين حتى أصابته دوخة خفيفة ووقف من دون أن يحسّ.

- صباح الخير يا أبو أمين. قالتها بصوتٍ خافتٍ خرج كسيلٍ ملتهبٍ ينساب هادئاً إنّما من فوّهة بركان، ونظرت إليه نظرةً جعلت جسده يرتعش.

فبلع أبو أمين ريقه، وبرزت مخالبه جاهزةً للانقضاض. ولمّا سألها عما تريده، وكيف يخدمها، وقد بدا الإرتباك عليه. تبسّمت وتوجّهت مباشرة إلى الزّاوية المعتمة المعزولة من الدّكان، قائلةً إنّها ستختار بنفسها المعلّبات الّتي تريدها. وما إن وصلت حتّى مالت بجسمها ببطءٍ إلى الأمام مظهرةً بالتدريج ساقيْها، ثمَّ فخذيْها أعلى فأعلى حتّى المفترق الغائر النّائل من الرّجال مقتلاً، والّذي ينقلهم بلمح البصر إلى حالتهم الحيوانيّة الغرائزيّة.

وبينما كانت تمارس لعبتها الإغرائيّة، كان الدّم يتصاعد إلى رأس أبي أمين كشهبٍ يتعالى في السّماء، فأصبح وجهه كالبِطّيخة الحمراء. وبينما كانت عيناه تنبشان خبايا هذا الجسد المثير، رجع بذاكرته إلى الوراء، الى الماضي القريب والبعيد، فكم من مرّةٍ غفا وهو يحلم باجتياحه، وكم من مرّةٍ استخدم مخيّلته ليضاجعَها تارةً في الحقل وطوراً في الخيمة على سطح منزله، وكم من مرّةٍ قبّلها بعنفٍ وشهوةٍ بينما أمُّ أمين تنتشي بين يديْه متسائلةً عن سرِّ هذه الخبرة والقوّة والحنان التي تهبط عليه فجأةً من حينٍ إلى آخر، ثمَّ تتفاجأ به يبعدها بجفاءٍ حالما ينتهي ويدير وجهه إلى الجهة المقابلة من الفراش.

في هذا الوقت الّذي كان فيه أبو أمين يتأمّل ويحلم، كانت أمُّ نجم

تأخذ وقتها بتروٍ وهدوء، متيقّنةً من ملامسته حدود الانفجار، فتحمل هذه العلبة لتتركَها ثمَّ تحمل الأخرى، مقرّبةً فخذيْها أحياناً لدرجة الاحتكاك، ثمَّ مبعدةً إيّاهما. وبنظرةٍ جانبيّةٍ خاطفة، أحسّت بإثارته تبلغ أوْجها، فعدّلت من وقفتها وطلبت منه مساعدتها، وبينما كان يقترب منها، مالت من جديدٍ بجسمها إلى الأمام، وما هي إلّا ثوانٍ حتّى أخذها كما هي، وأفرغ في دقيقة مخزون سنينٍ من الشّهوة، ثمَّ تابع من دون توقّفٍ بالقوّة والنّشاط نفسيْهما، كما لو أنّه بدأ توّاً، عاصراً رمّانتيْها حيناً، وردفيْها حيناً آخر، بيديْن جامدتيْن، يشدّها إليه ويدفعها من دون أن يعيرَ أيَّ اهتمامٍ للرّفِّ الّذي يهتز تحت يديْها والمعلّبات الّتي تتساقط عنه.

وبينما كانت تتلوّى بين يديه، وتحصل على رعشاتٍ متتالية، تزداد قوّةً كلّما انغرزت أظافره أكثر في أسفل بطنها، كان هو مهتاجاً لا يفهم سرَّ هذه القوّة الّتي أتته الآن، فهو حتّى في ليلة زواجه، احتاج لأكثر من ساعةٍ من الرّاحة قبل أن يعاودَ الكرّة. وتوقّف فجأةً إذ سمع صوت امرأةٍ تنادي «هل من أحدٍ هنا؟»، فأجلس أمُّ نجم على صندوقٍ خشبيٍّ ولبس بنطاله بسرعةٍ وذهب لرؤية الزّبونة. تناولت أمُّ نجم علبة المحارم الورقيّة الّتي كانت قد حدّدت مكانها سلفاً عند دخولها الدّكان، مسحت ما تستطيع إزالته من آثار المعركة، وحالما أعطاها الإشارة خرجت مسرعةً بوجهٍ متورّدٍ حتّى ليخيّلَ لمن يراها أنَّ نضارتها عادت كما كانت عليه في سنِّ المراهقة قبل الزّواج.

أعمت النّشوة الّتي حصلت عليها أمّ نجم لأوّل مرّة في حياتها بصيرتها، فلم تنتبه أنّها لم تشترِ شيئاً من الدّكان، وحين ولجت حديقة الجارة، نظرت إلى شارد، من دون أن تراه، يلوّح لها بكفّه من أعلى شجرة اللّوز، ولمّا دخلت بيت الحاجّة ورمت بنفسها منهكةً على

الكنبة، لم تسمع كلمةً ممّا قالته لها جارتها، وقاطعتها متمنّيةً لو تأتيَها بفنجان قهوةٍ وسيجارة، وبينما الجارة منهمكةٌ بتحضير القهوة شعرت بالحريق في أسفل بطنها فرفعت قميصها ورأت علامات أظافر أبي أمين مرسومةً كأربعة أهلّة حمرٍ مؤلمةٍ من كلِّ جهة، فشعرت من جديد بالإثارة والرّغبة بالمزيد.

-5-

كانت الحاجّة علية امرأةً ستّينيّةً، تعيش وحيدة، زوّجها والدها، ولمّا تزل مراهقة، لرجلٍ ملّاكٍ من الضّيعة، وكان أرمل يكبرها بأربعين عاماً. بعد زواجها بشهور، تعرّض الزّوج لأزمةٍ قلبيّة، جعلته يخفّف نشاطه، فبدأت تساعده في الإشراف على أراضيه الواسعة، الّتي يزرع التّبغ في جزءٍ كبيرٍ منها بمساعدة عمالٍ يستخدمهم، ويؤجّر الجزء الآخر لمزارعين لقاء مبلغٍ غير قليلٍ من المال.

ومع الوقت، بدأت همّة الزّوج تخفت، وأصبحت الحاجّة، شيئاً فشيئاً، الآمر والنّاهي في كلّ شيء، تشرف على الزّراعة بمعرفةٍ وسلطةٍ أكسباها صيتها في القرية، أخت الرّجال، وما لبثت أن طردت المنطعجيَّ الجاحظ الأصلع، الّذي كان زوجها قد اختاره من بين أقربائه، بحجّة أنّه كان يتوقّف عن العمل لدقائقَ بعد كلّ خمسين خرقاً ينجزها بمنطاعه، واختارت آخر أكثر شباباً، تعطيه جبهته العريضة المتقدّمة فوق عينيْه السوداويْن ووجنتيْه النّافرتيْن شكلاً غرائزيّاً. ولم تلبث ان أنجبت ثلاثة صبيان، كان آخرهم بعد وفاة زوجها بأكثر من عشرة أشهر، قال الطّبيب إنّه تأخّر كثيراً في بطنها.

أحسّت الحاجّة بما حصل مع أمِّ نجم، ومن ثمَّ تأكّدت حين سمعت صرير باب الجرّار الحديديِّ لدكان أبي أمين ينزل دلالةً على الإقفال، ثمَّ رأته يمرّ من أمام بيتها مرهقاً ولكن مزهوّاً في الوقت نفسه، يمشي كديكٍ قد قهر تّوّاً منافساً بعد قتالٍ ضارٍ. ولمّا التقت عيناه بعينيْها، لم يصبّحْها

كعادته، بل أشاح بنظره كأنّه لا يريدها أن تقرأ فعلته في قسمات وجهه.

وبينما كانت تناول فنجان القهوة لأمِّ نجم، قالت لها، من دون مقدّمات:

- أتعرفين يا أمَّ نجم، أشعر أنَّ الحياة الجنسيّة الحقيقيّة والممتعة للرّجل والمرأة في مجتمعنا تحصل فقط عند الخيانة، وهذا مؤسف.

وركّزت نظرها على أمِّ نجم، الّتي تململت في مكانها مُحمرّة الوجنتيْن، وتناولت فنجان القهوة بيديْن مُرتجفتيْن لتخفيَ اضطرابها، ثمَّ أعادته إلى مكانه من دون أن ترتشفَ منه شيئاً وتمتمت:

- ربّما...أحياناً... معك حق.

وأشعلت سيجارتها بسرعةٍ، فأردفت الجارة لتخفّف من روعها:

- أنا أكنُّ لك كلَّ المحبّة يا أمَّ نجم وأعتبرك كابنةٍ لي، ولكنّي أعرف كم تعاني النّساء في مجتمعنا من الإهمال، وخصوصاً الإهمال الجنسيّ.

هدأت أمُّ نجم قليلاً، وفهمت مغزى تركيز الجارة على الجنس، فرمقتها بنظرةٍ لعوبٍ ثمَّ خفّضت بصرها وقالت بنبرةٍ ماكرة:

- ولكنَّ أهل الضّيعة يقولون إنّك لم تعاني كثيراً.

فهمت الجارة ما ترمي إليه أمُّ نجم فلم تنزعج، بل أطلقت ضحكةً عاليةً وقالت:

- في البدء أجل، لقد عانيت، ولكن بعد ذلك...

ولم تستطع، أو لم تشأ، إكمال جملتها فقد عاودها الضّحك لدرجة أنَّ عينيْها أدمعتا، ولمّا سيطرت بعد جهدٍ على ضحكها المتواصل، رشفت قليلاً من قهوتها ومجّت طويلاً من سيجارتها وقالت:

- فلنتكلم على المكشوف يا حبيبتي، ألا تجدين أنّه من الظّلم أن

يزوّجني والدي من رجلٍ يكبره سناً؟ إنَّ مجتمعنا ذكوريٌّ وظالمٌ مع المرأة، والمؤسف هو تواطؤ النّساء، ولكنَّ المرأة كما أصبحتِ اليوم تعرفين (وغمزت بعينها ابتسامة) تجد السّبيل، في أكثر الأحيان، لردِّ الصّاع صاعيْن.

وأعقبتْ كمن شفى غليله من ظالمه:

- نحن معشر النّساء أرقى منهم وأكثر إنسانيّة، نتلقّى في أحشائنا البذرة الّتي سوف تنمو، ونرعاها بعطفٍ وحنانٍ، بينما هم يقذفونها في أكثر الأحيان فقط من أجل القذف، فكأنَّ عضوهم لا يتبع مشاعرهم، كأنبوبٍ خارجيٍّ ضائعٍ في الخلاء، ولا لوم علينا إذا وجدنا السّبيل إلى اللّذة.

- ولكن هذا لا يرضي الرّبّ، فسوف يشوينا بالنّار يوم القيامة.

- لا أظنُّ ذلك يا ابنتي، أنا أؤمن بأنَّ الله موجود، ولكن ليس كما يؤمنون، فأنا لا أعتقد أنَّ ما يُسمّى الكتب السّماويّة تعبّر عن الحقيقة، وما ذهبت إلى الحجِّ إلّا ليكفَّ النّاس ألسنتهم عني، هذا في البداية، أمّا الآن فسِيّان عندي، أجاهر برأيي وليقولوا عنّي ملحدة اذا شاؤوا، كما ينعتون زوجك أو جارنا أبي أمين صاحب الدّكان.

وتبسّمت فرأت وجه أمِّ نجم يمتقع احمراراً، فتأكّدت كلّياً من ظنّها، فاستطردت بسرعةٍ حتّى لا تمعنَ في إحراجها:

- نحن نسمع كثيراً عن العلاقات الجنسيّة قبل الزّواج في أوروبا وننتقدهم ونكفّرهم، ولكن بعد تجرِبتي وتجرِبة نساءٍ كثيرات، اكتشفت أنَّ هذا أكثر صحّة للمجتمع، للرّجال والنّساء.

- نحن نفعل ذلك بالمقلوب إذاً. (قالت أمُّ نجم بصوتٍ خافتٍ وضحكت).

- أحسنتِ، ها نحن قد بدأنا نفهم بعضنا، وبالمناسبة تستطيعين ترك

شارد عندي متى أحببتِ، وعندما يدخل المدرسة في الخريف، لا حاجة بكِ لابتداع طريقةٍ لحصري في المنزل، سوف أكون الحارس الأمين لك.

وأطلقت من جديدٍ ضحكةً رنانةً مائلةً برأسها إلى الوراء وقالت:

- إشربي القهوة ولنغيّرَ الموضوع قبل أن نفضحَ أنفسنا أكثر.

- آخ منكِ يا حاجّة علية!

ما إن وصلت أمُّ نجم إلى بيتها، حتّى ارتمت على سريرها منهكةً، وغطّت في نومٍ عميقٍ، وحالما استفاقت بعد ساعات، شعرت بألمٍ شديدٍ في رأسها، حضّرت فنجاناً من القهوة وخرجت به إلى الشّرفة، وتدريجاً بدأ صداعها يتلاشى ليحلَّ مكانه إحساسٌ بالرّضى ممزوجٌ بقليلٍ من النّدم.

هذه هي المرّة الأولى الّتي تخون فيها زوجها، ولكن، أوليس كلُّ شيءٍ مكتوباً ومقدّراً؟ كما كانت تسمع إمام الجامع في القرية يقول وهو يؤمُّ المصلّين.

ولماذا يجب عليها تحمّل انقلاب ابراهيم عليها، من محبٍّ عاشقٍ إلى زوجٍ مُهمل؟ ما ذنبها في هذا التّحول الخارج كليّاً عن إرادتها؟ وهل من العدل أنّها لم تعرف تلك النّشوة قطُّ في حياتها قبل اليوم؟

ولماذا يجب عليها أن تقاسيَ معاناةٍ بعد أخرى؟ وكأنَّ الله يختبرها دون سواها، ألم يكن بوسعه تأجيل وفاة والدها؟ فتتربّى في كنفه يدلّلها كما يفعل كلُّ الآباء. ومع أنّها عرفت لاحقاً أنّه ليس والدها الحقيقيّ، وعرفت أنّه كان هو الآخر يعلم ذلك في قرارة نفسه، إنّما لا تزال تذكر كيف كان يغمرها بعطفه وحنانه، وكم كانت تشعر بالاطمئنان بوجوده.

ولماذا رماها القدَر في هذه القرية النّائية، فاضطرّت لقطع تعليمها في الصّفِّ الثّالث الابتدائيّ؟ فأعادت الصّفَّ مرّتيْن لعدم وجود صفٍّ

أعلى، وهي التي تمنّي نفسها أن تتعلّم أكثر. وأمِلتْ أن يفيَ زوجها بوعده لها قبل الزّواج بشراء كتبٍ وروايات لها تقرأها، ولكنّه، على العكس من ذلك، بدأت الغيرة تنهشه من حسن كلامها ولطافتها لدرجة أنَّ والدته بدأت تدريجاً تحبُّ الجلوس معها، ناهيك عن والده الّذي كان يزداد إعجاباً بها مع مرور الوقت، ولم يكن يتوانَ عن المجاهرة بالقول له إنّه لا يستحقّها. وكان هذا يدفعه إلى الاستهتار بها أكثر ومحاولة الحطِّ من ثقتها بنفسها، بدل أن يزدادَ حبّه لها.

شيئاً فشيئاً، بدأ الندم يتراجع أمام قناعةٍ جديدةٍ بدأت تتكوّن عندها. لن ترضى بمتابعة حياتها مقموعةً مكبوتةً على كلِّ الصّعد، وما دام كلُّ شيءٍ مقدّراً ومكتوباً، فما فعلته مع أبي أمين هو مقدّرٌ أيضاً.

ومع الوقت، بدأت تشعر أنّ علاقتها بأبي أمين حقٌّ مُكتسبٌ، لا لوم فيه، وأصبح منزل الحاجّة علية مرتعهما الدّافئ.

-6-

في هذه القرية النّائية والفقيرة، وضمن هذه البيئة العائليّة الممزّقة، وُلِدَ وترعرع شارد. ورث عن أمّه ذكاءها، هدوءها، ورهافة مشاعرها. فكأنّه نسخةٌ طبق الأصل عنها، ما زاد تعلّقها به منذ بدأ وعيه يتكوّن، فأحبّته أكثر من بقيّة إخوته من دون مواربة، وكانت تتحّين كلَّ فرصةٍ تسنح لها لتدغدغَه عندما كان صغيراً، ثمَّ لتلاعبَه وتحدّثَه عندما بدأ يكبر.

أمّا هو، فقد أصبحت أمّه بالنّسبة إليه عالمه الصّغير القريب والدّافئ، ترافقه كظّله ويجدها قربه كلّما احتاج إليها، بقدر ما كان والده يمثّل له القطب الآخر، البّعيد والقاسي، فكان ينظر إليه كمن ينظر إلى صخرةً في أعلى التلّة.

وتابع مرافقة أمّه إلى بيت الحاجّة علية، وكان، حين يأتي أبو أمين، يخرج للّعب في الحديقة من دون أن يُطلبَ منه ذلك، مُدركاً أنَّ تواجده في بيت الجارة خلال هذه الخلوات مهمٌّ لأمّه، من دون أن يفهمَ السّبب، مع أنّه كان يتساءل عمّا يقومان به في الغرفة الخلفيّة بينما الجارة منهمكةٌ بترتيب بقيّة الغرف، ولمّا وصل إلى مسمعه سؤال الحاجّة بعد خروج أبي أمين إن كانا سيتوقّفان، فهي ستلد بعد قليل، عضّت أمّه على شفتها السّفلى عتباً مومئةً إلى ابنها بطرف عينها، فما كان من الحاجّة إلّا أن تبسّمت ونظرت إلى الولد قائلةً: «لا تخافي لا يزال صغيراً ولا يفهم في هذه الأمور»، أمّا هو فرنا بنظره بعيداً، إذ ما همَّ ما دامت أمّه سعيدة.

ودخل شارد سنته المدرسيّة الأولى في خريف العام 1964، ومع

الوقت أبدى، على غير عادته في الحياة، تركيزاً على كلّ ما يتفوّه به أساتذته، فكان يلتهم كل ما يشرحه الأستاذ كلمةً كلمة. ولمس مدرّسوه بسرعةٍ تفوّقه اللافت، ما جعل أمّه تبدي فخراً به أمام كلِّ جيرانها وأقربائها. فكان الجميع يُكيل له الإطراء، حتّى إنَّ أبا أمين الأميُّ كان يناديه كلّما لمحه ماراً أمام الدّكان فيسأله عن عمليّةٍ حسابيّةٍ بسيطةٍ في الجمع أو الضّرب، ثمَّ يعطيه قطعة بسكويتٍ محشوٍ بالشّوكولا، وكان يعطيَه أحياناً قطعةً أخرى لأمّه.

إلّا أبو نجم. لم يعنِ له كثيراً تفوّق ابنه ولمعانه في المدرسة، أو ربّما لم ينتبه، واستمرَّ في تمييز نجم عن شارد وزينب، على الرّغم من فشله الدّراسي، لأنّه يعرف، قبل كلِّ شيء، أنَّ هذا يغيظ زوجته. وازداد اهتمامه بمهنته وحزبه وندواته الشّعريّة و....عشيقته. وعندما أنجبتْ أمُّ نجم مولودها الرّابع، بعد شهرٍ من دخول شارد المدرسة، لم يكن موجوداً، كما حصل عند ولادة زينب، فقد رجع متأخّراً من قرية عين الوادي.

كانت البرّيّة الملاذ المفضل لشارد، يسبح فيها كأنّه يمتلكها من دون سواه؛ فكان في الرّبيع، يجوب الحقول مطارداً الفراشات ومراقباً النّحلات تنتقل من زهرةٍ إلى أخرى، ترتشف رحيقها بأناقةٍ وانتظام، وفي الشّتاء ينتظر كبقيّة أترابه، انتهاء الرّعد ليقصدَ التّلال بحثاً عن الفطر، إذ كانت الأسطورة السّائدة أنَّ الرّعد هو السّبب في صعود «الفطاريش» على سطح الأرض، فيسيل لعاب الأطفال في اللّيل حين يسمعون صوته المخيف.

لم يكن شارد يُوفّقُ إلّا قليلاً بجمع الفطر. كان كثير الشّرود، يقطع فوق «الفطروش» أو يدوسه قبل أن يراه. وكان حين يصل إلى مسمعه ما

يردّده النّاس أنّه اسمٌ على مُسَمّى، تائهٌ في حبِّ الرّحمن، ينظر إلى البعيد بعينيْن حالمتيْن، تعلوهما مسحةٌ من الحزن العتيق، يفكّر أنَّ هذه حقيقةً وهولا يستطيع شيئاً حيالها.

كان ملاذه الآخر جدّه، ذلك الرجل الوقور، فيجلس قربه كلَّ مساء، ينتظر معه الزّوار المواظبين يوميّاً، يصلون الواحد تلو الآخر، يحملون معهم كدَّ نهارٍ كاملٍ من العمل في الحقول، ليفرّجوا عن تعبهم في أحاديثَ وحكاياتٍ كان شارد يستمع إليها بشغفٍ. ويستمتع برؤية هذه الوجوه الكادحة تطلق العنان لألسنتها تتكلّم ببساطة أهل القرى، عن كلِّ ما يخطر في البال من أفكارٍ وهواجس.

كان الحديث عن الأرض والزّرع أكثر ما يستحوذ وقتهم. يتكلّمون أحياناً جميعهم في الوقت نفسه، مُحْدثين جلبة، فيضع جدّه حينها يده على ذقنه البيضاء، وهي إشارته لأخذ الكلام، فيعمُّ السّكون بانتظار ما سيجود به المختار من طيّبات الأدب والمعرفة. وبطريقته الهادئة اللّبقة والرّزينة، يحدّثهم عن طرائف الحياة تارةً، وطوراً آخر يتلو عليهم أشعاراً من نظمه أو من المخزون الكبير الّذي حفظه من الشّعر العربيِّ القديم، وقد أصبح شارد يعرف الكثير من هذا الشِّعر جرّاء الاستماع المتكرّر.

وكان الجدُّ كثيراً ما يذهب بفكره بعيداً ويطرح تساؤلاتٍ لا يجد لها أجوبة حول ماهيّة الحياة والكون، ما يتعارض أحياناً مع خلفيّته الدّينيّة، وهو المسلم الشّيعيُّ المتحدّر من عائلةٍ شديدة الإيمان. وحين كان يصل إلى هذا المستوى من الكلام، تأخذ الكبوة جزءاً من الحضور، يستفيقون منها من حينٍ إلى آخر، خصوصاً عندما يرفع الجدُّ من نبرته، ليعودوا في اللّحظة ذاتها إلى كبوتهم. ويسرح جزءٌ آخر في شتلات التّبغ وزراعتها،

أو في الدّجاجة الرّقطاء الّتي مضى عليها أسبوعان ولم تبِضْ، مفكّراً إن جاء وقت ذبحها. والجزء الأكبر كان ينظر إلى أبي إبراهيم نظرةً ثاقبةً ليوحيَ أنّه يتابع ما يقوله وهو في الواقع لا يفهم شيئاً.

أمّا شارد، فقد كان دوماً يركّز قدر ما يستطيع، ويحاول فهم ما يسمح له عمره باستيعابه. وينظر في غالب الأحيان جاحظ العينين مائلاً بجسده إلى الأمام، ما يجعل جدّه يتوقّف أحياناً عن الكلام، ويثبّت نظره على حفيده متبسّماً، فيُعدِّل شارد قعدته ويرمش عدّة مراتٍ معلناً عودته إلى الوضع الطّبيعي.

ولكنَّ هذه الملاذات لم تكن لتعوّضَ شارد حالة الصراع الداخليِّ التي تتقاذفه، بين شعورٍ بالغربة المريرة تجاه أبٍ مهملٍ لعائلته، ظالمٍ لزوجته، وشعورٍ بالمحبّة والعطف تجاه أمّه. أصبح يكره عودة والده إلى المنزل، ويشعر بالسّعادة حين يغفو قبل مجيئه. فمن أيْن يأتي الأمان الدّاخليُّ إذا لم يكن هناك أمانٌ واستقرارٌ في العائلة.

مرّت سنتان، أنجبت خلالهما أمُّ نجم ابنتها الأخيرة. وعلى الرّغم من الحنان الّذي كرّسته لطفليْها الأصغريْن، فقد تابعت اهتمامها بشارد، كأنّه رجل حياتها. ونما فكره بشكلٍ غير عاديّ، وأصبح وعيه المميّز يدفعها أحياناً للخوف عليه، وازدادت العلاقة بينهما توطّداً، وأحاديثهما بدأت ترقى إلى مستوى الحوار بين صديقيْن بالغيْن. وكانت تشعر في الوقت نفسه، بالبعد عن ابنها البكر المدلّل من والده، والّذي يشبهه بأنانيّته وبعدم الاكتراث بمشاعر الآخرين، وتشفق على زينب اللّطيفة المهذّبة، إنّما المحدودة الجمال والذّكاء، الّتي بالكاد تستطيع النّجاح في صفوفها المدرسيّة.

وذات صباحٍ مشمسٍ ليوم من أيام فرصة رأس سنة 1966، وكان

شارد قد أتمَّ منذ أشهر السّنة السّادسة من عمره، استفاقت أمُّ نجم باكراً على غير عادتها، فوجدت شارد يجلس على المصطبة وحيداً ينظر إلى الجبال البعيدة، فاقتربت منه ومرّرت يدها على شعره النّاعم، وقالت:

- صباح الخير أيّها الشّابُّ الصغير، ماذا تفعل وحيداً؟

ثمَّ أردفت قبل أن تنتظرَ ردّه:

- مضى وقتٌ طويلٌ لم أرك فيه تقصد البريّة للمِّ الفطر، هلّا نذهب معاً!

لبس ثيابه على عجل، ومرّا معاً على الجارة فاستأمنتها على طفلتها الصغيرة ذات الثّلاث سنوات، تاركةً الأخ الأصغر برعاية أخته، وحثّا الخطى باتّجاه التّلة الّتي تعوّدت أن تؤويَها مع ابراهيم الّذي كان حبيبها قبل الزّواج. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تقصد فيها هذا المكان، منذ ذلك الوقت.

لم تنتبه لنفسها إلّا وهي جالسة مع ابنها على الصّخرة نفسها. أخذت نفساً عميقاً وسرحت بنظرها في القرية، ثمَّ شخصت إلى التّلّتيْن المتقابلتيْن في طرفها، فرأتهما والضّباب يعلوهما، كجبليْن مُتخاصميْن ينتظران لحظة المعركة والحسم، وظهر لها المضيق الصّغير بينهما، والّذي كانت سابقاً بالكاد تراه، كأنّه وادٍ مقفرٍ سحيق.

تذكّرت كيف كانت تشبّه لابراهيم، زوجها، القرية بالجرن المستطيل، ففتحت شفتيْها المكتنزتيْن على بسمةٍ بالكاد تُرى، وتساءلت، أين تختفي يا تُرى تلك القبل الحلوة المسروقة؟ وأين يطير الكلام الجميل بيْن العشاق ليستحيلَ ذكرى مؤلمة؟

وبينما كانت غارقةً في مناجاتها، انتبهت إلى يد شارد تمسك يدها برفق، وجفلت للوهلة الأولى، إذ اعتقدت أنّها يد برهوم، فانتفضت ثمَّ ما لبثت أن شدّته إليها بحنوّ، وقالت ببطءٍ كمن استفاق توّاً من حلمٍ ثقيل:

- هل ضيعتنا جميلةٌ يا شارد؟

- جميلة جداً، لم أرها قطُّ من هذا المكان.

أشار إلى بيت جدّه أبي ابراهيم وقال:

- أعتقد أنَّ بيت جدّي هو أكبر بيتٍ في القرية.

- معك حق، هو كبير، مع أنَّ هناك بيوتاً كثيرةً أصبحت الآن أكبر منه، ومن ضمنها بيتنا، ولكنّه الأجمل، وأجمل ما فيه شجرة الكينا تلك، وأعتقد أنّها أقدم وأكبر شجرة كينا في الضّيعة، والآن أنظر جيداً، هل تستطيع رؤية بيت أهلي؟

- أجل، إنّه ذاك البيت الطّينيُّ هناك.

ضحكت وقالت:

- أجل، الحياة قسمةٌ ونصيب، أناس بيوتها من طينٍ وآخرون بيوتهم من حجر، ربّما بيت أهلي هو أصغر وأفقر بيتٍ في القرية، ولكنّه بالنّسبة إليَّ أكبر وأجمل من كلِّ البيوت.

وأردفت:

- أتعرف يا حبيبي، قبل الزّواج، كنتُ آتي غالباً إلى هذا المكان مع والدك، كنا نتظلّل معاً تحت هذه الشّجرة فلا يرانا أحد.

فرفع شارد نظره إلى وجهها وآلمه أن يرى سحنةً من الحزن تعلوه، وبحث عن كلمةٍ يقولها فلم يجد، ولمّا طال الصّمت قال لها:

- أشعر أنّك لم تأتِ إلى هنا للمِّ الفطر.

- معك حق، لقد كبرتَ يا شارد، كنت أريد منذ فترةٍ طويلةٍ المجيء إلى هنا، كان يجب أن آتيَ، كان لا بدَّ لي أن أشمَّ رائحة الأرض تحت هذه الشّجرة، وأن أحسَّ بهذا الهواء البارد يتسلّل عبر المعطف، وأن أرى كم

تغيّرت القرية في هذه السّنوات، وكم تغيّرتُ أنا.

ورفعت حاجبيْها إلى الأعلى متفكّرة، وبعد ثوانٍ أضافت:

– أعتقد أنّه قد مضى أكثر من اثنتيٍّ عشرة سنة منذ ذلك التّاريخ، وعلى الأرجح ثلاث عشرة.

أراد أن يُعبّرَ لها عن مدى حبّه لها، ولكنّها وقفت ممسكةً يده وقالت:

– فلنذهب للبحث عن الفطر، ولكن قبل ذلك تعال نشرب.

اقتربت من صخرةٍ كبيرة، ومالت برأسها صوب أكبر حفرة فيها، كوّرت كفّها جامعةً بعض الماء وارتشفته، وهكذا فعل شارد، وانطلقا ببطء، أعينهما شاخصةً إلى الأرض.

لم يكن الحظُّ حليفهما، فلم يجمعا في السّلة المصنوعة من القصب إلّا نصفها، وبينما هما يمشيان الهوينا في طريق العودة، قال لها:

– حظّي كبيرٌ أنّك أمي.

– شكراً يا ملاكي أنا حظّي كبيرٌ بوجودك في حياتي!

– ولكن هذا وليد الصّدفة، فكان يمكن أن تتزوّجي رجلاً غير أبي ويكون عندك أولادُ غيري وأخوتي.

– صحّ.

– وكان يمكن أن تلتقي بأبي في مكان آخر، عندها سأكون شارداً، إنّما كلُّ حياتي كانت لتكونَ مختلفة.

فقالت ضاحكة:

– وماذا بعد؟

– أتساءل إن كان كلُّ ما نحن عليه وكلُّ ما يجري معنا يحصل بالصّدفة.

– الصّدفة مهمةٌ يا حبيبي، والحظُّ كذلك، إنّما هناك أيضاً العمل

والإرادة، ونستطيع أن نحسّنَ حياتنا إذا استعملناهما بطريقةٍ أفضل.

لم يقنعه كلامها، فصمت قليلاً، مُخفّفاً من سرعة سيره، وفجأةً ترك يدها حين رأى فطروشاً على حافّة الطّريق التّرابيّة، قطفه ووضعه بعنايةٍ في السّلة، وقال باللّهجة الجَادّة نفسها:

– ماذا كنتُ لأستطيعَ تغييره، تغيير أبي؟ أو أخي؟ هل كنتُ لأستطيعَ أن أبدّلَ مدرستي؟ أو قريتي؟ أشعر أنَّ كلَّ ما يجري معي مرسومٌ منذ وُلدتُ.

«ربّما معه حق»، قالت في سرّها، متذكّرةً قناعتها بقول إمام مسجد القرية إنَّ كلَّ شيءٍ مقدّرٌ ومكتوب. ولكنّها شعرت أنّه من السّابق لأوانه أن يفكّرَ شارد بهذه الطّريقة، فسألته بنبرةٍ حازمةٍ كمن تريد إقناعه ودفعه عن الغوص عميقاً بتلك الأفكار مع أنها هي نفسها تعتقدها صحيحة:

– ألا تشعر يا شارد أنَّ مثابرتك على المطالعة وعلى الجلوس في المساء قرب جدّك للاستماع إلى أحاديثه الحلوة والأدبيّة، يجعلك مُميّزاً عن رفاقك؟ هذا أخوك نجم، لا يهتمُّ إلّا باللّعب فتراه مُتأخّراً في دراسته.

– هذا أيضاً حظٌّ يا أمي، فنجم ليست لديه القدرة على الحفظ، ولا يستوعب الرّياضيّات، وأيضاً والدي يدلّعه كثيراً، فماذا تنتظرين منه؟

كانا قد وصلا قرب بيت الجارة، فقالت:

– في هذا معك حق. تستطيع أن تذهبَ إلى البيت، سوف أشرب القهوة عند الحاجّة علية، وأوافيك في البيت بعد قليل.

وما إن ابتعد قليلاً حتّى نادته قائلة:

– لا تنسوا أن تنظّفوا «الفطاريش» وتغسلوها!

-7-

تبعد قرية عين الوادي المسيحيّة كيلومتراتٍ قليلةٍ عن فطر، وتتميّز ببيوتها القرميديّة المتواضعة، والمتكتّلة حول ديرٍ حجريٍّ شيّده الصّليبيّون حين اجتاحوا المنطقة في بداية الألفيّة الأولى، وقد أصبح هذا الدير بعد جلائهم كنيسةً يؤمُّها السّكان كلَّ صباح أحدٍ من كبيرهم إلى صغيرهم. وتتميّز القرية بنظافة طرقاتها، وبالملبس المرتّب اللّائق لأبنائها، ما يدلُّ على رفاهيّة سكانها وتمدّنهم، فتظهر القرية كنبتةٍ غريبةٍ في هذا الحقل الواسع من القرى الشيعيّة.

وحين قام مدرّسٌ متقاعدٌ من القرية، في أيلول 1967، بافتتاح مدرسةٍ خاصّة في قرية فطر، لم يكن شارد يتوقّع أن يكونَ طالع حظّه ينتظر أن يأتيَه، كأبيه، من هذه القرية، وأنَّ القدر يسير به إلى لقاءٍ قريبٍ بمنى، ملهمته الّتي لن تفارقَ وجدانه بعد ذلك أبداً.

كانت منى فتاةً في الثّانية والعشرين من عمرها، ابنة ضابطٍ برتبة مقدّمٍ في الجيش اللّبنانيّ، تعمل مدرّسةً في القرية منذ ثلاث سنوات عانت خلالها كثيراً من المشاحنات اليوميّة مع زملائها المدرّسين، الّذين ينتمي أكثرهم إلى حزب الكتائب اليمينيّ، وهي المنتسبة بعكس التّيار، كما صديقتها الحميمة غزل، إلى الحزب الشّيوعيِّ المحظور في حينه، والمكروه من غالبيّة المسيحيّين الموارنة الّذين كانوا في تلك الأيام حكّام البلد الرّافضين لكلِّ محاولةٍ لتغيير الوضع القائم، لدرجة أنَّ أكثر

الموارنة كانوا يعتبرون كلَّ من يعمل مع الأحزاب الطّامحة للتّغيير، ومن ضمنها الحزب الشّيوعيّ، خائناً للطّائفة.

لم يكن انتساب منى إلى الحزب الشّيوعيِّ مردّه القناعة بالعقيدة، ومن ذلك أنها كانت شديدة الإيمان، مثالها الأعلى في الحياة السّيدة العذراء، لا تترك قدّاساً إلّا وتحضره، وتتحاشى القيام بما لا يرضي الربّ، إنّما وجدت في الفكر الشّيوعيِّ مشروع عدلٍ اجتماعيٍّ كانت تتمنّاه لكلِّ وطنها.

ولمّا عُرِضَ عليها الانتقال للتّعليم في المدرسة الجديدة في فطر، وافقت على الفور بتشجيعٍ ودفع من غزل، ليس فقط لتهربَ من الجوِّ المشحون في مدرستها، أو لأنَّ معاشها سوف يرتفع ثلاثين ليرة لبنانية في الشّهر، إنّما وجدت في هذا الانتقال فرصةً للتّواصل مع بقيّة الطّوائف، ووجدت فيه غزل تسهيلاً للقاءاتها مع عشيقها المدرّس في قرية فطر، أبي نجم!

ولكنّ والدها، أبا جوزف، كان له رأي آخر، فهي ابنته الوحيدة، وشقيقاها التّوأمان، اللذّان يصغرانها بسنتيْن، قد أنهى أحدهما، جوزف، سنته الأولى في المدرسة الحربيّة وسيكون ملازماً بعد سنة، والآخر أنهى سنته الجامعيّة الأولى في الفيزياء، وهي لا تزال تراوح مكانها في التّعليم، ولا تفكّر في الزّواج، والأسوأ أنّها تصادق غزل.

حاول ثنيها عن قرارها ومعاودة مناقشة مستقبلها برمّته، وكان يتوقّع مؤازرة شقيقيْها المتواجديْن حاليّاً في القرية أثناء العطلة الصّيفية وموافقتهما على رأيه، ما سوف يخفّف عنه عبء مناقشاتهما الثّنائيّة العقيمة السّابقة.

وجد الفرصة مناسبةً حين اجتمعت العائلة حول الطّاولة الخشبيّة في

الحديقة لتناول الغداء، وكان الوقت أقرب إلى العشاء؛ فالسّاعة كانت قد تخطّتِ الرّابعة بعد الظّهر، وكان الطّقس جميلاً، والقرية غارقةٌ في هدوءٍ عميق. وما إن أنهى أبو جوزف كأسه الأوّلى من العرق، حتّى سكب لنفسه كأساً أخرى، وتوجّه إلى منى بالكلام قائلاً بحُنُوّ:

- لقد كبرتِ يا منى وأنا فخورٌ بك، ولكنَّ هناك أمريْن أريد أن أكلّمَك فيهما.

- تفضل يا بابا.

تغيّرت نبرة أبي جوزف من دون أن يدري، فأصبح من جديدٍ ذلك الضّابط في الجيش الّذي يصدر الأوامر:

- أولاً، لقد عرفتُ بقرارك الانتقال إلى فطر، أنا أجد يا منى أنّه من الأفضل لك التّوقّف عن التّعليم والالتحاق بشقيقيك في بيروت لتدخلي الجامعة.

ردّت منى بصوتٍ رقيقٍ مع ابتسامة:

- كنتُ أعرف أنّك سوف تثير هذا الموضوع مجدّداً يا أبي، ولكنّك تعرف كم أعشق قريتي والمنطقة، وأنا لا أريد الذّهاب والسّكن عند عمتي في بيروت، يكفيها شقيقاي.

- أنا لا أريد إلّا مصلحتك يا ابنتي، وعليك أن تعرفي أنَّ أهمَّ سببٍ للنّجاح في الحياة هو المعرفة المُبكرة بما نريد، وكلّما أبكر الإنسان فيها أكثر، كلّما ازدادت فرصه في مستقبلٍ واعد.

تناقشا مطوّلاً، ولكنّها بعنادها ووضوح أفكارها، كوضوح التّقاسيم في وجهها، وجرأتها في الكلام الّتي لا تتماشى مع انفعالاتها الخجولة، أوصلت النّقاش إلى حائطه المسدود المعتاد. وبعد برهةٍ قصيرةٍ من

الصّمت المُطبق، شعرت أنّه يتوجّب عليها ترطيب الجوَّ المشحون الّذي خيّم فوقهما كالغمامة السّوداء، فقالت بهدوءٍ ونعومةٍ كفتاةٍ مطيعة:

– أرجو أن تسامحَني يا أبي، دعْ هذه السّنة تمرُّ وسوف أفكّر بالموضوع في السّنة المقبلة. والآن، ما الموضوع الآخر الّذي تريد طرحه يا أبي؟

– طيب، إذاً ما باليدِّ حيلة، فليكن ما تريدين، إنّها حياتكِ في نهاية المطاف. الأمر الثّاني يا منى، وهو الأهمّ، صديقتك غزل...

نظرت منى في عينيِّ والدها مباشرةً واحتدّت من جديدٍ قائلة:

– عفواً يا أبي، ما كنتُ أتوقّع منكَ أن تعيدَ طرح هذا الموضوع ثانية، وأعرف ما تريد قوله، وسوف أكرّر ما قلته لكم مراراً، إنّها صديقتي الأقرب وأحبّها ولن أتخلّى عنها!

– محبّة الأصدقاء شيء ومستقبلك وسمعتك شيءٌ آخر، كلُّ ما أتمنّاه عليك أن تفكّري في الأمر من هذه الزّاوية.

لم يكد ينهي جملته حتى سمعها تقول بلهجةٍ جافّةٍ وصارمة:

– سبق وفكرت، غزل صديقتي، ولن يمنعَني أحدٌ من رؤيتها!

لم تكن غزل أجمل فتيات القرية، وكانت منى تفوقها جمالاً بالمعايير الهندسيّة، ولكنّها كانت بجسمها المائل إلى البدانة، الأنثى القنبلة أينما ظهرت، كان يكفي لأيِّ رجلٍ أن ينظرَ إلى شعرها الكستنائيِّ الأحمر ينساب متسلّلاً على صدرها المدروز بالنّمش، وإلى خدّيها الأبيضيْن المغمّزيْن، حتّى يرتعدَ من خوفٍ ورغبة.

وكان اسمها أيضاً فريداً، والأسماء عند العرب، على خلاف الأسماء الأوروبيّة، كلّها مشتقةٌ من أفعال، باستثناء عددٍ كبيرٍ من الأسماء المسيحيّة، ولكلِّ اسمٍ معنى. فمنى هي جمعٌ لكلمة مُنية أي ما يتمناه

المرء، وسمّى أبو جوزف ابنته منى لأنّه كان يتمنّى حين تزوّج، أن يكون مولوده الأول أنثى صحيحة الجسم، ولكن أن يسمّيَ شخصٌ ما ابنته غزل، أي محادثة النّساء للتقرّب منهنَّ، فأيّة غرابة، وكأنَّ والديْها كانا يحدسان ما سوف تصبح عليه ابنتهما.

ومنذ سنِّ البلوغ، وغزل تعاني من تلك الرّغبة الجنسيّة الجامحة المكبوتة الّتي تبحث لها عن منفذ. لم تكن تعرف، حتّى أشهرٍ خلت، أنّها من النّساء النّادرات الشّبقات جنسيّاً. وكانت تظنُّ أنَّ الرّعشة الّتي تشعر بها كلّما احتكَّ كتفها أو أيُّ جزءٍ من جسمها بأيِّ رجل، هي رعشةٌ طبيعيّةٌ تحصل عند كلِّ النّساء. ما كانت تدرك هذا التّفوّق الّذي سوف يجعلها تتربّع على العرش أمام بنات جنسها، اللّاتي أصبحن يغرنَ منها ويمقتنها بالقدر نفسه الّذي يشدُّ إليها الرّجال. أمّا العدد غير القليل منهم الّذي سوف يعاشرها، فسوف يدرك كم هو محظوظٌ ذلك الرّجل الّذي تسنح له فرصةً أن يعاشرَ امرأةً شبقة، ولو لمرّةٍ واحدةٍ في حياته.

ومع أنَّ غزل أكبر من منى بسنتيْن، إلّا أنّهما صديقتان منذ الطّفولة، وخصوصاً بعد تأخّر غزل في المدرسة حتى أصبحتا لاحقاً في الصّفّ نفسه، وغزل هي الّتي أقنعت منى بالانخراط في صفوف الحزب الشّيوعيّ. كانت منى سعيدةً بلعب دور الرّفيقة الدّائمة للفتاة التي يلاحقها أكثر شباب القرية ورجالها، وإن لم تُرِدْ، أو ربّما لم تجرؤ، على الإقدام على علاقةٍ حقيقيّة، بل اكتفت بتلقّي الإطراءات من حينٍ إلى آخر.

كان والد منى شديد الثّقة بابنته، ولكنَّ علاقتها بصديقتها كانت تقلقه، وقد بذل ما أمكنه من محاولاتٍ ليُبعدَها عنها، لكن آه من غزل! كان قد عرف بانتمائهما إلى الحزب الشّيوعيِّ ولم يغضب كثيراً مفضّلاً عدم

مفاتحتها بالأمر، أمّا ما كان يغيظه فهو هذه الاجتماعات الّتي يعقدونها في البراري من وقتٍ إلى آخر، وما يقالُ عن بقاء غزل بعد انفراط عقد الاجتماع لساعاتٍ مع ذلك المُدرّس من قرية فطر. ومع أنّه كان يعرف أنَّ غزل لاتكنُّ إلّا كلَّ الخير لابنته، وهي حريصةٌ عليها كلُّ الحرص، فقد كان صدره يزداد غلياناً يوماً بعد يوم. صحيحٌ أنّه خائفٌ على سمعة ابنته، ولكن، هل هذا سببٌ كافٍ ليمقتَ غزل إلى هذا الحدّ؟ وهل هو يمقتها فعلاً؟ وهل هذا كافٍ لتفسير كلِّ هذه النّقمة على علاقتها بمدرّسٍ لم يلتقِ به قطّ؟

كان اللّيل قد بدأ يطبق وتشربه القرية ببطءٍ[5]. ترك أبو جوزف كأس العرق من يده، ووضع كوعيْه على الطّاولة شابكاً يديْه تحت ذقنه، وأجاب بلهجةٍ حاسمة، إنّما أقلُّ حدّة:

- ولكنّك تعرفين السّمعة السّيّئة لغزل في القرية، وكيف توقّفت عن الدّراسة قبل أن تدخلَ المرحلة الثّانويّة ما سبّب الحزن والقنوط لوالديْها.

وبينما كانت منى تهمُّ بالردِّ تابع:

- وتعرفين أيضاً كيف ينظر إليها الرّجال ويأكلونها بأعينهم...

رمقته زوجته بنظرةٍ ثاقبةٍ فانتبه لاندفاعه، فالتفت إلى ابنيْه مُحرجاً، وأردف بنبرة من يحاول أن يكونَ رزيناً:

- أنا شخصيّاً، أعتقد أنّها ربّما تكون مظلومة، فهي شابّة مثلك، وربّما لم يحالفها الحظُّ و..

بلع لعابه ولكن هل يستطيع بلع هفوته، وعرف أنَّ المزيد من الكلام سيفضحه أكثر ويجرّه إلى مزيدٍ من الأخطاء، الآن فقط عرف السّبب الّذي يدفعه إلى التّفكير إلى هذا الحدِّ بالعلاقة بين ابنته وغزل، وعرف لماذا كان يستعلم عن النّشاطات الحزبيّة لذاك المدرّس من فطر، لدرجة

أنّه طلب أخيراً صورةً له من مأموريه، بحجّة أنّه يشكّل خطراً على النّظام. وفهم الآن فقط، أنَّ ما يُغيظه في الحقيقة في غزل، هو أنّها تعامله دون سواه كوالدها، وأنَّ حبّها لصديقتها جعلها تستثنيه كليّاً من احتمال أن يكونَ عشيقاً لها.

بينما عاد الصّمت ليخيّمَ فوق الطّاولة، هذه المرّة كشبحٍ مُخيف، عبرت كلُّ هذه الأفكار رأسه في لحظات، وشعر بالدّماء تتصاعد غزيرةً إلى رأسه، فأطرق هارباً من النّظرات الّتي أحسَّ بها منصبّةً عليه تحاكمه، وكان لا بدَّ له أن يتداركَ الأمر، فأنهى كلامه بطريقةٍ درامية:

- دعونا ننهي طعامنا ولنتحدّث في الأمر لاحقاً.

توقّف الجميع عن الكلام، وساد الصّمت. فلا مصلحة لأحدٍ بالذّهاب أبعد من ذلك في هذا الموضوع القابل لتفجير مشاعرَ مخبّأة.

الفصل الثاني

-1-

ما إن أُعلن عن افتتاح المدرسة الخاصّة الجديدة في فطر، حتّى قرّر أبو نجم أن يسجّلَ أولاده فيها، بضغطٍ من والده الّذي قبل بتحمّل القسط الدّراسيِّ الإضافيّ. فهي لم تكن مجانيّة كالمدارس الرّسميّة الثّلاث الّتي أصبحت موجودةً في القرية، والّتي تعجُّ بالتّلاميذ الهاربين من عمل الحقول القاسي، والمُهملين لكلِّ ما يمتُّ للتعلّم بصلة، والكارهين للنّظافة، تاركين القمل يتجوّل في رؤوسهم بلا حسيبٍ أو رقيب.

انفردت هذه المدرسة عن بقيّة المدارس، وحتّى عن بيوت القرية، ببنائها الجميل، وبملعبها الواسع المحاط بسورٍ عالٍ، والأهمُّ بالنّسبة إلى الجدِّ أبي ابراهيم، أنَّ كلَّ مدرّسيها كانوا من قرية عين الوادي، ويتقنون اللّغة الفرنسيّة، الّتي كانت عقدة العقد لسكان القرى الشّيعيّة، بعكس أبناء القرى المسيحيّة، الّذين كانوا يولون هذه اللّغة أهمّيّةً خاصّة، ويتكلّمونها أحياناً كثيرةً في بيوتهم.

دخل شارد مدرسته الجديدة بحذر. هو الّذي تعوّد أن يكونَ الأوّل

في صفّه، يتوجب عليه الآن تخطّي مشكلة اللّغة الفرنسيّة، فقد عرف من والدته أنّه ستكون لها الأولويّة في صفّه الجديد، مع أنّها طمأنته إلى أنَّ لديه الوقت لتحسينها بانتظار تقدّمه بعد سنتيْن لشهادة الخامس الابتدائيِّ الّتي كان السّكان لا يزالون يطلقون عليها اسمها الفرنسيَّ «السرتفيكا»، على الرّغم من أنّه كان قد مضى عشرون عاماً على انتهاء الانتداب.

ولكن، ها هو يجد في نفسه نفوراً من أستاذ اللغة الفرنسيّة، حتى أصبحت هذه الحصّة غمّاً عليه، إلى حدِّ أنَّ علاماته تراجعت في كلِّ المواد، وفكّر أن يطلبَ من والده نقله إلى المدرسة الرّسميّة القريبة من المنزل، ولكنّه بالكاد كان يراه مصادفة. فقد كان شارد ينام قبل رجوع والده إلى المنزل، وحين ينهض من فراشه يكون قد خرج، وحين يصادفه في العطلة الأسبوعيّة لا يجد المجال لهذا الطّلب، وحين يجد المجال كان يعود فينكمش على نفسه خجِلاً أو وجِلاً من الفشل، ولم يرد أن يزجَّ أمّه في هذا الطّلب، لمعرفته أنّ والده يعمل دائماً عكس ما تطلب. تراجع أخيراً مدركاً كم تحتاج أحياناً كلماتٌ قليلةٌ لوقتٍ طويلٍ من التّمهيد القاسي والمرير قبل قولها.

لم يعد عنده خيارٍ إلّا بذل جهدٍ أكبر، قرّر أنَّ عليه أن يتجاوزَ هذا الأمر، ولم يكن يعرف أنَّ هناك مفاجأةً جميلةً تنتظره في هذه المدرسة، إذ ما إن مرَّ شهرٌ على بدء العام الدّراسيّ، حتّى دخل مدير المدرسة الصفَّ ليُعْلمَ التّلاميذ بتعيين مُدرّسةٍ جديدةٍ للإشراف على اللّغة الفرنسيّة، أحسَّ بالسّرور وبشعورٍ غامضٍ لم يفهمه إلّا حين دخلت الآنسة منى الصّفّ.

أمعن النّظر فيها كالمشدوه وهي تتقدّم بخجلٍ أمام التّلاميذ بقوامها الممشوق، ووجهها الجميل. ولمّا اتّخذت مكانها أمامهم في وسط

الصّفّ، بدت له كلوحة فنانٍ مبدع، كأجمل مشهدٍ رآه في حياته. لم يفارق ذلك المشهد ذهنه بعد ذلك أبداً طوال حياته.

بينما كانت تُعرّف عن نفسها وعن قريتها، كان شارد يقرأها كرجلٍ بالغٍ نهم، بكلِّ تفاصيلها، من حذائها الأحمر ذي الكعب العالي، وساقيْها البيضاويْن، وتنّورتها السّوداء الضّيّقة الّتي تُظهر استدارة ردفيْها الناعميْن تحت خصرها النّحيف، وقميصها الأحمر المشدود، المفتوحة أزراره العليا ممّا سمح لطرفيٍّ نهديْها بالبروز، كرأسيٍّ قطّيْن يشرئبّان للخروج من كوّةٍ صغيرة.

كان هذا المنظر غريباً بعض الشيء على شارد. فقد كانت النّساء في قريته المحافظة يتّبعنَ التّقاليد المحافظة، فيُخفينَ مفاتنهنَّ ما استطعنَ إلى ذلك سبيلاً، ويلبسن الكنزة فوق الكنزة، والتّنورّة فوق البنطلون، ويلففن المنديل مراتٍ عديدةً على الشَّعر، فتزول كلُّ إمكانيةٍ لاستكشاف شكل الجسد الحقيقيّ، أو لون الشَّعر، ولا يبقى ظاهراً إلا الجزء الأكبر من الوجه. ولهذا السّبب ربّما، كان التغزل في الشِّعر والنّثر العربي، منذ القدم، يتناول تحديداً الوجه ويركّز على العينيْن، وأصبح جمال المرأة في الذّاكرة العربيّة مرتبطاً بجمال عينيْها.

خضع شارد بحياءٍ لفطرته الغرائزيّة، فرفع رأسه ببطءٍ إلى الأعلى، كلصٍّ يخاف أن ينكشفَ أمره، ليبحثَ عن مكامن الجمال في وجهها، ولكنَّ التقاء نظره بنظرها بغتة، أصابه برجفةٍ خفيفة، فلم يستطع أن يتمتّعَ بهدوءٍ بالتّقاسيم الهادئة لوجهها، وجُلَّ ما استطاع رؤيته هو شعرها البنّيُّ المُتموّج وعينيْها الصّافيتيْن العسليّتيْن.

كان دوام التّدريس في تلك الفترة من السّتينات مقسّماً إلى جزأيْن، الأوّل من الثّامنة صباحاً حتّى الثّانية عشرة ظهراً، ثمَّ تلي فرصةٌ للغداء

تمتدّ لساعتين، ليبدأ بعدها الجزء الثّاني من الساعة الثانية حتى الرّابعة بعد الظّهر.

في ذلك اليوم، بقي شارد في الملعب في فرصة الغداء، آملاً أن يستطيعَ سرقة لحظةٍ أخرى يرى فيها الآنسه منى في غرفة المدير حيث يتناول المدرّسون غداءهم. وبينما كان يتمشّى ويسترق النّظر من وقتٍ إلى آخر إلى المدرّسين يتجمّعون، بدأ يتساءل إن كانت تأكل كبقيّة الناس. واعترته رعشةٌ خفيفةٌ حين فكّر إن كانت تقوم أيضاً بمستلزمات الحياة اليوميّة الأخرى. واستمرّت الأفكار تتوالى في مخيّلته إلى أن أيقظَه صوت المدير آمراً إياه بالذّهاب إلى المنزل، فلا يحقُّ له البقاء في المدرسة أثناء فرصة الغداء. فاتّجه فوراً إلى زاوية الملعب. رفع محفظته عن الأرض. وضعها على ظهره وخرج مطأطأ الرّأس يلملم أذيال الخيبة.

ما إن أطلَّ على المنزل، حتى لمح أمّه على باب الحديقة تؤنّبه على التّأخير. جرّته من يده وأجلسته على إحدى الطّرّاحات[6] المُنتشرة بانتظام على الحصيرة[7]، تتوسّطها قصعةٌ كبيرةٌ مليئةٌ بطبيخ المجدّرة[8]، وبصلةٌ يتيمةٌ توزّعها مع اخوته بالتّساوي؛ وما إن اتّخذ شارد مكانه، حتّى تناول كلُّ واحدٍ منهم رغيفاً من خبز الصّاج ونصيبه من البصلة وأغاروا على القصعة، يقضمون محتواها كلٌّ من جهته. أمّا شارد، الّذي كان لا يزال مأخوذاً بصورة الآنسة منى، فكان بالكاد قد أكل لقمتيْن، حين انتبه للقصعة الممسوحة كأنّها كانت قد جُليتْ توّاً، وأخوته يقفون ويتفرّقون تباعاً.

مع التّقدم في السّنة الدّراسيّة، ازداد تعلّق شارد بمعلّمته، وازدادتْ اهتماماً به. في البدء بسبب تفوّقه الدّراسيِّ واحتراماً لوالده، رفيقها ومسؤولها الحزبي، ثمَّ، تدريجاً بدأت توليه اهتماماً خاصاً لأنّه شارد

ليس إلّا. فقد أحبّت فيه ذلك التّلميذ المنطوي على نفسه، والمحب للوَحدة، وأصبحت تتساءل عن سرِّ هذا الوجه الحالم والكئيب، وكيف يمكن أن يكونَ لطفلٍ في السّابعة من عمره هذا القدر من الوعي. وصارت تخصّه، كلمّا دخلت الصّفّ، ببسمةٍ ونظرةٍ تتغلغلان كنسمةٍ في صدره وتدغدغ قلبه الفتيّ.

بعد مضيِّ أسابيعَ قليلة، كان شارد قد بدأ يتحسّن في اللّغة الفرنسيّة بشكلٍ مذهلٍ، فشغفه بمنى حثّه على المواظبة اليوميّة على فروضه المدرسيّة، وتخّطى شيئاً فشيئاً، بقيّة التلاميذ، وازدادت العلاقة بينه وبين معلّمته حميميّة. كانت تستوقفه أحياناً كثيرةً لتحادثه تارةً عن الدّرس، وطوراً عن عائلته وعلاقته بوالده، وإن كان ينزعج من الإحترام الّذي تتكلّم به عنه. ومراتٍ عديدةً كاد يقولَ لها: «ليتك تتعرّفين على أمّي»، ولكنّه كان يتراجع خجلاً.

استوقفته في إحدى المرّات وكان يهمُّ فيها بالخروج من الصّفّ، قرفصت أمامه وقالت: «أنت زكي»، أجاب على الفور «لأ، أنا شارد!»، لم يفهم في حينه لماذا انفجرت ضحكاً وكشفت عن أسنانٍ متناسقةٍ بيضٍ كزهرة ياسمين، فهو لم يكن يعرف أنَّ الجزء الأكبر من الشّعب اللّبنانيِّ وخصوصاً سكان المدن، لا يلفظ حرف الـ«ذ» ويستبدله بـ«ز»، وكذلك يستبدل حرف الـ«ث» بالـ«س»، وذلك بهدف تجميل اللّهجة اللّبنانيّة، وإظهاراً لتميّزهم عن باقي الشّعوب العربيّة، أقلّه في اللّفظ، حتّى إنَّ الكثير من أولاد المدن، كان يهزأ ممّن يلفظ الـ«ذ» والـ«ث»، ويفتخرون هم أنفسهم بلفظها كما هي في اللّغة الأجنبيّة، ولم يكتشف شارد إلّا متأخّراً، أنّها كانت تريد أن تقولَ له «أنت ذكي»، وكان لهذا الأمر لو فهمه في حينه أن يفرحَه كثيراً.

وفي اليوم الأخير من السّنة الدّراسيّة، جمع مدير المدرسة كلَّ التّلاميذ في الملعب، في صفوفٍ متوازيّةٍ كالعسكر لتوزيع النّتائج على مسمعٍ من الجميع، ولمّا حمل ورقة العلامات الخاصّة بشارد، توقّف قليلاً ثمَّ قال إنَّ هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها تلميذاً يتطوّر على هذا النحو بين بداية السّنة ونهايتها. كان الجميع ينظرون إلى شارد ويصفّقون، أمّا هو، فلم يرَ بين هذه الجموع إلّا منى، واقفةً في الظّلِّ كأنّها لا تريد لأحدٍ آخر غيره أن يراها، وحين التقت نظراتهما، غمزته بعينها اليسرى وانجنَّ الولد[9].

بدأت العطلة الصّيفيّة الّتي طالما ينتظرها التّلاميذ بفارغ الصّبر، إلّا شارد، فقد أدخلتْه العطلة في حالةٍ من الضّياع، وبدأ منذ يومها الأوّل يحسب الأيام المتبقّيّة للعودة إلى المدرسة. ولم يعُدْ يخرج للّعب في الحقول والبراري، إلّا نادراً، بل كان يقضي معظم وقته في البيت يطالع القصص العربيّة والفرنسيّة. انتبهت أمّه لاضطرابه، حاولت استكشاف السّبب، لكنّه لم يقبل بالإفصاح عن أسبابه، فأحاطته بالمزيد من حنانها، كهرّةٍ تحتضن رضيعها. ولاحظ جدّه كذلك شروده الزّائد في الجلسات المسائيّة، الّتي كان شارد لا يزال مُواظباً عليها. ولمّا استبقاه مرةً بعد أن خرجَ الزّوار وسأله إن كان قد بدأ يملُّ من هذه الوجدانيّات الأدبيّة، أجاب شارد على الفور بعفويّة: «أبداً يا جدّي، إنّما أصبحت أحبُّ اللّغة الفرنسيّة أكثر!».

-2-

لمّا قرّر فرع الحزب الشّيوعيِّ في المنطقة تنظيم رحلةٍ ترفيهيّة وتثقيفيّةٍ لفترة أسبوعٍ في أعالي جبل صنين، وبدأوا بتسجيل أسماء الرّاغبين، كانت غزل أوّل الموقّعين بحماسةٍ وتصميمٍ شديديْن، وتبعتها منى كالعادة، وانضمّت الفتاتان إلى اللّجنة المُنظِّمة للرّحلة، الّتي قرّرت عقد اجتماعٍ لها مساء الأحد في قرية فطر لبحث التّفاصيل.

بالنّسبة إلى شارد، كان كأيِّ أحد. تسلّق كعادته كلَّ مساء، شجرة الكرز في وسط الحديقة، وجلس على فِندٍ متينٍ يبحث عن الحبّات النّاضجة الأكثر احمراراً فيأكلها مباشرة. وبينما كان يشرئبُّ بجسمه الضّئيل لتناول حبّةٍ عالية، لحظ سيارةً تخفّف من سيرها ثمَّ تتوقّف أمام المنزل. رمش بعينيْه مرّاتٍ عديدةً حين رأى الآنسة منى تنزل من السّيارة، وكاد قلبه من شدّة الخفقان يطير من مكانه ليسقطَ على الأرض كحبّة الكرز التي سقطت من يده، هل هي آتيةٌ لزيارته؟

دخلت منى باحة المنزل برفقة غزل وثلاثة شبّان، أمّا شارد، فقد نزل بسرعةٍ متهوّرةٍ وركض باتّجاه الزّائرين. لم ينتبه الضّيوف لذلك الطّفل الملطّخ وجهه بحمرة الكرز يتعفّر في التّراب. ولمّا وقف ونفض الغبار عن ثيابه، رأى والده وقد خرج إلى الباحة مستقبلاً الضّيوف بحفاوةٍ تنمُّ عن معرفةٍ حميمة، ودعاهم للدّخول إلى غرفة الاستقبال. وتوافد بسرعةٍ رفاقٌ آخرون، قبل أن يتسنّى لشارد إيجاد طريقةٍ يجعل فيها منى تلاحظ وجوده. وأغلقوا وراءهم الباب.

على الفور، بدأت أمُّ نجم تجهّز الشّاي «على طابقيْن»، كما جرت العادة في حينه في مناطق الجنوب. أشعلت النّار تحت الإبريق الكبير، ثمَّ وضعت فوقه الإبريق الأصغر وفيه ورق الشّاي وكميةٌ قليلةٌ من الماء لتبلّله، ولمّا بدأ الماء بالغليان، انتظرت إشارة زوجها قبل أن تملأه بالماء التي كانت تغلي في الإبريق السفلي. ثمَّ خفّفت النّار حتّى الحدِّ الأقصى، وبعد مضيِّ نصف ساعةٍ، كان الشّاي قد تخمّر تحت تأثير النّار الهادئة تحته، فوضعت الإبريقيْن على الصّينيّة، وسط أكواب الشّاي والسُّكر، ودخلت بها على الحاضرين.

سلّمت عليهم بالكفِّ واحداً تلو الآخر، ولمّا وصلت إلى منى، شعرت على الفور بالقرب منها، فقبّلتها على وجنتيْها مع بسمةٍ لطيفة، وانتقلت إلى غزل المتألّقة بابتسامةٍ عريضةٍ تكاد تظهر كلَّ أسنانها، وبشعرها الكستنائيِّ الأملس، تبعده من حين إلى آخر عن عينيْها بهزّةٍ خفيفة من رأسها، فشعرتْ بالنّفور منها، فقد كانت سمحت بعض الشائعات عن زوجها وإحدى الرفيقات، لكن لم تعرف من هي، لكنها لاحظت أن أبا نجم، يكاد يأكل الفتاة بعينيْه. وبينما كانت تسكب الشّاي لكلِّ واحدٍ أو واحدةٍ بحسب الطّلب، فهذا يطلبه خفيفاً بزيادة الماء، وذاك يطلبه ثقيلاً بزيادة الشّاي، تظاهرت أنّها لم تسمع ما تريده غزل، الّتي لا تشرب الشّاي إلّا ثقيلاً غامق اللون، وناولتها كوباً بالكاد تلوّن بقليلٍ من الشّاي.

في هذه الأثناء، لم يُضِعْ شارد الوقت. دخل بسرعةٍ إلى البيت، نظّف وجهه قدر المستطاع، ونفض التّراب عن ثيابه، ثمَّ جلس على مصطبةٍ إلى جانب الشّرفة المطلّة على الرّدهة، كصيادٍ يتربّص بطائرٍ رآه يحطُّ في الحقل المجاور. وبدأ يبحث عن السّبيل الّذي قد يجعل منى تخرج

فتراه، أو يدخل فيراها. وحين أعجزه التفكير، قبع في مكانه يتجاذبه إحساسٌ متناقضٌ من غبطة الفرحة وحزن الانتظار.

- شارد! ماذا تفعل هنا؟

كان التّنفس في الرّدهة قد بدأ يصعب من كثرة التّدخين، وخصوصاً بسبب أبي نجم وغزل، اللّذيْن كانا يمجُّان اللّفافة تلو الأخرى من دون توقّف. فاستأذنت منى في الخروج قليلاً بحجّة رغبتها في تنشّق الهواء النّقيّ، إنّما كانت في لا وعيها تبحث هي الأخرى عن شارد.

هبَّ شارد واقفاً عند سماع صوتها، كجنديٍّ ضبطه قائده نائماً أثناء الحراسة، وقال بصوتٍ خجول:

- أنتِ تعرفين أنَّ هذا بيتنا.

- بالطّبع أعرف، وفكرة عقد الاجتماع هنا هي فكرتي، ليتسنّى لي رؤية بيتكم، ورؤيتك أيضاً.

كلَمْحِ البرقِ، غمرته فرحة اللّقاء وتبخّر حزن الانتظار، ولم ينبس ببنت شفة، فاقتربت منه وقبّلته على خدّه، ثمَّ جلست بقربه، وأخذت نفساً عميقاً، وقالت:

- هيّا يا شارد، بماذا تريد أن تحدّثني؟ في الصّفِّ لا يتاح لنا الوقت لنتكلّمَ كما نشتهي.

بدأ يبحث عن كلامٍ يُقال في هذه المناسبة، فلم يجد. أنقذته قائلةً ممازحة:

- قال لي أستاذ اللّغة العربيّة، إنّك أفضل تلميذٍ عرفه، وأنا الّتي كنت أظنُّ أنّك تهتم فقط بحصّتي الدّراسيّة، ولكن ها أنت متفوّقٌ بكلِّ الحصص.

بلع ريقه وقال:

- أنا قويٌّ في اللّغة العربيّة لأنّني أستمع كلَّ مساء إلى جدّي حين يجتمع عنده الزّوار، كما أنني أقرأ قصصاً كثيرة.

- أحقاً؟ ماذا قرأت أخيراً؟

- أنا الآن أقرأ قصّة «بائعة الخبز»، هل تعرفينها؟

- طبعاً، إنّها من أجمل ما كتب الرّوائيُّ الفرنسيُّ كزافييه دو مونتيبان، لقد قرأتها باللّغة الفرنسيّة، إنّها رائعة! ولكنّها حزينة، وهي لقرّاء عمرهم أكبر من عمرك بكثير.

تحادثا لدقائقَ طويلةٍ بمتعةٍ قلّما شعرت بها، انطلق فيها شارد بعد خجلٍ لازمه في البداية، ونسيت منى خلالها أنّها تتكلّم مع طفل، فحاورته كرجلٍ ناضج، إلى أن خرجت أمُّ نجم إلى الشّرفة متوجّهةً صوبهما مباشرةً وقطعت عليهما خلوتهما. جلست قرب ابنها، فأصبح محاطاً بالمرأتيْن الأعزِّ على قلبه، وكأنَّ كلَّ حنان الأرض قد هبط عليه فجأةً ويغمره الآن بمشاعرَ لم يعرف مثلها. جرى بين المرأتيْن حديثٌ شيّقٌ ومتنوّع، بدءاً من الموضة وجديدها، وصولاً إلى هموم الحياة ومشاكلها، وأمُّ نجم تمسك طوال هذا الوقت يد ابنها الأحبِّ إلى قلبها.

تغلغل إعجابٌ متبادلٌ بسرعةٍ في صدر المرأتيْن، أفصحت عنه أمُّ نجم بصراحتها وعفويتها المعتادتيْن:

- أنا سعيدة بالتّعرف إليكِ. لطالما حدّثني شارد عنك.

لكشها شارد بكتفه بحياء، ولكنّها أردفت مُمسكةً رأسه بكفيْها:

- لا بأس يا حبيبي، فمن الطّبيعيِّ أن تُعجبَ بمعلّمةٍ رائعةٍ كمنى.

رمقتْ منى شارد بعتبٍ ومحبةٍ وقالت:

- وأنا سعيدةٌ بالتّعرف إليكِ يا أمَّ نجم، أحياناً نشعر بالانجذاب إلى

شخصٍ ما من اللّحظة الأولى، فحالما وقعتْ عيناي عليكِ تدخلين وصينيّة الشّاي بين يديك أحببتك.

- وأنا أيضاً أحببتك حالما رأيتك، وهذا فأل خيرٍ لكلتيْنا. معك حق الإنسان يحبُّ الآخر أو ينفر منه من النّظرة الأولى، وغالباً ما تتأكّد لاحقاً صحّة هذا الإحساس.

ما إن أنهت جملتها، حتّى تمثّلت في ذهنها نظرة زوجها الجائعة إلى غزل، وهي تبعد شعرها الكستنائيَّ المموّج عن وجهها. إنها الشّعرات ذاتها الّتي رأتها مراتٍ كثيرة على ثيابه، وترابطت الحلقة في رأسها بسرعة، من ذهابه المتكرّر إلى قرية عين الوادي، ورجوعه مُتعباً، «إنّها هي من دون شكّ»، قالت في سرّها، وما لبثت أن توّجهتْ إلى منى سائلة:

- هل الفتاة الّتي معك من قريتكِ نفسها؟

- تقصدين غزل، أجل، نحن صديقتان منذ الطّفولة.

عرفت كلُّ واحدة منهنَّ بما تفكّر به الأخرى، ولم تشاءا أن تعكّرا صفو لقائهما، فتداركت منى الأمر ناظرةً إلى شارد وقالتْ:

- عندكِ ولدٌ رائع!

- شارد ابني ورفيقي، أحسد نفسي أحياناً على نعمة وجوده في حياتي.

وأعقبت مازحة:

- لو كان أكبر كنتُ زوّجتك إياه.

ضحكت المرأتان بصدقٍ لرؤية شارد يتململ في مكانه مُحرجاً، فمن شدّة سعادته بانسجامهما تمنّى أن تنسيا وجوده، وأن تتوطّد صداقتهما، ولو استطاع ألّا يتنفّس لفعل، كان غارقاً في أفكاره حين بدأ الضّيوف

يخرجون تباعاً، وتوقّفوا على الشّرفة يؤكّدون ما توصّلوا إليه. وفي هذا الوقت اتّفقت أمُّ نجم ومنى على موعدٍ للقاءٍ قريب، زاد من فرحة شارد وغبطته.

بعد دقائقَ من خروج الجميع، خرجت غزل وبرفقتها أبو نجم، وكان وجهها الشّديد البياض قد توهّج وأصبح كطابةٍ من جمر، وشعرها الأحمر قد تبعثر في كلِّ اتّجاه حتّى غطّت خصلات منه أعلى صدرها المُنمّش، أمّا هو فكان يظهر الارتباك على وجهه وعلى مشيته المرتجفة، كمن سرق لتوّه شيئاً وأحسَّ بانكشاف أمره. لم يصعب على أمِّ نجم تخمين ما حصل، وبكل هدوءٍ وتحدٍّ، اقتربتْ من غزل وأمسكتْ بيدها خصلةً من الشّعر المبلّلة بالعرق والملتصقة على خدّها فأرجعتها إلى الخلف ببسمةٍ مجروحة.

بينما كان المُجتمعون يتفرّقون، التقت، في جزءٍ أقصر بكثير من الثّانية الواحدة، نظرات أمِّ نجم وأبي نجم وغزل كثالوثٍ يهتطي موجة هائجة. وصل الإدراك الحسيُّ لكلِّ واحدٍ منهم إلى أقصاه، واستطاع كلٌّ منهم أن يرى الشّخصيْن الآخريْن في الوقت نفسه. شدّتْ أمُّ نجم شارد إليها لتخفيَ توتّرها، وصعدت الفتاتان إلى السّيارة. وقبيل الانطلاق، لوّحت منى بيدها لأمِّ نجم، فظنّ شارد أنّها تقصده فلوّح بيده لملهمته الّتي تكبره بخمس عشرة سنة، بينما كان أبوه يلوّح بيده وعينه على رفيقتها الّتي تصغره بعدد السّنوات نفسه تقريباً.

-3-

انتهتِ العطلة الصيفية، وفتحتِ المدرسة أبوابها، وعادتِ السّعادة تغمر قلب شارد من جديد. فها هو يرى منى بعد طول فراق. فمنذ الاجتماع الّذي عقد في بيْتهم لم تسنح له الفرصة لرؤيتها ثانيةً. وكم لام أمّه الّتي قصدتْ عين الوادي مرتيْن لزيارة منى ولم تصحبه معها؛ ما كان يعلم أنّ الدّافع الأهمَّ لزيارتيْها، كان مردّه، قبل كلِّ شيء، الفضول لرؤية غزل ثانيةً. وكان يمكن لاصطحاب شارد أن يعيقَ هدفها. لم يكن دافعها فقط الشّعور بالغيرة، إنّما أرادت قبل كلِّ شيءٍ أن تعرفَ بماذا تتميّز هذه الفتاة عنها، ولكنَّ التّوفيق لم يحالفها.

كان شارد، وهو لمّا يزلْ في السّابعة من عمره، طفلاً مختلفاً عن الذين في سنّه، فهو بمستوى وعيه، وبثقافته التي تتجاوز مستوى التعليم في صفّه، وبتميّزه الدراسي عن بقيّة أترابه، أصبح رجلاً أو مشروع رجل. فكان إذا رنَّ الجرس وانطلق التّلاميذ ركضاً للّعب، يأخذ زاويّةً في الملعب ويُخرج من محفظته روايةً ويبدأ بقراءتها، أو يجلس وحيداً باحثاً بعينيْه التّائهتيْن عن منى، الّتي أصبحت، إضافة إلى أمّه، أهمَّ سببيْن لتعلّقه بالحياة. أمّا شغفه بالسّير في الحقول وحيداً وبمجالسة جدّه فقد خفّا قليلاً، من دون أن يتوقّفا.

وأصبح لا يمرُّ يومٌ تقريباً، من دون أن تُجريَ منى معه حواراً، تارةً تستبقيه في الصّفِّ أثناء الفرصة، وطوراً تقطع عليه القراءة في الملعب. وبدأ تدريجاً يتخلّى عن خجله في البوح لها بمكنون صدره، حتّى إنّها

عندما سألته مرّةً عمّا تعنيه له، نظر إليها حالماً وأجاب ببساطة: «تقريباً، أنتِ أهمَّ شيءٍ في حياتي، وأنا محظوظ بلقياكِ، فلكلِّ إنسانٍ صدفته الجميلة في الحياة». تفاجأت أنّها لم تُفاجأ بجوابه، وأنَّ هذا ما كانت ترغب بسماعه.

وبدأت هي تعي، أنَّ تعلّقها بأمٍّ نجم، ولقاءاتها الدّوريّة معها لأكثر من مرتيْن في الأسبوع، كان يحمل في طيّاته شعوراً قد بدأ يربكها، وتحاول أن تخفيَه حتّى عن نفسها؛ كانت تتقصّد الحديث عن شارد قدر ما استطاعت، وبدأت تطرح على نفسها السّؤال عما يعنيه لها هذا التّلميذ ابن السّابعة.

وخلال سنة ونيِّف، قبل الفراق في خريف 1969، تطوّرت العلاقة بينهما، ولم تعد علاقة معلّمة بتلميذ، بل تحوّلت إلى صداقةٍ ضروريّة لكليْهما ولم تعد تعير انتباهاً أو تبدي حذراً من كثرة خلواتهما، مُقنعةً نفسها، أنَّ كلَّ ما في الأمر هو تشجيعٌ لتلميذها المتفوّق.

في تلك الفترة، أصبحت أمّه تعتمد عليه في كثيرٍ من الأمور، واطمأنّت أكثر لتواطوئه معها، وصارت تترك له مَهمّة الاهتمام بأخيه وأخته الأصغريْن كلّما ذهبت لزيارة الحاجّة عليّة، من دون حرجٍ أو إرباك، ولا تتردّد أحياناً أن تطلبَ منه أن يسخّنَ لها الماء لتستحمّ فور عودتها.

أمّا العلاقة بين أبي نجم وغزل فقد تطوّرت إلى حدِّ الإدمان من طرفه، والرّغبة بازديادٍ من طرفها. فشبقها الجنسيُّ لم يكن له حدود وما كان ليقدرَ رجل أن يشبعَها. وهذا ما كان يعرفه تماماً. ولهذا لم يجرؤ يوماً أن يفاتحَها بما كان يتداوله بقيّة الرّفاق في الحزب عن علاقتها بالمسؤول الحزبيِّ للمنطقة، وعلاقتها، كذلك، بجنديٍّ من النّخبة في

الجيش اللّبنانيّ، ما يُسمّوْن المغاوير، وهو ابن قريتها، وكانت شهرته قد ذاعت بحصوله على المركز الأوّل كأفضل مغوارٍ في مسابقةٍ أُجريت على صعيد الوطن كله.

لم تكن غزل تجد في هذا الجنديِّ ما تجده عند عاشقيْها الآخريْن الأكبر سناً والأكثر خبرةً ومراساً، ولكنَّ جسده الضّخم المفتول العضلات كان يثيرها لدرجة أنّها كانت تشعر أحياناً بالرّعشة لمجرّد النّظر إليه عارياً.

ولمّا اكتشفت أنّها حامل، لم تتردّد في اختيار المغوار ليكونَ الوالد المستقبليَّ للطّفل، وكانت في الحقيقة مجبرةً على هذا القرار؛ فأبو نجم والعاشق الآخر متزوّجان، وهما من طائفة غير طائفتها، والتّزاوج بين الطّوائف في لبنان من المحرّمات، ولا يمرُّ مرور الكرام، وإذا صدف وحصل، تسبقه مصائبُ وتلحقه ويلات. هكذا وجدت أنّه من الأنسب لها الزّواج من جنديٍ في الجيش، يُطلب للخدمة بعيداً عن البيت لأيامٍ أو أسابيع، فتزوّجت وأنجبت ابنها في أيلول 1968، من دون أن تضطرَّ للتّخلي عن أيٍّ من عشّاقها.

في أواخر تلك السّنة، اشتدّت المناوشات العسكريّة بين الجيش الإسرائيليِّ والمنظّمات الفلسطينيّة. وكانت ضيعة فطر والقرى المجاورة مسرحها الأكبر. وكان الجيش الإسرائيليُّ يقوم بممارساتٍ انتقاميّةٍ على الأهالي الّذين كانوا يتعاطفون بدرجةٍ كبيرةٍ مع الفلسطينيّين. فكان يدخل ليلاً إلى القرى، فيرعب الأهالي ويعتقل بعضهم ويجرّه إلى الدّاخل الإسرائيليّ، مع ما يتبع ذلك من تحقيقٍ وتعذيبٍ يصل إلى درجة التّصفية الجسديّة أحياناً.

لم تسلَم منازل القرويّين. فقد كان الإسرائيليّون يقومون بتفجير بعضها

انتقاماً، خصوصاً تلك الّتي يشكّون بعلاقة أصحابها مع الفلسطينيّين، حتّى أصبحت حياة السّكان غير آمنة، وأقفلت المدارس أبوابها في بداية سنة 1969، في منتصف السّنة الدّراسيّة، واضطرَّ من يستطيع من السّكان إلى الهجرة إلى القرى والبلدات الآمنة وصولاً إلى العاصمة بيروت. وقرّر أبو نجم أن يأخذَ عائلته إلى ضيعةٍ بعيدةٍ آمنة، بالقرب من مدينة صور، له فيها بعض الأقارب. سجّل أولاده في مدرسة القرية الجديدة، واستأجر بيتاً، وبدأ الاستعدادات للرّحيل.

كانت الصّدمة أكبر من أن يستطيعَ شارد احتمالها. لم تكن الحرب الدّائرة تهمّه. ولم تعُدِ المشاكل اليوميّة بين والديْه تعني له كثيراً. كان كلُّ تفكيره منصبّاً على حرمانه من رؤية منى. ومع الأيام، بدأ أمله باستتباب الأمن والعدول عن الهجرة يتضاءل. وها هو الآن قلقٌ من ألّا يراها أبداً، فقد تمَّ تحديد يوم الرّحيل.

في ذلك اليوم المشؤوم لشارد، صعد أبو نجم إلى سيارة الشّحن المحمّلة بأثاث المنزل واوعز إلى السّائق بالتّحرك، تاركاً أمَّ نجم تنتظر مع أولادها الخمسة قدوم السّيارة الّتي سوف تنقلهم إلى القرية الجديدة، حاملةً على ذراعها طفلتها الأخيرة ابنة الأربع سنوات، الشّديدة الشّبه بها، إنّما مع سمرة تشبه سُمرة أولاد أبي أمين.

في هذه الأثناء، توقّفت سيارةٌ أمام المنزل وترجّلت منى منها. لم يستطع شارد المقاومة، فركض باتّجاهها واحتضنها بقوة. وعلى الرّغم من الألم الّذي شعرت به من ارتطام رأسه بأعلى بطنها النّحيف، فقد شدّته هي الأخرى بقوةٍ إليها، ثمَّ ربّتت على ظهره وأمسكت يده وانطلقت نحو أمِّ نجم.

في دقائقَ قليلة تناولت المرأتان الماضي والمستقبل بكثافةٍ شديدة.

وكانت الكلمات متراصّة ومعبِّرة، فاختزلتا الكثير من المواضيع والمواقف في جملٍ معدودة، بينما كانتا، في السّابق تقضيان ساعاتٍ من النّقاش حول فكرةٍ واحدة، وبالكاد تصلان إلى نتيجة.

كانت منى أيضاً على عجلةٍ من أمرها. وحين همّت بالذهاب، وقفت وتبادلت القبلات مع أمِّ نجم، ثمَّ اقتربت من شارد بخطىً بطيئةٍ فاتحةً ذراعيْها. تمنّى لو يرتمي على قدميْها ويترجّاها ألا تتركَه، ولكنَّ الفراق كان قد حُسِمَ ولا فرار منه. فتقدّم صوبها متمالكاً نفسه وفيه رغبةٌ كبيرةٌ بالبكاء ولكنّه لم يبكِ، فالبكاء للنّساء، أمّا بكاء الرّجل ففيه مهانة. ولاحظت منى ارتعاش شفتيْه ومنخريْه وقرب انفجاره، فأسرعت الخطى باتّجاهه ووضعت يدها على رأسه وداعبت شعره بحركةٍ سريعةٍ وقالت:

- فراق الأحبّة صعبٌ دوماً، ولكنّي أعدك أنّنا سوف نلتقي من جديد، ولن يطولَ الأمر، وسوف أشتاق إليك، وأنت، أيّها الشّابُّ الصّغير، هل ستشتاق لمعلّمتك كثيراً؟

لم يزده سؤالها إلّا رغبةً في البكاء.

الفصل الثالث

-1-

بدأت عائلة أبي نجم تعتاد تدريجاً القرية الجديدة الّتي كانت أجمل من فطر بطبيعتها وبيوتها، وكذلك بمحبّة أهلها وتعاطفهم مع النّازحين الجدد. بعد أيام، استأجر أبو نجم، بيتاً صغيراً في ساحة القرية نفسها، انتقل إليه الجدُّ والجدّة، وبدأ الأولاد ينسوْن الخوف من التّوغّل شبه اليوميِّ للجيش الاسرائيلي الّذي كان يعتريهم كلّما حلّ المساء، مع ما يلي ذلك من إلقاءٍ للقنابل المضيئة بصوتها المرعب ونورها الذي كان يجعل ليلهم نهاراً.

كان المسكن الجديد الّذي استأجره أبو نجم أصغر من بيتهم في فطر، فقد كان عبارةً عن غرفة جلوسٍ تفتح مباشرةً على المطبخ، ويظهر منها ممرٌّ صغيرٌ من دون باب، يؤدّي إلى غرفتيِّ النّوم والحمّام اليتيم. ولكن، على الرّغم من صغره، فقد أحبّه الأولاد، لما فيه من حنانٍ يجمع شملهم، ويشدُّ أواصر العائلة الّتي كانت تمزّقها الخلافات والمشاجرات اليوميّة بين الوالديْن. فالمكان لايفسح في المجال لانفرادهما واغتنام الفرص

للبدء بخلافٍ لا سبب مباشراً له.

كبقيّة اخوته، اطمأنَّ شارد إلى حياته الجديدة. وكان تفوّقه الدّراسيّ، وبالتّالي محبة المدرّسين له، يساعدانه على التّعويض قليلاً عن فراق منى، الّتي ظلّت تشكّل له الحافز الأكبر لحبِّ الحياة.

مضت عدة أسابيع في المدرسة من دون أن يتمكنَ شارد من إيجاد أصدقاءَ حقيقيّين. فتشجيع المعلمين سبّب له حسد الكثيرين من أترابه، فضلاً عن خجله وتوحّده اللّذيْن كانا يعيقان تواصله مع الآخرين. ولمّا قرّر الأستاذ نقله من مؤخّر الصّفّ، حيث يجلس عادةً المشاغبون والكسالى، إلى المقدّمة ووجد نفسه على الطّاولة نفسها مع كريم، لم يكن يعلم أنَّ هذه النقلة في الغرفة نفسها سوف تكون البداية لصداقةٍ متينةٍ راسخة، كان يحتاج إليها وكان توّاقاً لإيجادها.

ولمّا انتهت الحصّة الدّراسيّة وخرج التّلاميذ، بقي شارد كعادته يرتّب أغراضه، وانتبه أنَّ كريماً بقي جالساً أيضاً مكانه. مرّت فترةٌ من الصّمت قطعها كريم قائلاً:

- أنا اسمي كريم!

- وأنا شارد!

تبسّم كريم قائلاً:

- أعرف.

كان كريم أكبر من شارد بسنةٍ تقريباً، وكان يتميّز عنه بتلك الجرأة والشّخصيّة القويّة الواضحة، الّتي وُلدت معه وسبكتها الحياة بقالبها المتين. نهض كريم قائلاً:

- فلنذهب ونتمشّى في الملعب!

وبينما كانا يمشيان ببطءٍ ويتبادلان أطراف الحديث، راح شارد يتأمّل الأولاد يركضون ويضحكون وكأنّه يراهم للمرّة الأولى. ولم يعد فرحهم يثير في نفسه الحسرة على وضعه المعزول، ولا ضحكاتهم العالية تصمُّ أذنيه، وأصبح صراخهم أمراً عادياً.

كان كريم بحاجةٍ أيضاً لصديقٍ يستطيع أن يسرَّ إليه بأسراره، خصوصاً وأنَّ شارداً غريبٌ عن البلدة، ويستطيع بسهولةٍ تبيُّن الصّدق والإخلاص في عينيه. ولذا، لم يجد صعوبةً في إخباره، من محادثتهما الأولى عن تعلّقه بإحدى فتيات الصّفّ، بل قال له بالحرف إنّه يحبّها، وحين دخل كريم بالتّفاصيل في اليوم التّالي، وكيف أنّه يفكّر فيها عند لجوئه إلى الفراش بالّليل، وكيف يكون مستعجلاً في الصّباح للوصول إلى المدرسة ليراها، شعر شارد أثناء هذه الاستفاضة الحالمة لصديقه أنّه هو أيضاً يكنُّ المشاعر نفسها لمنى.

وكان شارد على موعدٍ في قريته الجديدة مع لقاءٍ ثانٍ لا يقلُّ أهمية، لقاءٌ سرّع في تغيير مسار تفكيره وفهمه للحياة. فقد التقى في منزلهم بغيفارا، الشّابّ الجامعيّ، الّذي كان يثابر على زيارتهم مع والده كلَّ صباح أحد، بحكم القرابة العائليّة، ولكون غيفارا ووالده منخرطيْن في الحزب الشّيوعيِّ كأبي نجم.

كان والد غيفارا فقيراً كادحاً يعمل في البناء، ولذلك اضطرَّ غيفارا حين بدأ في بيروت دروسه الجامعيّة في العلوم السّياسيّة أن يعملَ في الوقت نفسه، من دون أن يمنعَه ذلك من تمضية عطلة نهاية الأسبوع في القرية. ولمّا ذاع خبر مقتل أرنستو تشي غيفارا في منتصف تشرين الأوّل 1967، اختار لنفسه اسم غيفارا، ولم يعرف شارد إلّا متأخراً أنَّ اسمه الحقيقيَّ هو علي.

وحين رجع شارد من المدرسة ذات مساء، نظر صوب بيت غيفارا القريب من الطّريق العام للضّيعة، فرآه ممدّداً على الأرض، رأسه على الحائط، وممسكاً بكتابٍ أخضر اللّون يقرأه بشغف، وسُرَّ غيفارا حين رأى شارداً يقترب منه فدعاه للجلوس قربه، ثمَّ ناوله الكتاب، شاعراً بالحشريّة التي ينظر بها شارد إليه.

عندما قرأ شارد عنوان الكتاب، «أصول الفلسفة الماركسيّة»، أخبره غيفارا أنَّ الكاتب هو منظّرٌ شيوعيٌّ فرنسيٌّ كبيرٌ اسمه موريس توريز، وأنَّ العنوان لم يُترجَم بشكلٍ دقيق، وأنّه كان ليفضلَ عنوان «أسس الفلسفة الماركسيّة». لم يعنِ الأمر شيئاً لشارد، فصحيح أنّه اعتاد قراءة الرّوايات الّتي تفوق عمره، لكنَّ هذا الموضوع كان غريباً عليه، مع أنّه تناهى إلى سمعه، من حين إلى آخر، اسم ماركس.

وحين أدرك غيفارا تلبّك شارد، فتح الكتاب على الصّفحة الّتي كان يقرأها، وبدأ يفسّر وشارد يستمع بانتباهٍ شديدٍ إلى حد أن عينيْه الجاحظتيْن لا ترمشان. فلم يستطع غيفارا عند رؤيته من أن يمنعَ نفسه من القهقهة بصوتٍ عالٍ، ثمَّ أحسَّ بالذّنب حين رأى وجه شارد يمتقع احمراراً، فربّت على كتفه وناوله الكتاب قائلاً: «إنّي أهديك إيّاه، سوف تقرأه وتخبرني إن كان سيعجبك أم لا».

في البدء وجد شارد صعوبةً في فهم ما يقرأ، وأخذت الصّفحات الأولى وقتاً طويلاً منه لأنه كان يقرأ ويعيد القراءة، ولكنّه أصبح تدريجاً يستوعب أسرع فأسرع. وصار أكثر تعلّقاً بالكتاب، حتّى إنّه في اليوميْن التّالييْن لم يُعِرْ أيَّ انتباهٍ لدروسه، ولم يخرج مع كريم، بل استمرَّ منكبّاً على الكتاب لأكثر من أسبوعٍ حتّى قرأه وفهمه كاملاً.

وقبل أن يذهبَ للقاء غيفارا، رجع إلى العناوين الرّئيسة الّتي سوف

يتباحث بها معه، وأكثر ما استوقفه كان أسبقيّة المادّة على الوعيّ، فهل يعني ذلك أن لا وجود للإله خالق الكون؟ وهل الفكرة الّتي تشرّبها منذ صغره عن ربِّ السّماوات والأرض خاطئة؟ ولم يَخَفْ من النّهاية الحتميّة للحياة الّتي لا شيء بعدها، بل على العكس، شعر بسعادةٍ كبيرةٍ لم يجد لها تفسيراً قطّ.

عند رجوعه من مدرسته في اليوم التّالي، عرّج على غيفارا في بيته، ودخلا، من دون أيّة مقدمات، في نقاشٍ طويلٍ حول المواضيع الأساسيّة لـ«الماديّة الديالكتيكيّة» المطروحة بشكلٍ مسهبٍ وواضحٍ في الكتاب. تكلّما لساعاتٍ عن وحدة وصراع الأضداد، وعن التّغيّرات الكميّة الّتي سوف تؤدّي حتماً لتحوّلاتٍ نوعيّة، وغير ذلك من الأمور الفلسفيّة، خرج شارد بعدها إنساناً آخر.

أثّرَ الكتاب في حياته كثيراً، وغيّر كلّياً نمط تفكيره ومقاربته التّحليليّة لمسائل الحياة، ليس بالأفكار الجديدة الصّادمة التي قُدّرَ له مواجهتها في هذه السّنِّ المبكرة فقط، بل بالسّؤال الّذي بدأ منذ ذلك الوقت يطرحه على نفسه؛ سؤالٌ بدأ يهاجمه ويُقحمه في متاهاتٍ فكريّةٍ مخيفة: ماذا لو أنّه حين مرَّ في ذلك اليوم لم يكن غيفارا في بيته؟ أو ماذا لو أنّه كان منشغلاً حينها كعادته بسقي وروده الّتي يحبّها كثيراً وتحاشى استقباله؟

كان جدّه في تلك الفترة يحثّه على أن يصبحَ رجل دين عندما يكبر، واثقاً من قدرته وذكائه على بثِّ روح الإيمان بالله والتّقوى في قلوب كثيرين من النّاس. وها هي صدفةٌ تقلبه رأساً على عقب، ويصبح إنساناً ملحداً يؤمن أنَّ الإله الّذي كان جدّه يكثر في الكلام عنه غير موجود. وبدأت علامات الاستفهام الكبيرة تدقُّ إسفيناً تلو الآخر في منهجيّته العقليّة.

لم يكن شارد الشّخص الوحيد الّذي أُعجب بغيفارا، فقد لفت اهتمام أمِّ نجم من المرّة الأولى الّتي جاء فيها لزيارتهم، بحذائه المطّاطيِّ المتشقّق التي تظهر منه البصمات المتعرّجة لأصابعَ رجليه المحشورة في الدّاخل، وببنطاله الواسع المشدود على خصره النّحيف، والّذي فعلت به سطوة الزّمان فعلها، فشابته رقعتان إحداهما زرقاء من الجهة اليسرى والأخرى سوداءُ من الجهة اليمنى، ولم يعد يُعرف لونه الأصليّ، إن كان بنيّاً أو زيتيّاً.

دعته حينها للجلوس وفي قلبها رأفةٌ عليه. فقد ذكّرها بنفسها قبل الزّواج، وكيف كانت تسخر رفيقاتها من ثيابها الرّثّة الباليّة. ولكنّه ما لبث أن نجحَ في جعلها تنسى ملابسه، بطلاقة لسانه ومرحه. ولم تعد تتحاشى النّظر إلى أنفه الأفطس الكبير يغطي عينيْه الجاحظتيْن قليلاً. بل أصبح كلُّ همّها منصبّاً على متابعته يتنقّل بسلاسةٍ من موضوعٍ إلى آخر كالأستاذ أمام زوجها ووالده. وكان يحوز الاحترام بسبب تواضعه الذي يظهر عليه من غير ادّعاء، إذ عندما يأخذ أحدهما الكلام كان يستمع باهتمام.

لم يخفَ على أبي نجم كيف كانت زوجته تستمع بتركيزٍ إلى غيفارا، ولحظها كيف كانت تنظر إليه معجبةً، ولم يستطع أخذ النّقاش بعيداً عن الفلسفة والسّياسة والولوج به إلى ميدانه المفضّل، الشّعر والأدب. وبعد الزّيارة، لم يتوانَ عن تناوله بكلامٍ قاسٍ، بكبرياء المهزوم، وهو الّذي عوّد زوجته على فكرة أنّه الأكثر ثقافة، ولم يتردّد بنعته بالدّميم المغرور. لم يكن يعرف أنّه بذلك يستفزُّ رغباتها، فهي، لم يكن ليخطرَ في بالها أن تتّخذ عشيقاً لها شاباً يصغرها بأكثر من عشر سنوات، ولكنّه الآن بكلامه، كان كمن يزرع الفكرة في رأسها، ويصقلها كرمحٍ ناريٍّ يبحث عن قلب

غيفارا، فبلعت ريقها ولم تُجِبْ بشيء، مخافة أن تفضحَها زلّات لسانها.

وفي أيام قليلةٍ بعد هذه الزّيارة، نسيت تدريجاً ذكريات لقاءاتها مع أبي أمين الّتي كانت تسترجعها كلّما اختلت بنفسها، ونجحت سريعاً بإغواء غيفارا واتّخذته عشيقاً، شاعرةً معه بالاستقرار الجنسيّ، وكأنّها العلاقة الأولى الفعليّة والواعية لها.

-2-

بعد أن ودّعت منى أمَّ نجم وشارد في ذلك اليوم من آذار 1969، رجعت إلى بيتها متعبةً قلقة، لتجدَ والدها يتباحث مع أمّها في المستقبل المبهم لأهالي المنطقة في ظلِّ الأحداث الأمنيّة المتسارعة، وما إن دخلت عليهما حتّى أعلن لهما قراره النّزوح إلى بيروت.

لم تتردّد منى وأمّها في القبول، خصوصاً وأنَّ عدداً كبيراً من أهالي البلدة كان قد نزح بالفعل إلى المناطق البعيدة عن المناوشات العسكريّة، وأنَّ منى تخاف الحرب كثيراً. واتّفقت العائلة على الرّحيل في اليوم التّالي.

لم تَكَدْ تنهي تجهيز حقيبتها، حتّى انطلقت مسرعةً إلى بيت صديقتها غزل لتخبرَها بالقرار، ولتحثَّها على الانتقال هي الأخرى مع زوجها إلى بيروت، فوجدتها مصمّمةً على البقاء، وأمام إصرار منى قالت غزل:

- أنتِ أعزُّ صديقةٍ عندي، ولا بدَّ أنّك تعرفين أنَّ ما يقال عنّي من كلامٍ لا يعبّر عن كلِّ الحقيقة.

توقّفت هنيهة وكأنّها تتردّد في متابعة كلامها، ثمَّ تابعت بتصميم من يريد المصارحة بأمرٍ يثقل ضميره:

- يجب أن تفهمي يا منى، أنَّ المسألة ليست مسألة سلوك؛ إنَّ امرأةً مثلي ليس باستطاعتها الاكتفاء برجلٍ واحد، حتّى لو أرادت ذلك بكلِّ ما أوتيت من قوّة، فهذا خارجٌ عن إرادتي.

- ألا تستطيعين السّيطرة على نفسك ولو لـ...

- يا منى! أنا أتحاشى أن أتواجدَ مع رجلٍ في مكانٍ معزولٍ لدقائق، أجل، لا أستطيع المقاومة، فإن لم يتصرّف هو فسوف أتصرّف أنا.

- والعمل؟

- في الوقت الحاضر سأتابع حياتي هنا كما هي، فقد أصبح عندي شبكة من العلاقات في المنطقة لن أستطيعَ إيجاد بديلٍ سريعٍ لها.

ثمَّ ضحكت بصوت عالٍ وأردفت:

- أخصُّ بالذّكر أبا نجم، فأكاد أصبح مدمنةً عليه.

علت وجه منى سحنةً من الحزن لتذكّر عائلة أبي نجم، وحاولت أن توهمَ نفسها بأنَّ ما يزعجها هو فراق أمِّ نجم، ولكنّها كانت تفكّر في عقلها الباطنيِّ بشارد، وبينما كانت تهمُّ بالكلام، اعترتها رعشةً مفاجئة، إذ لمعت في ذهنها فكرةٌ اختلج لها قلبها وأخافتها في الوقت نفسه، وأنقذتها غزل من مناجاتها قائلةً:

- وأنتِ، ألا يزعجك الابتعاد عن مرابع طفولتك؟

- معك حق، كم هو صعبٌ الفراق!

- بكلِّ أسف يا منى، كلُّ لقاء سوف يتبعه، عاجلاً أم آجلاً، فراقٌ حتميّ، والفراق يكون في غالب الأحيان نهائيّاً.

- إلّا فراقنا يا عزيزتي، فكلّي أملٌ أنّه سوف يتبعه لقاءٌ حتميّ.

ثمَّ أضافت مُردّدةً الجملة الّتي كان قد قالها لها شارد:

- يجب أن ننتظرَ دوماً صدفتنا الجميلة.

- أجل معك حق، وفي بعض الأحيان تكون الصّدفة هي القاعدة.

ودّعت منى صديقتها، ورجعت إلى بيتها كئيبةً مُدركةً أنَّ مرحلةً جديدةً

من حياتها سوف تبدأ، وأنَّ ما قضته حتّى الآن في قريتها، سيصبح ذكرى طاهرةً بريئةً ليس إلّا. وحين خلدت إلى النّوم، لم تغفُ بسرعةٍ كعادتها، بل أرِقَتْ طويلاً ورأت كوابيسَ متتاليةً مُرعبة، واستفاقت مع أوّل صيحة ديك، فلبست ثيابها ووضعت حقيبتها في المدخل، ثمَّ خرجت إلى المصطبة تراقب الضّباب ينحسر من جلٍّ إلى آخر مهزوماً أمام الفجر الصّاعد. تلمّست شجرات الحديقة واحدةً واحدة، وسمعت صوت زقزقة العصافير الّذي بدأ توّاً خافتاً، كما لو أنّه ترنيمة العشاء الأخير.

وصلت منى ووالداها إلى بيروت، وسكنوا لأيامٍ مع أخويْها في غرفةٍ واحدة، ثمَّ انتقلوا إلى شقّةٍ اختارها أبو جوزف في شارع فردان في منطقة رأس بيروت، أحد الشّوارع الأكثر برجوازية في العاصمة اللّبنانيّة، ليليقَ به في حال أصبحَ قائداً للجيش أو ربما رئيساً للجمهوريّة، وهذا حلمٌ يراود كلَّ مارونيّ.

كان انتقال منى للعيش في بيروت فرصةً كبيرةً لها لتتابعَ دراستها الجامعية في الأدب الفرنسيّ. تسجّلت في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، على الرّغم من مرور أشهرٍ على بدء العام الدّراسيّ، بعد امتحانٍ أثبتت فيه جدارتها ومعرفتها الكبيرة بالأدب الفرنسيّ.

لم تكن شخصيتها لتساعدَها في التّأقلم في بيئتها الجامعيّة، الّتي يسيطر عليها الكتائبيّون، فهي لا تستطيع إلّا أن تتكلّمَ مباشرةً من دون مواربة، وفي الوقت نفسه هي عنيدة وخجولة، فتتراجع عند المجابهة القاسية. ولهذا انطوت على نفسها، مكتفيةً بصديقةٍ وحيدة، كتائبيّةٍ هي الأخرى، إنّما منفتحة على الآخرين، وقبل كلِّ شيء، كانت مثلها، على درجةٍ كبيرةٍ من الإيمان، وكانتا تترافقان إلى الكنيسة كلَّ يوم أحد، من دون أن تتحدّثا في السّياسة يوماً.

كان جمالها الهادئ يجذب إليها عدداً كبيراً من طلاب الجامعة، ولكنّها أبتْ أن تسمحَ لأيٍّ منهم بالاقتراب كثيراً منها، من دون أن تفهمَ هي نفسها السّبب. كانت رغبتها الجنسيّة تثور أحياناً في داخلها كالبركان، فتخمدها بالانزواء والهروب من جسدها الجامح، فما الّذي يمنعها إلى هذا الحدِّ من التّواصل مع الجنس الآخر؟

طوال الفترة الّتي قضتها منى في الجامعة، لم تصادق أيَّ شابّ، وكان فكرها يأخذها من حينٍ إلى آخر إلى شارد، فتشعر بفرحةٍ غامضةٍ تعتريها، وتمنّي النّفس لو تستطيع معرفة أخباره. وأخيراً، عندما حصلت في صيف 1973، على شهادة اللّيسانس في الأدب الفرنسيّ، شعرت أنَّ هذه السّنوات الأربع قد مرّت عليها رتيبةً بلا معنى، وتستطيع سردها في جملةٍ واحدة.

-3-

استتبَّ الأمن في فطر بعد أقلّ من سنةٍ على نزوح عائلة أبي نجم، ولكنّهم تابعوا حياتهم في القرية الجديدة لثلاث سنوات، وكان الدّافع الأوّل لأبي نجم بعدم العودة إلى فطر، هو مكابدته مشقّة أقلّ في الوصول إلى قرية غزل، أمّا رضا أمّ نجم بقرار زوجها، فكان نابعاً من سعادتها مع غيفارا الّذي كان يتعامل معها بشغفٍ ورقّةٍ ووداعة، بعكس أبي أمين الّذي كان يأخذها بعنفٍ وقساوة، من دون أن تنكرَ أنّها كانت، على الأخصّ في بداية علاقتها معه، خاضعةً باستمتاع لوحشيّته الغرائزيّة.

وبمرور السّنوات الثّلاث، ازداد شارد نضجاً ووعياً، وأصبح يتكلّم ويتصرّف كشباب الضّيعة ورجالها وليس كمراهقٍ في الثّالثة عشرة من عمره، وتوطّدت صداقته مع كريم، وكانا يذهبان يوميّاً، بعد إنجاز فروضهما المدرسيّة، إلى الحقول يتناقشان في شتّى الأمور ويجدان نفسيْهما أقرب أكثر فأكثر من الشّبيبة الشّيوعيّة النّاشطة في مجالاتٍ عديدة وخصوصاً الرّياضة والكشّافة، والّتي كان غيفارا المسؤول عنها، وإن كان شارد أقلّ حماسةً، وكانت مشاركته ناجمة عن إعجابه بغيفارا ومعرفته بالتّوجّهات الشّيوعيّة لمنى.

ولكنَّ هذه النّشاطات، لم تؤثّر على تفوّقه الدّراسيّ، وتقدّم في حزيران 1974، بتدخّلٍ من والده لدى مدير المدرسة، وبعد إلحاح من الجدِّ أبي ابراهيم، لامتحانات الشّهادة المتوسّطة، وكان لمّا يزل في سنته الثّالثة التّكميليّة.

وبدأت فلسفة خاصة في فهم الحياة، تتبلور في فكره، من دون أن يستطيعَ وضعها في قالبٍ واضحٍ وصريح. وأصبح تفكيره يدور، كلّما اختلى بنفسه، حول مدى أهمّيّة الصّدفة في الكون. وكان قد تطرّق إلى هذه النّقطة مراتٍ عديدةٍ مع أمّه، وأحياناً أقلّ مع منى، أمّا الآن فهو يقترب من الاقتناع أنّها كلُّ شيء.

لم يُخفِ شارد عن صديقه كريم هواجسه، ولكنّه لم يستطع إيصال أفكاره بشكلٍ واضح. وفي اليوم التّالي لصدور النّتائج الرّسمية للشّهادة، ونجاحه، اجتمعا، كعادتهما كلَّ مساء في الكروم، تحت شجرة الزّيتون المعمّرة الهرمة لشرب الشّاي.

جمَع كريم، قليلاً من الحطب، وضع فوقها بعض القشّ، أخرج عود الثّقاب من علبة الكبريت التي لا تفارق جيب بنطاله، وأشعل النّار.

كان وهج الشّمس قد بدأ في الفتور ولونها يميل إلى البرتقاليّ، وأصبحت خيوطها تتساقط حولهما عشوائيّاً عبر الأغصان، فلم يتمالك كريم نفسه أن يعيدَ ما يردّده:

- هذا أجمل منظرٍ أراه في حياتي، لا أشبع منه.

- فعلاً، إنّه جميل، وصداقتنا أجمل فلَيْتهما يدومان.

- صداقتنا أعتقد أنّها ستدوم، ولكن جلساتنا هذه لا أدري، فهيهات من تقلّبات الدّنيا.

كانت العتمة قد بدأت تتسلّل زاحفةً عبر الصّخور، والنّار التي أشعلها كريم في الحفرة الصّغيرة تلاشت، لتحُلَّ مكانها كتلةٌ من الجمر المتوهّج، فبدت مع قرص الشّمس المتخافت فوقها كأنّهما توأمان يتحاكيان الجمال.

نهض شارد وأعاد ترتيب الأحجار المستخدمة ككلّ مساء، بشكلٍ دائريٍّ حول حفرة الجمر، ثمَّ تناول إبريق النّحاس المخبّأ بعنايةٍ في جذع الشّجرة، فملأه حتّى نصفه ماءً من الزّجاجة الصّغيرة الّتي يحملها في جعبته القماش، ووضعه فوق الجمر، ثمَّ عاد إلى مكانه وسأل كريم:

- كنتَ تتكلّم عن تقلّبات الدّنيا، إلى أيِّ حدٍّ تعتقد أنّنا نستطيع التّنبّؤ بها؟

- لا أعتقد يا شاردُ أنّنا نستطيع التّنبّؤ بمستقبلنا، ولكنّني من جهةٍ أخرى، أؤمن بقدرتنا على التّأثير في مجرى حياتنا وتغيير مسارها.

سادت فترةٌ من الوجوم، شرد خلالها شارد بعيداً، وكان الماء بدأ بالغليان، فأخرج من جعبته فنجانيْن وضع أحدهما أمامه والآخر أمام كريم، ثمَّ أخرج ورقَتي جريدةٍ ورشَّ محتواهما من الشّاي والسّكر في الماء التي كانت تغلي. وبعد ثوانٍ رفع الإبريق ووضعه إلى جانب الجمر، وعاد إلى مكانه وقال:

- أنا لا أوافقك الرّأي أنّنا نستطيع أن نغيّرَ شيئاً في حياتنا، أتعرف يا كريم، كلّما تعمّقتُ بماهيّة هذه الحياة، ازددتُ قناعةً أنّها ليست إلّا سلسلةً من الصّدف.

فسأله كريم:

- هل تريد أن تقولَ إنَّ كلَّ ما يجري هو صدفةٌ تليها أخرى؟

- أجل يا كريم، وليس وراء السّعادة والنّجاح عند بعضهم، والتّعاسة والفشل عند بعضهم الآخر إلّا الصّدفة والحظّ.

- كيف تفسّر إذاً أنّك من الأوائل في صفّك؟ أوليس هذا ناتجاً عن العمل والاجتهاد؟

- لا، لا أظنُّ ذلك.

- إذاً؟

سكب شارد الشّاي في الفنجانيْن، نفخ على فنجانه قليلا ليبرّدَه، ثمَّ رشف بصوتٍ مسموع، وأعاده فوق الحجر المسطّح أمامه، ووضع كفّه على كتف كريم ونظر إلى الأرض قائلاً:

- إسمع، يولدُ الإنسانُ بلحظةٍ ما وببيئةٍ ما.

- اتّفقنا.

- طيب، فلآخذ نفسي مثلاً، وُلدتُ في يوم كذا، بإمكانيّاتٍ جسديّةٍ وفكريّةٍ محدّدة، ضمن بيئةٍ هي أيضاً محدّدة، فأنا عندها شارد اليوم صفر، وبعد ثانية، دقيقة، ساعة أو، لنقل يوماً، أصبحت شارداً اليوم واحداً.

واستطرد:

- ما وصلتُ إليه حينها، لا دور لي فيه مطلقاً، لأنّه نتاج التّفاعل بين شارد اليوم صفر والبيئة الّتي كانت تحيط به. وأيضاً ما سوف يصبح عليه شارد في اليوم الثّاني سيكون أيضاً نتاج التّفاعل بين شارد اليوم واحد والبيئة الجديدة الّتي أحاطته، وهكذا دواليك في كلِّ يومٍ، وحتّى في كلِّ لحظةٍ تالية، مهما كانت صغيرة.

وبعد ثوانٍ من الصّمت أردف:

- لذا أعتقد، أنّ ما سأكونه، أو ما ستكونه، في أيّة لحظةٍ، هو حالةٌ حتميةٌ مرسومةٌ منذ الولادة. وأيُّ فعلٍ سنقوم به سيكون نتاجاً لهذا التّفاعل بين ما وصلنا إليه والبيئة الجديدة التي وُضعنا فيها، وبالنّتيجة، فأنا أعتقد أنَّ الإنسان مسيّرٌ كلّياً.

تناول فنجانه إيذاناً بانتهاء فكرته منتظراً ردَّ كريم الّذي ما لبث أن قال:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا فضل لأحدٍ إطلاقاً على إنجازٍ قام به في حياته، ولا ذنب لأحدٍ على جرمٍ اقترفه و...

فقاطعه شارد قائلاً:

- بالتّأكيد، وسأذهب إلى أبعد من ذلك لأقول، إنَّ الإنسان الطّبيعيَّ والمنطقيَّ والعاقل هو الإنسان العبثيُّ حتّى الانتحار.

لم يقتنع كريم كلّياً بوجهة نظر شارد، وهو المؤمن بوجود الله، والّذي لا يترك فرض صّلاة إلّا وأدّاه في حينه من دون تلكّؤ. وافترقا على أن يتابعا نقاشهما لاحقاً، ولكنَّ فراقاً أطول كان بانتظارهما.

فقد حصل طارئٌ في حياة أبي نجم كان له وقع الصّدمة عليه، فقد أخبرته غزل أنّها سوف تنتقل للعيش مع عائلتها بعيداً في شمال لبنان، وأنّها لم تستطع أن تقنعَ زوجها بالتّراجع عن قراره، وأنه لم يتوانَ عن القول لها بشكلٍ مباشرٍ وصريح، إنّه أصبح يخجل من النّاس في الضّيعة بعد الكلام السّيّئ الّذي يتداولونه عنها.

أصبح أبو نجم أقلُّ مرحاً وأكثر عنفاً، وانتبه لأوّل مرةٍ للشّيب الّذي كان قد بدأ يخطُّ شعره منذ وقتٍ طويل، وللتّجاعيد الّتي انتشرت على جبهته وعلى طرفيِّ عينيه، وقد كان، ولفترةٍ قصيرةٍ خَلَتْ، لا يزال يشعر أنّه في أوّل شبابه. لكن ها هو يكبر سنواتٍ عديدةً في فترة قصيرة. كان شعوره بفقدان غزل يثقل عليه.

قصد والده يستشيره، كما اعتاد كلّما وجد نفسه في مأزقٍ وبحاجةٍ إلى النّصح. ولفته الهرم البادي على محيّاه وعلى جسده، الّذي لم يكن قد لحظه سابقاً. وحزَّ في نفسه، كمن يستفيق ضميره بعد طول كبوة، كيف أنّه أهمل والديْه منذ فترة، حتّى إنّه لم يكن قد انتبه أنَّ العجوز قد أصبح يمشي بصعوبةٍ على عكّازه، بخطواتٍ قصيرةٍ حذرةٍ وظهرٍ مقوّس.

لم يتحدّث أبو ابراهيم عن أراضيهم الّتي يستثمرها النّاس من دون بدل، ولا عن بيعه الجلّ الكبير في وسط الضّيعة، عندما طلب أبو نجم المال منه منذ فترةٍ قصيرة، وهو يفاوض الآن على بيع أراضٍ أخرى، بل تكلّم بحسرةٍ عن عجزه، وعن صعوبة الحياة حين تحافظ على وعيك كاملاً وتفقد القدرة الجسديّة. ولكنّ أبا نجم قاطعه متحدّثاً عن هواجسه؛ فالأولاد الكبار يتابعون دراستهم الثّانويّة في بيروت، والمصاريف تزداد، فنصحه والده بالنّزوح إلى العاصمة، مؤكّداً، وباصرار، أنّه هو سيعود إلى فطر.

لم يتأخّر أبو نجم كثيراً في اتّخاذ القرار بالانتقال إلى بيروت، وسط حماسة أمّ نجم وفرحتها؛ فهي كانت تعيش حالة كآبة منذ شهور، منذ أن غادر غيفارا القرية لأنّه وجد وظيفةً لائقةً له في بيروت. كان أبو نجم غارقاً حتى أذنيْه في بحر ولعه بغزل، ولم ينتبه لزوجته التي خرجت بسرعةٍ من البيت ذاك المساء لتساعدَ جارتها في التّحضير لوليمةٍ في الغدّ، وكيف رجعت بعد ساعتيْن كدجاجةٍ منتوفة.

ولم يمضِ أسبوعٌ حتّى كان أبو نجم قد انتقل مع عائلته إلى شقّةٍ استأجرها في حيّ الحازميّة، في الضّاحية الشّرقيّة من بيروت، ذات الغالبيّة المسيحيّة.

الفصل الرابع

ـ 1 ـ

كانت الشّقة الجديدة التي انتقلت إليها عائلة أبي نجم، في ذلك الصّيف من سنة 1974، متوسّطة الحجم، وكانت تقع في الطّابق الثّالث من مبنىً مكوّنٍ من ستِّ طبقات، يتربّع على تلةٍ جميلةٍ مطلّةٍ على مدينة بيروت ومواجهةٍ لعددٍ من التّلال الجميلة المتروسة بغاباتٍ من أشجار السّنديان والصّنوبر، والّتي تظهر من الشّرفة كلوحةٍ بانوراميةٍ عشقها شارد فور رؤيتها، وكان يستأنس مجالسة أمّه في الصّباح يستمتعان بمشاهدة المنظر.

وفي ذات صباحٍ لاهبٍ من تموز، استيقظ شارد باكراً على الرّغم من أنّه لم ينم جيداً من شدّة الحر، وخرج إلى الشّرفة فوجد أمّه قد سبقته، وفنجان القهوة في يدها، صبّح عليها ثم بادرها بالكلام قائلاً:

- ما أروع هذه الغابات يا أمّي! أنا سعيدٌ لانتقالنا إلى بيروت.

- وأنا أيضاً كنت أنتظر المجيء إلى بيروت بفارغ الصّبر.

فاجأته سرعتها في الإجابة، والحدّة والتّصميم في لهجتها، لأنّهما لا

يتناسبان مع محتوى كلامها، كأنَّ في قرارة نفسها لهفةً متفجّرة، انتبهت لنفسها وأرادت تصحيح مسار الحديث عندما رأت الدّهشة في وجهه، ولكنّه باغتها سائلاً:

- هل تعرفين إلى أيِّ حيٍّ من بيروت انتقل غيفارا؟

ما إن أنهى جملته حتّى شعر بالهفوة الّتي قام بها، فلماذا يحرجها وهو يشكُّ بعلاقتها بغيفارا؟ كان بودّه أن يعتذرَ ويقولَ لها إنّه سيبقى دوماً إلى جانبها في كلِّ ما تفعله، وإنّه يحقُّ لها اتّخاذ عشيقٍ لها طالما أنَّ والده، رغم الإحباط المبهم الّذي ظهر عليه أخيراً، ما زال يهملها ويعاملها بقسوته المعتادة. مرّت كلُّ هذه الأفكار في رأسه في الثّواني الّتي تلت سؤاله، وكانت أمّه لا تزال تبحث عن الجواب الأفضل، ولكنّه استعاد المبادرة قائلاً:

- أسألك لأنَّ نجم أخبرني أنّه التقى غيفارا في الأسواق، وأنّه أخذ شقّةً صغيرةً في قلب المدينة، وسوف يزورنا قريباً. كم أشعر بالشّوق للقائه.

فتمتمت مُضطربةً ومحاولةً أن تقتضبَ في كلامها ما استطاعت:

- معك حق، إنّه شابٌّ لطيفٌ جداً.

أمام نعومة صوتها واضطرابه، واحمرار وجنتيها وهروبها بنظرها إلى البعيد، تحوّل شكّه يقيناً، فما أضمر المرء شيئاً إلّا ظهر على قسمات وجهه أو في فلتات لسانه[10]، تألّم لإحراجها فغيّر الحديث مُطَمْئِناً:

- أتعرفين يا أمّي؟ أكثر شيءٍ يهمّني في الحياة هو رؤيتك سعيدة، أنا أحبّك كثيراً.

- وأنا أحبّك أيضاً يا شارد، أنت وإخوتك أجمل ما حصل معي في حياتي. سعادتي بكم لا تضاهيها أيّة سعادةٍ أخرى، وأنا جدُّ فخورةٌ بك

أنت بالذّات، خصوصاً لوعيك الّذي يتخطى كثيراً من هم في عمرك، وهذا ليس بالجديد، فمنذ كنتَ طفلاً كانت مُدرّستك، الآنسة منى، لا تنفكُّ تقول إنّك كنتَ رجلاً في جسد طفل، وكانت على حق. وبالمناسبة، فقد التقيت بها البارحة في السّوق، كانت مع زوجها، فقد تزوّجت منذ أسبوع، أخبرتني أنّها بحثت عنّا كثيراً لدعوتنا إلى العرس ولم توفّق.

تابعت حديثها لدقائقَ طويلة. وتكلّمت بإسهابٍ عن زوج منى، وأنّها تستحق أفضل منه، وتحدثت عن ثيابها وجمالها. ولم تنتبه أنَّ شارد لم يكن يستمع لشيءٍ ممّا تقوله. كان كمن تلقّى صدمةً مؤلمة. فقد كان في الفترة الأخيرة يفكّر كثيراً في منى. وكان حين يتكلّم أصحابه عن الحبِّ، تلمع صورتها في مخيّلته كوميض البرق.

- أين أنت يا شارد؟ مع من أتكلّم؟

- آسف يا أمّي شردت قليلاً.

- هذا ليس جديداً عليك (وضحكت)، أتعرف أنَّ الآنسة منى قد أصبحت مُدرّسةً في التّعليم الثّانوي، وأنّها تدرّس صفّك نفسه؟

توقّفت برهة عن الكلام لترتشفَ قهوتها، وأضافت:

- ولكن في مدرسةٍ أخرى غير تلك الّتي سجّلناك فيها.

- أنا مشتاق لرؤيتها، متى نستطيع زيارتها؟

- سوف تهزأ بي، أو تغضب مني، إذا أخبرتك أنّني اتّفقت على مواعدتها قريباً، ثمَّ طال بيننا الحديث وتشعّب ونسينا أن نتبادلَ العناوين.

- معقول؟

لم يسمع ردَّها، فقد كان يتلقّف كلامها بشكلٍ مبهمٍ غير مفهوم، كأنّه مغمى عليه، وحين وقفت واتّجهت صوب المطبخ حاملةً معها

صينيّة القهوة، وقف متّكئاً بيديْه على الدّرابزين وأخذ نفساً عميقاً وجال بنظره على غابات السّنديان والصّنوبر، فرآها تمتدُّ من أسفل الهضاب حتّى قممها كسجادةٍ خضراءَ لا نهاية لها، وشيئاً فشيئاً، بدأت كلمات أمّه المتفرّقة المبعثرة تتجمّع في جملٍ حقيقيةٍ وتصفو في ذهنه. والآن فقط شعر بالحسرة لزواج منى، كمن يحسُّ بألم الضّربة بعد حينٍ من حدوثها، وتفاقمت مأساته بعدم معرفة عنوانها.

تذكّر في هذه اللّحظة، المرَّة الأولى التي رآها فيها حين كان لمّا يزل في الثّامنة من عمره، بتنورتها السّوداء الضّيقة. وكيف اكتشف شعوراً لم يكن يعرفه من قبل، فقد أحسَّ بالرّغبة الشّديدة لضمّتها، وتمتم قائلاً: «يجب أن أجدَ وسيلةً لرؤيتها».

-2-

كان الهدف الأوّل لأبي نجم من الحصول على خطٍّ هاتف للبيت هو التّواصل من وقت إلى آخر مع غزل. ولم يُعِر أي اهتمام للفرحة التي ظهرت على زوجته، التي كانت تفكر أن غيفارا سوف يحصل على رقم الهاتف من نجم وسيتّصل بها حتماً. ولم يخِب ظنّها، فلم تمضِ أيامٌ حتى تلقّت اتّصالها الغراميِّ الأوّل بعد طول شوقٍ وغياب، وأخبرها بمكان سكنه في بيروت.

لم يكن شارد يعرف ما يُرتّب له حين ذهب مع أمّه لشراء قرطاسيته من حيٍّ زقاق البلاط الشّعبيّ. كان يعرف أنَّ كلَّ البضائع تُباع أرخص هناك، ولكنَّ مكابدة عناء التّنقلات لم يكن من شيمها، وسُرَّ كثيراً بالمفاجأة عندما كاد يصطدم بغيفارا في المكتبة، واحتضنا بعضهما بحرارةٍ صادقةٍ متبادلة. أمّا أمُّ نجم فقد مدّت يدها مصافحةً غيفارا ببرودةٍ في الأداء، وبغليانٍ في الكفِّ والوجه الّذي علته حمرة الانتشاء، ومن شدّة إفراطها في إظهار اللّامبالاة عرف شارد أنَّ اللّقاء كان مدبّراً سلفاً.

دعاهما غيفارا لشرب القهوة في منزله الّذي يقع مباشرةً قبالة المكتبة. فوافقت أمُّ نجم على أن لا يتأخرا لأنّها يجب أن تشتريَ لشارد ما يحتاجه ومشت إلى جانبه، يتبعهما شارد، مخفّضة عينيها كعبدٍ مملوكٍ يتبع سيده.

ما إن دخلت أمُّ نجم الشّقة، الّتي تقع في الطّابق الأوّل من عمارةٍ قديمة، حتّى وجدت نفسها مباشرةً تلج الغرفة اليتيمة الّتي بالكاد تتّسع

لأثاثها الفقير، من سريرٍ حديديٍّ يعلوه الصّدأ، أمامه طاولةٌ مستديرةٌ وكرسيٌّ خشبيّ. وأثار قرفها كنبةٌ صغيرةٌ مُهترئةٌ تلتصق بالسّرير، وتنتشر عليها كتل إسفنجٍ بارزةٌ من خزقٍ متفرقة، ويعلو ما سَلِم من قماشها، بقعٌ من وسخٍ قديمٍ بألوانٍ مختلفة. نظرت بحشريّةٍ إلى المطبخ المستطيل على يسارها، الّذي يُرى مدخل الحمام في آخره، ولكنّها لم تستطع أن تستفيضَ باستكشافاتها، إذ عبرت أنفها روائحُ مختلفة، فاتّجهت مسرعةً إلى الشّرفة عن يمينها، واضطرّت أن تضغطَ بقوةٍ لتفتحَ بابها.

وجدت بصعوبة لنفسها مكاناً بين الأغراض المختلفة، وأخذت نفساً عميقاً وهي تتأمّل الشّارع المكتظّ، وأمعنت النّظر في الباعة ينادون على بضائعهم بأصواتهم العالية، أحياناً في وقتٍ واحدٍ بالجملة وأحياناً أخرى على نحو متواتر، مُحْدِثين الكثير من الجلبة المميّزة، الأقرب إلى الموسيقى منها إلى الضّجة.

سرّها المشهد وابتسمت لرؤية ولدٍ في العاشرة من عمره تقريباً يقف على باب الفوّال، ويحمل تحت إبطيه رزماً من الجرائد ينادي بأسمائها علّه يجد مشترياً هنا أو هناك، مفسحاً في الطّريق لشابٍّ صغيرٍ يحمل على كفّيه المفتوحين إلى الأعلى صحنين من الفول مستعجلاً لإيصال طلبيته. وبعد دقائقَ هدأ روعها قليلاً وخفَّ اضطرابها فعادت إلى الغرفة، وطلبت من شارد أن تأخذَ مكانه على الكرسيِّ متحاشيةً الكنبة.

لم يساعد الجوُّ الحارُّ في الغرفة أمَّ نجم وغيفارا على تبريد ما يجيش في داخل كلٍّ منهما من بركانٍ قابلٍ للانفجار في أيّة لحظة. كانت تعرف كم يحبُّ القهوة من يدها، فاتّجهت مسرعةً إلى المطبخ ناظرةً أمامها مباشرةً كإنسانٍ آليٍ، مخافة أن تلتقيَ نظراتها بنظرات ابنها فيكتشفَ مدى التّوتر الّذي يعتريها، وهاربةً أيضاً من نظرات غيفارا الّتي تأكل جسدها بشكلٍ مفضوح.

ناولته فنجان القهوة وقد بدا عليها الارتباك. فما أن التقت نظراتهما حتى احمرّ وجهاهما وكأنَّ ناراً اشتعلت في الغرفة. وأصبحت حركاتهما عشوائية، وما عادا يعرفان كيف يداريا تلك الرَغبة التي تجتاحهما. أحسَّ شارد كأنَّ زلزالاً سوف يقع إن لم يتدارك الموقف، فوقف بغتةً كجنديٍّ تلقّى أمراً، وطلب من أمّه المال محتجّاً بأنّه سيذهب لشراء قرطاسيّته بنفسه، ولاحاجة له بمساعدتها، فناولته محفظتها كاملةً بيدٍ مرتجفةٍ وأسرع بالخروج.

لمّا رجع بعد ساعة، فتح له غيفارا الباب بقميصٍ شفافٍ يلتصق بجسده من شدّة التعرّق حتّى يكاد لا يُرى، حاملاً منديلاً يمسح به وجهه، وأخبره أنَّ أمّه دخلت الحمام. فجلس على الكرسيِّ وأمامه على الطّاولة فنجانا القهوة لم يُمسّا، فانتبه غيفارا للأمر وقال: إنَّ أمّه أخطأت فوضعت ملحاً بدلاً من السُّكر. أراد شارد أن يقولَ له إنّها تشرب القهوة مُرّةً، ولكنّه فضّل السّكوت، وما لبثت أن خرجت من الحمّام وقفلا راجعيْن، وغفت في السّيارة الّتي أقلتهما إلى المنزل.

فور عودتها استحمّتْ، وخرجت إلى الشّرفة حاملة فنجاناً من القهوة وسيجارة، وبدأت تتساءل عن سبب هذه اللّذة الّتي تشعر بها مع غيفارا، فهو أقلُّ جمالاً من أبي أمين ومن زوجها، ولكنَّ اللّذة معه أقوى ممّا كانت تشعر بها مع أبي أمين، أما زوجها فهي لم تعرفها معه قطّ. فهو لا يزال يأخذها من حين إلى آخر كعادته وهي نائمة، واكتشفت أنّ الجمال يلعب دوره كمُحفّزٍ مهمٍّ قبل العملية الجنسيّة، ولكنّه يصبح قليل التّأثير أثناءها، فينكفئ مختبئاً من طغيان بقيّة الحواسِّ عليه، من اللّمس إلى الشّمِّ والذّوق والسّمع، الّتي تتفاعل في مزيجٍ حسّيٍّ، رّبما هو أعلى وأرقى درجات الإحساس عند الحيوانات والبشر.

في اللّقاءات التّالية بين غيفارا وأمّ نجم، أصبحت الأمور أوضح بالنسبة لشارد، حتى إنه أحياناً كان يترك أمّه تصعد وحدها ويذهب فيتسكّع في الطّرقات الضّيقة لزقاق البلاط، ثمَّ ينتظرها لتوافيَه أمام المبنى أفتى وأكثر إشراقاً بكثيرٍ ممّا تركها. فلا يتبادلان الحديث إلّا قليلاً حتّى الوصول إلى البيت. لم يشعر في أيّة لحظةٍ أنّه متواطئٌ على أبيه. فقد كان يكره ذكوريّة مجتمعه. كما كان يكنُّ لأمّه حباً فريداً، ولم يتردّد في التّلميح لها بمكنون أفكاره، وأفهمها بشكلٍ غير مباشرٍ أنّه يعي تماماً ما يفعله وبالتالي لا داعي للقلق.

-3-

عندما نالت منى شهادة البكالوريوس في الأدب الفرنسيّ، سنة 1973، كان أبو جوزف قد رُقّي حديثاً إلى رتبة عقيدٍ ركن في الجيش، وساعده انتقاله إلى بيروت في بناء علاقاتٍ مع الكثير من أصحاب النّفوذ في البلد، ولذا لم يجد أيّة صعوبة في إدخال ابنته في ملاك الدّولة كمدرّسةٍ في إحدى مدارس بيروت الثّانويّة، على بعد مسافةٍ قصيرةٍ من مكان سكنهم، وكان اشترط عليها أنّه لن يساعدَها إلّا إذا سعت جدّيّاً للزّواج، وخفّفت من نشاطاتها في الحزب الشّيوعيّ الّتي تسيء إليها وإلى تطوّرها، وتسيء كذلك إليه كضابط في الجيش. وكانت أمّها لا تنفكُّ تقول لها: «لقد بلغت الثّامنة والعشرين من العمر وآن الأوان أن تتزوجي!».

عرفت أنَّ ما يطلبه منها والداها منطقيٌّ وواقعيّ، وأثار إلحاحهما فيها غرائزَ كانت تحاول دائماً التّهرب منها، فأصبحت تنظر إلى ردفيْها كثمرتيٍّ تفاح تنتظران القطاف، وترى نهديْها كحصانين يستعدّان للقفز في المرآة أمامها، فإلى متى تتهرّب من الزّواج؟ وما الّذي يردعها؟

بدأت سنتها التّدريسيّة في الصّفِّ الأوّل ثانوي برهبةٍ في بادئ الأمر، فتدريس طلاب وطالبات في سنِّ المراهقة يختلف كلّياً عن تدريس الأطفال. ولكنّها تجاوزت الأمر بسرعة، وخصوصاً بمساعدةٍ حثيثةٍ من زميلها، نبيل، أستاذ الفيزياء الّذي كان يكبرها بعدة سنوات، والّذي أبدى اهتماماً لافتاً بها فور دخولها المدرسة.

كان نبيل مثلها مارونيّاً، ما يزيل من أمامهما عقبة الزّواج من شريكٍ ينتمي إلى طائفةٍ أخرى، وتعاطفت معه لرقّته ولشعورها أنّه رجلٌ أهلٌ للثّقة، مع أنّها لم تنجذب إليه جسديّاً، بسبب قصر قامته المائلة إلى البدانة، وما بدأ يظهر عليه من صلع، وإن كانت أُعجبت بعينيْه السوداويْن المكحّلتيْن، وبطريقته الواضحة في الكلام، إذ يصوغ جمله بدقّةٍ لتصلَ إلى مستمعه مفهومةً لا ريب في مغزاها.

قبلتْ مواعدته خارج المدرسة لمزيد من التّعارف. وكانت في لقاءاتهما الأولى متردّدةً ضائعة، فترافقه كأنّها ليست معه، كمن نسي أثناء سيره إلى أين كان يريد الذّهاب. وكانت كلّما أخبرها كم يحبّها وكيف أنّه يغفو في اللّيل على صورتها، تتيقّن أكثر فأكثر أنّها لا تكنُّ له الشّعور نفسه. حتّى إنّها في إحدى اللّيالي، بينما كانا يتمشّيان على كورنيش المنارة في بيروت، وبينما كان مسترسلاً في أحاديثه الغراميّة، كادت، بصراحتها المعهودة، أن تقول له إنَّ ما يصفه من أحاسيسَ لم تشعر به قطّ في حياتها.

ولكن، أخذتها حينها قشعريرةٌ من رأسها إلى أخمص قدميها، فلماذا تذكّرت شارد في تلك اللّحظة بالذّات؟ وتمتمت: «أيُعقل؟»، ووجدت نفسها تحت ثقل حيرةٍ مريبة، انتشلها نبيل منها قائلاً: «لم أسمع جيداً ما قلته للتوّ»، فانتبهت لوجوده قربها وقالت: «لا شيء، كنت أفكّر». عرف أنّها ليست معه وأنها تائهةٌ بفكرها في مكانٍ آخر، ولم يشأ أن يفسد النزهة بالإلحاح على إحراجها.

ولكنّها أدركت مع الوقت أنّه لا بدَّ لها من اتّخاذ القرار، فضغط والديْها عليها كان كبيراً، وها هي تقترب من سنِّ الثّلاثين، الّذي تكرهه كلُّ امرأة، فتخاف العزباء أن يفوتَها قطار الزّواج، وتركض بحثاً عن عريس، وتخاف المتزوّجة أن يفوتَها قطار الحبّ، فتستدرك بحثاً عن عشيق.

وعندما وافقت أخيراً على الزّواج، بدل أن تشعرَ براحة اتّخاذ القرار بعد صراعٍ مرير، وقد بلغت أخيراً مستقرّها، وجدت نفسها مشتّتة الفكر، كمن يسقط في هاويةٍ لا مستقرَّ لها. وبدأ شارد يخطر في مخيّلتها كثيراً في تلك الفترة. ولم يكن يمرُّ يومٌ من دون أن تتذكّرَه، أين أصبح؟ وماذا يفعل؟ وبدأت تشدّها الرّغبة لرؤيته قبل الزّواج.

ولمّا اتّفق الخطيبان وعائلاتهما على موعد الزّواج في النّصف الثّاني من تموز 1974، طلبت من والدها بإصرارٍ إيجاد عائلة أبي نجم مبرّرةً ذلك برغبتها الشّديدة في دعوة أمِّ نجم إلى العرس.

قبل أبو جوزف طلب ابنته، فهو الآخر كان يرغب بلقاء أبي نجم، ذلك الرّجل السّيّئ الذّكر الّذي كانت غزل تصطفيه بالكلام الحلو، دون غيره من الرّجال. وقصد بالفعل منطقة الجنوب، وتوصّل لمعرفة القرية التي انتقلت إليها عائلة أبي نجم، ولكنَّ أمله خاب حين عرف أنّهم انتقلوا حديثاً للعيش في بيروت. وهكذا تمَّ العرس من دون أن تستطيعَ منى رؤية شارد. واتّخذت مسكناً لها في المبنى نفسه الّذي يسكنه أهلها.

زفّت منى خبر حمْلها إلى أهلها في 14 أيلول، الّذي يطابق عيد الصّليب عند مسيحيّي لبنان، وتهطل في هذا اليوم الأمطار غزيرةً حسب ما يعتقد الكثير من اللّبنانيّين. فرحت أمُّ جوزف كثيراً لهذا الحمْل السّريع، فلم يكن قد مضى إلاّ شهران على العرس، إذاً كلُّ شيء على ما يرام، وستصبح جدّةً عمّا قريب.

ولم تلبث منى أن بدأت، في الشّهر نفسه، عامها الثّاني كأستاذةٍ في التّعليم الثّانويّ، في ظلِّ أجواءٍ سياسيّةٍ مشحونةٍ بين الأحزاب السّياسيّة اللّبنانيّة، وكذلك بين بعض هذه الأحزاب والمنظّمات الفلسطينيّة، إلى أن كان شهر نيسان 1975.

لم يكن يوم 13 نيسان 1975 يوماً عادياً بالنّسبة إلى اللّبنانيّين، ففي هذا اليوم حصلت حادثة «بوسطة عين الرّمانة». فبينما كانت حافلةٌ تنقل مقاتلين فلسطينيّين تمرُّ في حيٍّ عين الرّمانة في بيروت، كمن لها مسلحون تابعون لحزب الكتائب اليمينيّ، والّذي تنتمي الغالبيّة السّاحقة من أفراده إلى المذهب المسيحيِّ المارونيّ، وأمطروها بوابلٍ من الرّصاص ما أدى إلى وفاة جميع من كانوا في الحافلة.

وبدأت الحرب الأهليّة اللّبنانيّة الطّاحنة، ولم تلبث أن اتّخذت سريعاً منحىً طائفياً، وانقسم اللّبنانيّون إلى أحزابٍ بغالبيّةٍ مسلمةٍ تحارب مع الفلسطينيّين، وأحزابٍ بغالبيّةٍ مسيحيّةٍ تقاتل ضدّهم. ولم تمضِ أشهرٌ حتّى بدأ الفرز الفئويُّ والطّائفيّ، مُقسِّماً لبنان، وخصوصاً بيروت، إلى مزيجٍ من الكانتونات الحزبيّة والمذهبيّة كدويْلاتٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ بحسب قوّة الفئة المُسيْطِرة. فهذه مِنطقةٌ خاضعةٌ لسلطة تنظيم فتح الفلسطينيّ، وتلك لحزب الكتائب اللّبنانيّ، وأخرى للحزب الشّيوعيِّ وحلفائه من الأحزاب الّذين شكّلوا لاحقاً ما أصبح يسمّى بـ«الحركة الوطنيّة اللّبنانيّة».

وانتقل العدد الأكبر من المسلمين الّذين يقطنون المناطق المسيحيّة إلى كانتوناتهم، وكذلك فعل المسيحيّون، وكانت هذه الهجرة تتمُّ بالتّرغيب والتّرهيب في الاتّجاهيْن. ولم يشذَّ عن هذه القاعدة إلّا بعض الحالات الخاصّة، كعائلة أبي جوزف بحكم موقعه كضابطٍ كبيرٍ في الجيش. وهكذا استطاعت منى البقاء في منزلها. وفي أيار من السّنة نفسها، وضعت مولودها الأوّل وأسمته على اسم جدّها، يوسف، وهو التّرجمة العربية لاسم أخيها جوزف، وأعلمت الجميع أنّها تريد أن يتابعوا مناداتها منى، وليس أمَّ يوسف.

الفصل الخامس

-1-

بعد النّزوح القسريِّ الأوّل لأبي نجم وعائلته من قريته الأصليّة نتيجة المناوشات العسكريّة بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين، ثمَّ نزوحه الثّاني إلى بيروت، وجد نفسه، بعد أشهرٍ من انطلاق الحرب الأهليّة، مضطراً لأن يهجرَ بيته للمرّة الثّالثة، هذه المرّة داخل بيروت، من شطرها الشرقيِّ المسيحيّ، إلى الشّطر الغربيِّ المسلم، وسرعان مابدأ اللّبنانيّون يستعملون مصطلحات بيروت الشرقيّة وبيروت الغربيّة في أحاديثهم.

لم تكن الهجرة بالنّسبة إلى اللّبنانيين بالأمر الصّعب، فهم اعتادوا عليها منذ آلاف السنين، عندما كان الفينيقيّون يستوطنون المنطقة، والّذين بنوا السّفن العملاقة من خشب الأرز وهجر جزءٌ منهم السّاحل الفينيقيَّ ليستوطنَ مناطقَ جديدة، من قرطاجة إلى جزيرة مالطا، ومع الزّمن لم يتوقّفوا عن الهجرة الّتي أصبحت متجذّرة في جيناتهم الوراثيّة، حتّى أصبح عدد ذوي الأصول اللّبنانيّة في الخارج يفوق بأضعافٍ مضاعفةٍ عدد اللّبنانيّين في الوطن.

ولكنّها كانت هجرة تلقائيّةً مغامرةً بهدف البحث عن مصادر رزقٍ جديدة. أمّا أثناء الحرب الأهليّة، فقد أصبحت نزوحاً، من مِنطقةٍ إلى أخرى، أو في المِنطقة نفسها من حيٍّ إلى حيّ، هرباً من الموت وراحوا يفقدون خلالها أرزاقهم وآمالهم بالمستقبل. وكان لنزوح أبي نجم الجديد إلى بيروت الغربيّة في تموز 1975، كبير الأثر عليه، إذ شعر أنّ القدر لا ينفكُّ يعانده. ولكنّ هذا لم يردعه عن المتابعة في إهمال عائلته، مُوزّعاً وقته بين النّشاطات الحزبيّة والتّدريس، حتّى إنّه فوجئ حين علم أنَّ ابنه البكر المدلّل عنده، نجم، قد ترك المدرسة منذ شهورٍ وبدأ يعمل في محل ميكانيك سيارات. لكنّه لم يتأثّر كثيراً بالخبر، بل، ببساطة، وضع اللّوم على زوجته المهملة.

سكنوا في زقاق البلاط، ليس بعيداً عن شقّة غيفارا، ما سهّل لقاءات أمِّ نجم الغراميّة، الّتي وصلت بها إلى حدود الإدمان، مع أنّها بدأت تلمس مللاً من قبله، كما هو حال أكثر الرّجال بعد أن تطولَ العلاقة. وصار العشيق يؤجّل اللّقاءات من حين إلى آخر.

بعد أسابيعَ، ذهب شارد مع والده ليتسجّلَ في الثّانويّة الجديدة الّتي سوف ينتقل إليها. وأحسَّ بالراحة فور دخوله الباحة الّتي تتوسّطها شجرة زيتونٍ معمّرةٍ ذكّرته بأشجار الزّيتون في ضيعته، وهو الّذي كان يعتقد أنَّ الزّيتون لا ينبت إلّا في الهضاب اللّبنانيّة. كانت أغصان الشّجرة قد تدلّت متعبةً حتّى كاد بعضها يلامس الأرض، تنوء بحملها من الحبّات الخضر التي بدأ لون بعضها يميل إلى السّواد. لم يجد أبو نجم صعوبةً في تسجيل ابنه، على الرّغم من أنّهم اقتربوا من منتصف شهر تشرين، والتّسجيل انتهى منذ فترة. فالدّولة اللّبنانية كانت قد سمحت، استثنائيّاً بسبب ظروف الحرب، بتمديد التّسجيل حتّى بداية السّنة الدّراسيّة.

وفي اليوم الأوّل من العام الدّراسيِّ الّذي بدأ متأخّراً هذه السّنة بسبب الحرب، لبس شارد ثيابه الجديدة وحمل حقيبته وقصد مدرسته سيراً على الأقدام. وفور دخوله باحتها، أحسَّ أنَّ الجوَّ العام لم يعد كما اعتاده في السّابق. فالتّوتر بادٍ على التّلاميذ. وكان واضحاً أنَّ الدّرس أصبح، بالنّسبة إلى الكثيرين منهم، في الدّرجة الثّانية بعد السّياسة. فهذا لا يحمل حقيبةً مدرسيّة، وذاك يلبس البنطلون الكاكي العسكريّ، وهناك تَجَمَّعَ عددٌ من التّلاميذ يمجّدون زعيماً ويشتمون آخر ويتّهمونه بالخيانة، لمجرّد آرائه التي لا تعجبهم.

دخل شارد الصّفَّ وانزوى في مؤخّر الغرفة، منتظراً دخول الأستاذ. وليتحاشى الدّخول في المهاترات السّياسيّة الصّاخبة بين رفاقه، وضع كوعيْه على الطّاولة أمامه وأغمض عينيْه بكفيْه، وفيما هو مسترسل في شروده لمح معلّمة تعبر، بدت له كأنها تشبه منى، فسرح مُسترجعاً لقاءاته معها، كأنّه يشاهد فيلماً سينمائيّاً قديماً لشارلي شابلن. وتوقّف فجأةً عند لقائهما الأخير، حين سألته إن كان سيشتاق إليها، كما لو أنّه النّهاية الحزينة للفيلم، فانفرجت شفتاه عن بسمة فرحٍ ولوعة.

بعد انتهاء حصّتيِّ الصباح، ثم الفرصة الأولى، عاد التلاميذ إلى الصّفِّ بين هرجٍ ومرج، وما هي إلا لحظاتٍ حتى خفّت جلبة التّلاميذ، وسمع الفتيات يهمسنَ باقتراب المعلّمة، فرنا بنظره نحو الباب. وما لبثت أن دخلت، ولكنّه لم يستطع رؤيتها بوضوح، فالنّور القويُّ الآتي من خلفها جعلها تظهر له كشبحٍ قادمٍ من خلف الضّباب. تقدّمت ببطءٍ منتصبةً في وسط الصّفّ، عندها استطاع تبيانها، ولم يصدّق عينيْه، ففركهما ثمَّ فتّحهما بسرعة، وقرّب رأسه ما استطاع إلى الأمام. إنّها منى من دون أدنى شكّ، بشحمها ولحمها. أمّا هي فنظرتْ إلى تلاميذها

الّذين يفوق عددهم الثّلاثين، كأنّهم جسمٌ واحد، كأنّها تراهم كلّهم ولا ترى أحداً منهم، فلم تلمح شارداً بينهم.

عرّفت عن نفسها، ثمَّ بدأت تشرح بإيجاز ما سوف يدرسونه في مادة الأدب الفرنسيِّ لهذه السّنة. وبينما كانت تتكلّم، بدأت تدريجاً تنظر في عيون تلاميذها منتقلةً من واحدٍ إلى آخر، حتّى وصلت إلى الزّاوية حيث يقبع شارد. وكانت كلّما استدارت برأسها صوبه درجةً ازداد خفقان قلبه أضعافاً، ولمّا التقت عيناهما أحسَّ بقلبه يقفز من مكانه، ولكنّها أشاحت بوجهها عنه. فالسّنوات السّتُّ الّتي مرّت غيّرته كثيراً، وعتمة الزّاوية لم تكن تسمح لها بالرؤية الواضحة.

لكنّها بعد ثوانٍ، رجعت إليه ونظرت بعينيْن منكمشتيْن جمّعت صوبهما بشكلٍ دائريٍّ ما استطاعت من الخطوط المتجعّدة، فبدتا لشارد كنجمتيْن برّاقتيْن. ولمّا رفعت حاجبيْها إلى الأعلى مندهشةً، اطمأنّ قلبه إلى أنّها عرفته. وشيئاً فشيئاً بدأ الهدوء يحلُّ في قلبه بدل الاضطراب. واحتلَّ الشّوق والهُيام في نظرته مكان الدّهشة.

وتقصّد بعد دقائقَ، أن يقفَ ويسألَها عن الموضوع الأوّل الّذي سوف يبدأون به منهجهم الدّراسيّ، بصوته الّذي أصبح أكثر خشونة، إنّما من دون أن يتغيّرَ كثيراً. وبلغته القويّة الّتي تعهدها، عندها، تأكدت منه بشكلٍ أوضح. وعندما نفض رأسه يمنةً ويسرة ليبعدَ شعره الأملس البنيَّ الطّويل عن وجهه، ظهرت لها عيناه الكبيرتان، وقد اختفى الحجوظ الطّفيف الّذي كان يعلوهما.

مرّت السّاعة بسرعةٍ ولهفةٍ على الاثنين، وكانتْ ترميه، من حين إلى آخر، بنظرة دهشةٍ واشتياق، قدر ما استطاعت أن تفعلَ من دون أن تُلفتَ الانتباه. وكان هو يبثّها نظرةً حالمةً أينما تحرّكت.

لم تنتبه إلّا ومدرّس الرّياضيّات يفتح الباب مذكّراً إياها بانتهاء حصتها. وبينما كانتْ تلملم حاجاتها، اقترب زميلها منها وعرّف عن نفسه، متبادلاً معها الأحاديث الرّوتينيّة المعتادة، وكانت تجيبه بشكلٍ آليٍّ من دون تفكير، وتسترق النّظر بطرف عينها في اتّجاه شارد. ومن وقت إلى آخر تنظر إليه مباشرةً بابتسامةٍ ناعمةٍ تجرفهما كالتّيار إلى عمق المجهول. ثمَّ أعطته إشارةً بحركةٍ دائريّةٍ من إصبعها تعني أنّها سوف تراه لاحقاً وخرجت.

ما هذه الصّدفة الرّائعة الّتي اقتحمت حياة شارد من جديد؟ انتابه إحساس أنَّ لقاءه بها هذه المرّة سوف يقلب حياته رأساً على عقب. ولم تعد نظراته إليها هي نفسها النّظرات السّابقة الوديعة والطّفولية، بل كانت سهاماً مغلفةً بالشّوق والرّغبة. فقد عرّاها من ثيابها واشتهاها كما يشتهي رجلٌ عروسه في ليلة الدّخلة.

عرف أنّها سوف تبحث عنه في الفرصة بين الحصص، فوقف أبعد ما يستطيع في طرف الملعب، ينظر إلى شجرة الزّيتون أمامه، ولم يعد يراها منهكةً من ثقل أغصانها، إنّما حبلى بثمارها، كأنثى على وشك الولادة. ولم ينتبه إلّا ويدان تغمضان عينيْه من الخلف، فقال بلهفةٍ وتهوّرٍ «آنسة منى!»، واستدار إلى الوراء ليتفاجأ بصديقه كريم يضحك من دون توقّف. احتضن كريم شارداً بقوةٍ ثمَّ أمسكه من كتفيْه وقال بعبسةٍ متسائلة: «من تكون منى؟ أهي مدرّستك الّتي أخبرتني عنها؟ هل هي أيضاً هنا؟ معك حق في ما كنتَ تقول، الحياة كلّها صدفة!»، وعاد إلى الضحك.

دار شارد بعينيْه في الملعب، ثمَّ باتّجاه مبنى المدرسة، فلم يجد أثراً لمنى، وحزر كريم الأمر فجذبه من ساعده جانباً، ومن دون مقدّمات،

بدأ يقصُّ عليه ما جرى معه منذ افترقا إلى حين انتقاله وعائلته للسّكن في بيروت، وأشار بإصبعه إلى المبنى المجاور حيث اشترى والده شقةً بعدما باع كلَّ مايمتلكه من أراضٍ في القرية، وانتقلا من حديثٍ إلى آخر بسرعةٍ كمن يسرق الوقت، ثمَّ توقّف كريم وأمسك شارداً من كتفيْه وقال:

- لقد كبرتَ في هذه السّنة الّتي لم أرك فيها، من يراك يخالك رجلاً.

- وأنت كبرت كذلك يا كريم، يبدو أنَّ المرء لا يلاحظ أثر الزّمن على الآخرين إلّا حين يفترق عنهم، فكيف الحال ونحن في فترة النموّ.

أشار كريم بإصبعه إلى نافذة في الطّابق الثالث من مبنى المدرسة، حيث كانت منى تلوّح بيدها المنخفضة على مستوى الصدر، وتنظر إلى الخلف بحذر ما يوحي أنّها ليست وحدها ولا تريد أن تلفتَ الانتباه، فلوّح شارد بيده بحذرٍ أيضاً، واختفت.

نظر كريم إلى شارد مُطوَّلاً، ثمَّ هزّ رأسه بهدوءٍ صعوداً ونزولاً وقال:

- أنت تحبّها فعلاً، كنت أظنُّ الأمر سيمرُّ بسرعة وتنسى، ولكن، ها هي صدفتك تنقضُّ عليك كنسرٍ على فريسته، فتأخذك من دون أن تستطيعَ المقاومة.

اقترب شارد أكثر من كريم وقال بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

- أجل، إنّ حبّي لها حقيقيّ، وأتمنّى لو تصبح لي يوماً ما، رغم أنَّ أمّي أخبرتني أنّها تزوّجت.

- معك حق، فقد لاحظت المحبس في إصبعها ....

وفكّر قليلاً ثم تابع:

- صح، في إصبع يدها اليسرى، هي فعلاً متزوجة.

- من أين تعرف هذه الأشياء؟

- ما بالك يا شارد؟ أنت تتكلم مع كريم! وماذا تقصد بعبارة «تصبح لكَ؟» أتريد أن تتزوّجَها؟

- إذا استطعتْ.

قهقه كريم قائلاً:

- أنت مجنونٌ شرعيّ!

-2-

استعاد أبو نجم نغمة الفرح من جديد، فقد فاجأته غزل حين اتصلت تخبره أنّها انتقلت منذ أيلول 1974 للعيش في العاصمة، واتّفقا على اللّقاء في مقهى باريس في شارع الحمراء.

دخل أبو نجم المقهى وتوجّه صوب الطّاولة المظلمة المحميَّة بعمودٍ كبيرٍ من عيون النّاس الحشريّة، وهي الطّاولة نفسها الّتي كان ينعت من يجلس إليها بالأهبل، وجلس كالمُخبر يتلفّت يُسرةً فيُمنة، وفتح جريدته على مصراعيْها، مثبّتاً نظره على باب المقهى. أخفى وجهه بالكامل حين دخل أحد أصدقائه، ولمّا أراد استعادة وضعه المتلصّص، تفاجأ بغزل تقف أمامه متبسّمةً وقالت على الفور:

- أهي طريقةٌ جديدة للقراءة؟

انتبه أنّه يحمل الجريدة بالمقلوب، فارتبك وطواها بسرعةٍ ووضعها أمامه على الطّاولة، بينما بقيت منتصبةً أمامه تراقبه واثقة من سطوتها عليه، كهرّةٍ تداعب فأرةً لامجال لها للهرب. كانت تلبس تنورةً فضفاضةً تصل إلى ركبتيْها، مزركشةً بالزّهور من كلِّ الألوان، وبلوزةً زرقاءَ أرادتها ضيقّة، من دون حمّالة صدر، وهي لم تلبسها يوماً، فارتسم نهداها الكبيران بوضوح، بحلمتيْهما البارزتيْن كحبتيِّ كرز تبحثان عن مُشتهٍ. بلع ريقه غير قادرٍ على الكلام، ولم ترحمه، فانحنت واضعةً كوعها على الطّاولة وهمست في أذنه:

- أعرف أنك تنظر إلى حلمتيَّ! أنتَ تعرف أنّي لا ألبس حمّالة صدر أبداً.

- أصيلة، لا تغيّرين عاداتكِ.

أصدرت ضحكةً عالية، ما جعله يضع أصابعه على فمه ويشير إلى الرّواد الّذين يعجُّ بهم المقهى. فوضعت يدها على فمها لتمنعَ نفسها من مواصلة الضّحك، واعتذرت:

- عفواً، تعرفُ أنّني لا أستطيع مقاومة كلِّ ما يختص باللّذة.

جلست قبالته ورمته بنظرةٍ ثاقبةٍ بعينيْن لامعتيْن مبتسمتيْن، وعرفت أنّها أصابته حيث أرادت، ولتتأكّد، خلعت حذاءها بخفّةٍ، وزحفت برجلها العارية بين فخذيْه وقبل أن تصلَ إلى مبتغاها، أرجع كرسيَّه وقال متلعثماً كمن يحدّث نفسه:

- معك حق، فالمرأة الشّبقة تحبُّ كلَّ ما في الحياة من ملذّات، وتكره كلَّ ما فيها من حزن.

انتفضت قائلة:

- هل تنعتني بالشّبقة؟ لم يقلها لي أحد قبلاً، وهكذا، بكلِّ بساطة.

- أتشعرين بالغبن؟

سكن روعها بسرعة، وأجابت:

- ليس كثيراً، وربّما بالعكس، فقد تكون هذه نعمةً أنعمها عليَّ الرّب. على كلِّ حال، أريد أن أخبرَك أنّني لم آتِ وحيدة، فأختي معي وذهبت مع ابني لتشتريَ له ثياباً وسوف تلاقيني هنا.

وما كادت تكمل كلامها، حتّى دخلت فتاةٌ عشرينيّةٌ تجرُّ من يدها طفلاً، لوّحت بيدها واتّجهت صوبهما مباشرة، فطمأنت غزل أبا نجم،

موشوشةً إيّاه، أنَّ أختها تعرف كلَّ شيء عنها ولا داعي لأن يقلق.

صُدِم أبو نجم لرؤية قوام الأخت وهي تقترب. قوامٌ أشبه بالأسطوانة المفلطحة فلا يُستبان الحدُّ الفاصل بين الخصر والوركيْن. ولمّا أصبحت على بعد خطواتٍ منه صدمه وجهها أكثر، بعينيْن كثقبيِّ الإبرة، لا تُريان بوضوحٍ خلف الزّجاج السّميك لنظّارتها القابعة براحةٍ على أنفها الطّويل، وعندما قارن بين صدرها الممسوح وصدر غزل العارم، رأى الأختيْن كشاهدٍ على ظلم الخَلق.

وبينما هو غارقٌ في تأمّلاته، لم ينتبه للطّفل يقترب منه، مدفوعاً من أمّه، ومادّاً يده الصّغيرة مصافحاً. ولمّا نظر إليه هزّته صدمةٌ أكبر، إنّما من نوعٍ آخر، لا تمتُّ إلى الرّأفة بصلة، بل هي مزيجٌ من الخوف والفرح والضّياع. فقد رأى فيه ابنه نجم في عمره، فقبّله بحنوٍّ بينما غزل تراقبهما بعين الرّضا وقالت:

– لقد أكمل سنته السّادسة منذ شهر، وهو شديد الذّكاء، كشارد، وليس كنجم.

وعادت فأطلقت ضحكتها الرّنانة، ثمَّ اقتربت ووشوشته بجملةٍ فهم محتواها من دون أن يسمعَ كلماتها، فأنفاسها الحارّة في أذنه كان لها فعل الجمر والخمر في رأسه، واستفزّت حواسّه لدرجة أنّه نسي أنه موجود في المقهى بين النّاس.

خرجوا معاً متّجهين إلى آخر شارع الحمراء. هناك أشارت له أن يلحقَ بها. واتّجهت صوب حيٍّ كراكاس حيث تسكن، بينما أختها اتّجهت مع ابنها إلى الجهة المعاكسة، سار خلفها يتبعها كالكلب يمشي وراء صاحبه؛ دخل شقّتها مُطمئِّناً، إذ إنّها كانت قد أخبرته أنَّ زوجها في الثّكنة في شمال لبنان، ولكنّه كان قلقاً كون هذا اللّقاء يتمُّ هذه المرّة في

بيتها، وهذه مبالغةٌ في تجاوز الأعراف الأخلاقية والاجتماعية. أمّا هي فاجتاحته فور دخوله ولم تقبل أن يأخذَها إلّا في فراش زوجها غير آبهةٍ بمعاندته الخجولة.

ولمّا غادر المبنى رأى نظرات الغيرة، لا الحسد، في عينيِّ النّاطور السّودانيِّ الفارع الطّول.

-3-

مرَّ يومان لم يستطع شارد فيهما أن يرى منى، فالمعلّمون والإدارة منشغلون كخلية النّحل في ترتيب المناهج، ولمّا دخلت الصّفَّ في اليوم الثّالث، شرحت الدّرس كأنّها تستعجل انتهاءه. وعندما رنَّ الجرس مؤذناً بالفرصة، انتظرت مرور شارد من أمامها، فاستوقفته طالبةً منه البقاء. ووقفت، يداها على خصريْها، تنتظر خروج التّلاميذ حتّى آخرهم، ثمَّ جرّته من يده إلى الزّاوية حيث مقعده وجلست قربه، مراقبةً وجهه لثوانٍ قبل أن تبدأ بالحديث.

تركته طفلاً وها هو من جديد شاباً أمامها، صحيحٌ أنّها كانت تشعر في قرارة نفسها أنّها ستلتقيَه حتماً في يومٍ من الأيام، ولكنّها فوجئت، إذ إنّها لم تنتظر أن تراه على شكل هذا الشابِّ الطّويل النّحيف. نظرت إلى شعره الطّويل النّاعم الأملس يغطّي جبهته كغرّة، شقّتها بسبابتيْها إلى نصفيْن، فظهرت عيناه بصفاء العسل تنظران إليها بابتسامة العاشق الولهان، فعلتْ وجنتيْها حمرة الخجل.

- لقد كبرْتَ وصرتَ شاباً يا شارد، تركتك طفلاً وها أنت تزيدني طولاً.

- نعم مادموازيل، فقد مضتْ ستُّ سنوات وأكثر.

- لا تزال تناديني مادموازيل؟ مدام، يا شارد! أصبح عندي صبيٌّ عمره ستة أشهر.

خبر زواجها لم يفاجئه فقد كان على علم بذلك، لكن مع ذلك،

أحسّ برجفة. لكن أن تُنجبَ ولداً وبهذه السّرعة أحبطه، خصوصاً وأنّه صبيّ. أحسَّ بالغيرة، ولمّا رأت ارتباكه، مرّرت يدها على شعره وقالت:

– كنت أريد أن أسمّيَه شارداً، ولكنّني لم أشأ أن أخذلَ والدي الّذي كان قد لمّح مراراً عن وجوب أن يحملَ الحفيد البكر في العائلة اسم جدّه أو جدّته. ولهذا سمّيته يوسف، ولكنّني أناديه من حين إلى آخر شارداً، حين نكون وحيديْن.

وتبسّمت قبل أن تستطرد:

– لست أمزح، هذه حقيقة، ولكن أريدك أن تتابعَ مناداتي منى، وليس أمَّ يوسف.

أخذ نفساً عميقاً بفرحٍ وحبورٍ لم يستطع أن يخفيَهما. فهي أيضاً لم تنسه، ولكن هل استمرَّ يسكن قلبها منذ افترقا كما سكنتْ قلبه؟ وهل استحوذ على تفكيرها في لحظات وحدتها كما استحوذتْ على تفكيره؟ وكعاشقيْن التقيا بعد طول غياب، تحدّثا من دون توقفٍ في أمورٍ كثيرة. ولم ينتبها إلّا عندما رنَّ الجرس مؤذناً بانتهاء الفرصة، فوقفت وقالت له إنّها تسكن قرب المدرسة، وإنّها ستكون سعيدةً إذا زارها من حين إلى آخر في بيتها بعد المدرسة، ثمَّ اقتربت منه وقبّلته على خده وخرجت.

لمّا دخل زوج منى إلى البيت، لم تسأله كيف حال والدته المريضة الّتي كان يذهبُ لزيارتها يوميّاً، بل انزعجت من منظر كرشه الّذي أصبح متدلّياً، ولم يكن يزعجها في السّابق هذا التّغيير، كما أزعجتها رائحة العرق الّتي تفوح منه. فاستعجلته الدّخول للاستحمام بسرعة، مع أنّها ليست بحاجة لطلب هذا منه، فهو معتاد على الاستحمام فور دخوله إلى البيت. ونهرته حين اقترب منها في المساء، وأوتْ إلى فراشها باكراً على غير عادتها، وتمدّدت على ظهرها شاخصةً بنظرها إلى السّقف المظلم.

ما الّذي يحصل معها؟ منذ رؤيتها شارداً وهي كالتّائهة في دوامةٍ لا مخرج منها. فلطالما تمنّت لو يجمعها القدر به من جديد. لكن الآن وقد التقته، فها هي تجد نفسها مبتهجة، إنّما في الوقت نفسه خائفة، فكرت، ممَّ هي خائفة؟

«لا،لا، هذا غير معقول! إلى أين يأخذني تفكيري؟ أنا أكبره بمرتيْن. هو لمّا يزل في الخامسة عشرة من عمره، وأنا متزوّجةٌ وعندي طفل، وأنا مسيحيّة مؤمنة بكلّ جوارحي، بينما هو مسلم، والحرب، آهٍ منها».

كانت الأسئلة تتشابك في رأسها بقلقٍ مضنٍ، وقرّرت أنه عليها أن تنسى الأمر، وغفت، ولكنّها استفاقت في الصّباح، وذهبت إلى المدرسة لا تفكّر إلّا في أمرٍ واحد: رؤيته ومحادثته قدر ما تسمح لها الظّروف. وكانت كلّما هبط اللّيل من جديد بثقله عليها، تعُود إلى أفكارها فيستحوذ عليها الخوف من انجرافها المتمادي في تقاربها اليوميِّ معه، ويتملّكها إحساسٌ بالنّدم، فترجع إلى قرارها بالابتعاد عن تلميذها، ولكنّها تعود للبحث عنه في الصّباح. أصبحت كالمدمن على لعب القمار، يكرهه ويلعنه بعد اللعب، ثمَّ يركض وراءه حالما تُتاح الفرصة. وليلةً بعد ليلة، بدأت شمعة النّدم تنوص إلى أن انطفأت نهائيّاً، وأصبح شارد شمعتها. ومرَّتْ سنة.

كانت كالحلم بالنّسبة إلى كليْهما، كانا يلتقيان خلالها مرّةً أو أكثر في الأسبوع، أكثر الأحيان على الغداء في بيتها، وأحياناً يخرجان معاً يتمشّيان في شوارع بيروت بقدر ما تسمح لهما حرب الشّوارع في أزقّة المدينة. ومن حينٍ إلى آخر كانت تأخذه معها في سيّارتها التي كانت اشترتها مؤخّراً، فيجوبان الأحياء البعيدة عن مرمى القنّاصة المنتشرين على سطوح الأبنية العالية والمشرفة، يطلقون النّار على المارّة دونما تفرقة.

لم يبقَ شيء إلّا تحدّثا به، ومع ذلك كانا يجدان دائماً مواضيعَ جديدةً تنساب في حواراتهما بعفويّة، وما عاد فارق العمر بينهما ليشكّلَ عائقاً لأيٍّ منهما، فقد كان شغف اللّقاءات والثّقافة العالية لشارد يمحوان كلَّ فارقٍ حالما يلتقيان. وأصبح الحبُّ الّذي يجمعهما حقيقةً واضحةً بالكاد يخفيانها.

خلال الصّيف خفّت لقاءاتهما من دون أن تتوقّف، خصوصاً وأنَّ ابنها أصبح شديد التّعلّق بها منذ أكمل السّنة الأولى من عمره، ولما بدأت السّنة الدراسيّة الجديدة، رجعت لقاءاتهما إلى كثافتها المعهودة. فقد كانت تترك ابنها عند أهلها أثناء الدّوام،وتتفرّغ لشارد.

وهكذا دخل شاردٌ في الصّف الثّالث ثانوي، واثقاً من نفسه، فخوراً بحبّه، ولا يزال على ثباتٍ في تفوّقه الدّراسيِّ وفي وعيه ووضوح تفكيره. لم يحمل السلاح مثل أترابه، بل كان يكره هذه الحرب المستمرّة الّتي تخطف من النّاس أعزّاءهم وتدمّر البلد.

وشيئاً فشيئاً، تبلور عنده قرار الاعتراف لها بحبّه. ولكنّه كان كلّما يذهب للقائها مُسلِّحاً نفسه بالجمل اللّازمة، مُردِّداً إيّاها لمراتٍ في رأسه كمن يحفظ أحد دروسه، يجدها قد تبخّرت من رأسه حالما ينظر إلى وجهها، ويعود إلى تردّده. فماذا لو كانت لا تكنُّ له الشّعور نفسه؟ وماذا لو أجابته بأنّها تحبّه كأخيها الصّغير؟ أو أنّبته للبوح بما لا يجوز البوح به لامرأةٍ متزوّجة؟ ثمَّ هو، أليس عليه أن يفكّرَ بما قد يجرّه أمرٌ كهذا عليها؟

وما إن يفترقا حتى يبدأ بتقريع نفسه، «كم أنا جبان!»، كان يردّد في سرّه. وبدأ يكره هذا الضّعف في شخصيّته. فهو متيقّنٌ من أنّها تحبّه، كلّ حركاتها تدلُّ على ذلك، وتتعامل معه منذ فترةٍ كامرأةٍ تعامل حبيبها.

فكلماتها ونظراتها وخجلها ولهفتها عند اللّقاء واضحة. وأيضاً، ما معنى أن تخرجَ معه بشكلٍ شبه يوميٍّ غير مكترثةٍ بشيء؟ حتّى إنّها أصبحت أخيراً تتجنّب الكلام عن زوجها وعائلتها. إنّها تحبّه من دون شكّ.

إلى أن جاء ذلك المساء المشمس من كانون الثّاني 1977، وكان قد مضى عليهما عدّة أيام لم يلتقيا فيها إلّا في المدرسة. كانا يجلسان وحيديْن في المقهى البحريِّ الّذي اعتادا أن يشربا فيه الشّاي. وبعد مضيٍّ بعض الوقت، شعرت أنّه لا يشارك كثيراً في الحديث. كان كالحاضر الغائب، ما جعلها تستفيض بالكلام علّها تبعد عنه شبح الحزن. ما كانت تعلم أنّه كان يستجمع الشّجاعة ليبوحَ لها بمكنون صدره.

وبينما كانت مسترسلةً في الموضوع المحبّب إلى قلبه عن كينونة الانسان وعن الصدفة ودورها في الحياة، كان ينظر إليها بغرابةٍ حيّرتها، هل هو مندمجٌ إلى هذا الحدِّ بما تقوله، أم لا يزال سارحاً في موضوعٍ يؤرّقه، إلى أن قال لها فجأةً من دون أيّة مقدّمة:

- أنا أحبّك يا منى!

فاجأته جرأته، وخاف من ردّة فعلها، ولكنّها أكملت حديثها لثوانٍ طويلة، وكأنّها لم تعِ ما قاله؛ لم تستطع في البداية أن تُمَيّزَ إن كان الّذي سمعته حقيقةً أم خيالاً. وفجأة، توقّفت عن الكلام، وثبّتت عينيْها بلا حركة، فاتحةً شفتيْها، كأنّها أصبحت جماداً، ثمَّ ما لبثت أن زفرت ما احتبست من هواءٍ في صدرها، كمن يعود إلى الحياة، وسألت:

- ماذا قلت؟

شعر بالنّدم، وتمنّى في لحظةٍ لو أنَّ الأرض تنشقُّ وتبتلعه، ولكنّه عاد فتماسك، فهل يخاف الغريق من البلل؟[11] وقال:

- قلتُ ما سمعتِه!

- أعِدْهُ لي، لم أفهم جيداً!

سكت لبرهةٍ يبحث عن مخرجٍ للورطة الّتي وضع نفسه فيها. لا بدَّ أنّه كان يتوهّم حبّها، ولكنّه لا يستطيع التّراجع الآن. ثم عادت فسألته بصوتٍ خفيف مبحوح:

- تحبّني كيف؟

ولمّا أمسكت بحنانٍ يده المرتجفة، استعاد رباطة جأشه ورفع بصره إلى عينيْها الذّابلتيْن كوردةٍ خجلى، فلمعت عيناه فرحاً وقال:

- لا أتوقف عن التّفكير بك، أحبّك كما يحبُّ كلُّ رجلٍ امرأة، أحبّك منذ كنت طفلاً.

رنتْ إليه بصمت، راسمةً بإصبعها دوائر ناعمة على سطح كفّه، برقّةٍ جعلتْه يهدأ كلياً، ثمَّ وضعت يديْها متشابكتيْن على الطّاولة وخفّضت نظرها تشاهد اضطراب أصابعها، وغرقت في تأمّلٍ عميق.

«ها هي اللّحظة أتت، وكانت لا محالة آتية، هل أعترف له أنا أيضاً بحبّي؟ وماذا عن الوفاء الزّوجيِّ الّذي رباني أهلي عليه؟ وكم أن هذا سوف يغضب الرّبّ؟ وكيف سأواجه أبونا في الكنيسة صباح الأحد؟».

وتذكّرت في هذه اللحظة ما كانت تردّده أمّها عن قدسيّة الزواج عند الطائفة الكاثوليكيّة المارونيّة، فغطّت وجهها بكفّيْها مُدلّكةً جبهتها بأصابعها النّاعمة، وبعد برهةٍ استعادت يده وقالت:

- لا أعرف بماذا أجيبك، أرى أنّه من الأفضل أن نتابعَ هذا الحديث لاحقاً؟

فهزّ رأسه موافقاً، ثم بعد فترة صمت استعادا حواراتهما القديمة بشغفٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. وحين افترقا ترك في يدها ورقةً طالباً منها أن تقرأها لاحقاً وافترقا.

-4-

تكرّس انقسام بيروت بشكلٍ حاسمٍ إلى منطقتيْن، شرقيّةٍ مسيحيّةٍ وغربيّةٍ مسلمة، تفصلهما ما أصبح يسمّى بخطوط التّماس، وانتشرت الحواجز من كلا الطّرفين على الشّوارع الرّئيسة، تدقّق في هوية العابرين من جهةٍ إلى أخرى. وأصبح شائعاً الخطف والتّعذيب والقتل لمجرّد الانتماء إلى هذه الطّائفة أو تلك. وتراجعت المبادئ العقائديّة في العراك الدّائر أمام أمراء الدِّين.

وخلال هاتيْن السّنتيْن، ترقّى غيفارا في مسؤولياته الحزبيّة، ثمَّ أصبح في بداية العام 1977ممثّل الحزب الشّيوعيِّ في التّجمّع السّياسيِّ لأحزاب «الحركة الوطنيّة» في منطقة بيروت، ذات القاعدة الشعبيّة المسلمة بأغلبيتها، والّذي كان يضمّ، فضلاً عن حزبه، أحزاباً عديدةً أخرى كالحزب الاشتراكيِّ ومنظمة العمل الشّيوعيِّ والحزب السّوريِّ القوميِّ وغيرها، المواجهة لتكتّل أحزاب «الجبهة اللبنانيّة» ونواتها الأساس حزب الكتائب اللّبنانيِّ ذو القاعدة الشّعبيّة المسيحيّة.

وتحوّل غيفارا الهادئ الناعم إلى شخصٍ يهابه النّاس، خوفاً واحتراماً في آنٍ واحدة، ككلِّ الفُتوّات السّياسيّين والعسكريّين في الحرب، كما الحال في كلِّ حرب.

وأصبح نجماً مرغوباً من الفتيات، ما فاقم الإثارة والغيرة عند أمِّ نجم. فكانت تغزو شقّته كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتقتحم جسده بعنفٍ ورغبةٍ يزدادان مرّةً بعد أخرى. ولم يهدأ روعها إلّا بعد أن أقنعته

بالزّواج من ابنة خالتها، التي كانت أقلّ منها جمالاً بكثير. فهي بذلك تتفوّق عليها كامرأة، وتستطيع دخول بيتها أو لقاء غيفارا من دون مشكلة نظراً لصلة القرابة.

لقد عرفت أمّ نجم عرفت كيف تغريه بالزّواج منها، إذ كانت تدرك شغفه بنهد المرأة، ولطالما شعرت بالانزعاج حين كان يعبث بثدييْها ويخاطبهما ناسيّاً وجودها، كأنّه يتعامل معهما وليس مع المرأة الّتي تحملهما، ككائنيْن منفصليْن عنها. كانت على يقينٍ أنّه سينكسر أمام نهديِّ ابنة خالتها.

كانت تعرف بالخبرة، مزاجه وحبّة للمرأة المائلة إلى السّمنة، وتعرف أن تمنّع ابنة خالتها التي عرّفته إليها، سيدفعه للتمسّك بها، في حين ستعرف هي كيف تدير اللعبة، بحيث تمتنع ابنة خالتها عن أي علاقة جنسيّة معه من دون زواج. كانت تعرف بساطة ابنة خالتها، وبالتالي كانت متأكّدةً من أنَّ زواجه لن يدفعَه إلى إهمالها، فحالما يحصل الرّجل على ما يبحث عنه في جسد المرأة، سوف يملّه سريعاً ويبحث عن هوسه البديل.

طلبت من ابنة خالتها أن تذهب إلى لقاء التّعارف المتّفق عليه لابسةً قميصاً ضيقاً مفتوحاً في الأعلى. وبالفعل، ما إن رأى غيفارا البالونيْن يتأرجحان تحت القميص الشّفّاف، حتّى سال لعابه. وأمام تمنّع ابنة الخالة مرّة بعد مرّة، وبعد أن سمحت له بلمس نهديها للحظات، وافق على الزّواج حالماً بتلك اللّيلة الّتي سوف يغوص فيها في هاتيْن البحيرتيْن العذبتيْن، ولم يرَ أيّاً من التّفاصيل الأخرى في وجهها وجسدها.

ولكن، تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن. فقد أصبح غيفارا يتحاشى الاحتكاك بنهديِّ أمِّ نجم، فأيْن هما من المخدّتيْن الرّخوتيْن اللّتين يلقي

برأسه عليهما كلَّ ليلة. وطال تعلّقه بزوجته، حتّى إنّه بدأ يشعر بالإرباك من علاقته بأمِّ نجم، ويلوم نفسه على خيانة زوجته، وكذلك على طعن أبي نجم في الظّهر. ولمّا تقصّد أن يسألَها مُستفزّاً إن كانت تشعر بالنّدم على خيانة زوجها، صدمته إجابتها الهادئة: «بل أشعر بالنّدم، لأنّي تأخّرت كثيراً على خيانته»، فتأكّد له ما كان يعتقد به من أنَّ أكثر الرّجال يندمون نسبيّاً على خيانة زوجاتهم، أو على الأقل يشعرون بالأسف، أمّا المرأة فحين تقْدم على الأمر فلن يبقى في ذاكرتها إلّا الرّضا عن النّفس والرّغبة في التّكرار.

بعد زواجه، أصبح مركز الحزب وكر لقاءاتهما الغراميّة. وبدأت تشعر باستخفافه بها يزداد يوماً بعد يوم. وصار يتعمّد أحياناً جرحها لحدِّ الإهانة. وكانت كلّما تقرّبت منه ازداد ابتعاداً عنها، إلى أن قرّرَ، مغروراً، الإقدام على الخطأ الّذي لن يستطيعَ لاحقاً الرّجوع عنه.

لم يكن يدرك أنّه سيملُّ عاجلاً أم آجلاً من زوجته. فإلى متى سوف يستمرُّ برؤيتها، كلّما دخل البيت، نهدان يسيران، ونهدان يتكلّمان وينامان ويستيقظان، وعدم رؤية حقيقتها المرّة كامرأةٍ قليلة الجمال مُملّةٍ وتنقصها الفطنة؟ ولم يكن يدرك أيضاً، أنَّ ولعه وشغفه بأمِّ نجم سيعودان، حينها، أقوى ممّا كانا، وسيكون السّيف قد سبق العذل، فالمرأة المهجورة المجروحة لا تغفر أبداً.

ولم يكن يعرف عندما دخلت مكتبه ذات يوم، أنّه يختلي بها للمرّة الأخيرة، لم يُعِرِ اهتماماً للهفتها، ولم يَقُلْ لها أيّة كلمةٍ جميلة، بل أخذها في دقائقَ كمن يقوم بمَهمةٍ لا يرغب بها، وبينما كانت ترتّب هندامها بعصبيّة، إذ إنّها لم تحصل على نشوتها، وهو أمر تكرّر للمرة الثانية، أوحى إليها بطريقةٍ مباشرةٍ أنّهما يجب أن يراجعا علاقتهما.

احمرّت وجنتاها السّمراويْن من الغضب. وعلى الرّغم من معاناتها من أدائه السّيئ في الفترة الأخيرة، إلّا أنّها كانت ما زالت تعلّل النّفس بأمل أن يعودَ إلى شغفه بها كسابق عهده. أمّا الآن فقد طفح الكيل. فمن يظنُّ نفسه بأنفه الأفطس وعينيْه الجاحظتيْن؟ وهل ثقافته وذكاؤه يعوّضان في شيءٍ عن كلِّ ما تتلقّاه منه في صبرٍ وجَلَد؟ أمسكتْ حقيبتها بعصبيّة ووقفت رافعةً إصبعها في وجهه، وما إن همّت بالكلام حتّى سمعا صوت سياراتٍ عديدةٍ تتوقّف أمام المركز، ثمَّ جلبةً في الغرفة المجاورة، فخرج وتبعته على الفور، فشاهدوا كلَّ الرّفاق، وأكثرهم من المقاتلين في الحزب، مُصْطفّين الواحد جنب الآخر في حالة تأهّب.

ولمّا دخل طارق وهو أحد أبطال الحزب ومسؤوليه العسكريّين الكبار، راقبته أمُّ نجم يردُّ التّحية لرفاقه، وأعجبها طوله الفارع وقامته المستقيمة ومنكبيْه العريضيْن المحصوريْن بصعوبة في قميصه العسكريِّ المرقّط بالكاكي والبنّي، والمطويِّ بعنايةٍ عند السّاعديْن المتينيْن المغطّييْن بشعرٍ أسودَ كثيف، والمشدود عند الخصر بحزام القماش لبنطال بذّته العسكريّة، فظهرت عضلات بطنه واضحةً مرسومة، وشدّتها عيناه الثّاقبتان المتحدّيتان وذقنه الخفيفة السّوداء الّتي تشبه ذقن غيفارا الأسطورة، فكانت كمن يشاهد ثوراً يستعدُّ للنّزال في لعبة الكوريدا الإسبانيّة.

نظرت إليه في البدء بهدف الحشريّة، ثمَّ حين التقت نظراتهما، أحسّت بعينيْه تعرّيانها، واستيقظت رغبتها الجنسيّة المقموعة قبل قليل، كغصن شجرةٍ مبتورٍ يبرعم من جديد. شعر غيفارا بالخطر الدّاهم، وهو الّذي كان يفكر منذ لحظاتٍ بواجب التّخلص منها، وصدق ظنّه حين رآها تمرُّ أمام الزّائر، مقتربةً منه قدر ما استطاعت؛ لاحظ كيف أنْ طارق تَنَشَّقَ

كالمسحور عبق عبيرها من عطرٍ وعرقٍ وشهوة، فتابعها بنظراته مُركّزاً على قوامها الجميل. وبينما كانت تخطو نحو الباب خارجةً، رشقت طارق بابتسامةٍ كشهبٍ من نار، كأنّها توبخه لنظرته الجائعة المستعجِلة، وتستفزُّ في الوقت نفسه غرائزه، فرمش بعينيه العسليتيْن مراتٍ عدّة كمن يستفيق من حلمٍ جميل.

كان طارق، بعكس غيفارا، من النّاس الّذين يروْن دائماً الجانب الحسن في ما يصادفونه. ولهذا كان يتّخذ قراراته بجرأةٍ وسهولة، وكان قد تعوّد أن يُقْدمَ من دون تردّدٍ على مغازلة امرأةٍ تعجبه، غير آبهٍ بالفشل المحتَمَل، والّذي لن يغيظه إذا حصل؛ أمّا مع هذه الأنثى، فقد راوده إحساسٌ غريبٌ لم يشعر به سابقاً، رأى جمالها الأخّاذ وحَدَسَ ذكاءها وإغراءها، وقرّر الإقدام، إنّما كان مرتعباً من الفشل. ومن هذا اللّقاء الأوّل، سيطر عليه الهوس بامتلاكها، ووجد نفسه خاضعاً هذه المرّة لسطوة المرأة.

لم ينتظر طويلاً بعد خروجها حتّى اختلى بغيفارا في مكتبه. جلس غيفارا على كرسيّه الهزّاز، بينما تناول طارق كرسيّاً خشبيّاً أداره بالمقلوب ووضع ساعديْه المتينيْن على حافته، وبعد لحظةٍ قصيرةٍ من الصّمت، أخذ نفساً قصيراً وفغر فاه ليبادرَ بالكلام بنبرته العالية المعتادة، ولكنّه عاد فخفّض بصره وسكت ناظراً إلى الأرض لثوانٍ، ثمَّ سأل رفيقه برفقٍ عمن تكون تلك المرأة، فأجابه غيفارا أنّها زوجة رفيقٍ عزيزٍ على قلبه، وأنّها تأتي من حينٍ إلى آخر لتستشيرَه في أمورٍ خاصّة، وأنكر أيّة علاقة بها حين سأله طارق بطريقةٍ مازحة. عندها، استعاد طارق صرامته وطلب بوقاحةٍ مباشرةٍ ترتيب لقاءٍ له معها، غير آبهٍ باحتجاج غيفارا أنّها متزوّجة من رفيقٍ في الحزب، وبمواعظه عن أهميّة احترام القادة لرفاقهم.

أصبحا بسرعةٍ مثل ديكيْن يستعدّان للعراك، وبينما كان غيفارا يتابع خطابه الأخلاقيّ، كان طارق ينظر إليه بحدّةٍ وسخريةٍ كمن يقول له «ما أفصح القحباء حين تنظّر في العفة»، فتلعثم غيفارا ورجع بظهره بقوّةٍ إلى الوراء، فاهتزَّ الكرسيُّ وسقط على الأرض، فنهض طارق ورفعه بيدٍ واحدةٍ من تحت إبطه بنترةٍ قوية، فانتصب مهزوماً ينفض ثيابه، يستمع إلى المنتصر يوشوش في أذنه كالآمر: «رتِّبِ اللّقاء!».

أمضى غيفارا ليلته قلقاً، لم يرَ خلالها من زوجته إلّا أنفها الطّويل ونظّارتيْها السّميكتيْن، ولم ينتبه لقميص نومها الجديد الضّيق وكتل نهديْها الّتي تتدلّى من أطرافه؛ وما إن استفاق في اليوم التّالي، حتّى قصد آل أبي نجم، وما إن غادر أبو نجم غرفة الجلوس لدقائقَ، حتّى أفضى لأمِّ نجم بشوقٍ كانت قد نسيتْه منه منذ فترةٍ طويلة، ففهمت بغريزتها الأنثويّة ما يجري، وأجابته بفتورٍ لم يعهده منها أيضاً منذ فترةٍ طويلة، فأيقن أنَّ القطار قد فاته إلى غير رجعة، وما عليه إلّا انتظار المحتوم.

بدأت اختلاجات العشق القادم تنهش جسد أمِّ نجم. وفي هذا الوقت كانت قد حلّت النّكبة على أبي نجم. فقد قضتْ غزل برصاصة قناص، فوقع في اكتئابٍ نفسيٍّ لم يفارقه بعد ذلك قطّ. ولم يجد ما يعزيه إلّا ذلك المبلغ الّذي اقتطعه من معاشه، وكان يسلّمه في أوّل كلِّ شهرٍ إلى والد غزل كمصروفٍ لابنه منها، باتّفاقٍ بين الرّجليْن غير مكتوبٍ ولا مُعلن.

تجاهل غيفارا في البداية طلب طارق علّه ينسى، ولكنَّ الأيام التالية أظهرت له العكس. وأصبحت غزوات طارق لمكتبه تتكرّر لعدّة مرّاتٍ في اليوم، بهاجسٍ وحيدٍ وبإصرارٍ على الطّلب نفسه. وفي الحرب، يُرغَم السياسيّون عادةً على الخضوع للعسكريّين، فقصد غيفارا بعد أيامٍ أبا

نجم يدعوه وزوجته إلى سهرةٍ في بيت صديقٍ له اسمه طارق، ولم يجد أبو نجم سبباً للرّفض مع أنّه اشتمَّ رائحةً غريبةً في هذه الدّعوة. ولكن، كان كلُّ شيء قد أصبح سِيّان بالنّسبة إليه منذ موت غزل. أمّا أمُّ نجم فقد أيقنت عندها بقرب الانتقام. أرجعت ظهرها إلى الوراء، وشبكت رجلها الواحدة فوق الأخرى، ورمقته بابتسامةٍ ساخرة. نظر إلى ركبتها اللّامعة كاللّيل، وبلع لعابه وكفَّ عن الكلام، كمن أكلت الهرّة لسانه.

-5-

ما إن عادت منى إلى بيتها حتّى انزوت في غرفتها وفتحت رسالة شارد، كانت عبارةً عن قصيدةٍ « هل كان حباً؟» للشّاعر العراقي الرّاحل بدر شاكر السّياب:

هل تسمّين الّذي ألقى هُياما؟
أم جنوناً بالأماني أمْ غراما؟
ما يكون الحبُّ؟ نوحاً وابتساما؟
أمْ خفوقَ الأضلع الحرّى إذا حان التّلاقي
بين عينيْنا، فأطرقتُ فِراراً باشتياقي
عن سماءٍ ليس تسقيني إذا ما
جئتها مستسقياً إلّا أُواما

وتابعت قراءة القصيدة بدمعةٍ محبوسةٍ في مقلتيْها. ولمّا وصلت إلى الجملة الأخيرة، «أهو حبٌّ كلُّ هذا؟ خبِّريني!»، تنهّدت حزينةً وقالت في سرّها: «أجل، إنَّ ما بيننا حبٌّ يا شارد، ولن أضيّعَه».

كانت الحياة قد علّمتها أنّها حين تقع في حيرة، يجب عليها ألاّ تتأخرَ كثيراً في اتّخاذ القرار. وحين تتّخذه فيجب ألاّ تتساءل أبداً عمّا كان ليحصلَ لو أنّها تصرفت بشكلٍ آخر. فمجرّد التّفكير بما كان يمكن أن يكون، ليس إلّا مضيعةً للوقت والطّاقة.

في هذه الفترة، بدأت الإضرابات الطّالبيّة تصبح أكثر كثافة في

المناطق الّتي تسيطر عليها الحركة الوطنيّة، فلم يكن يمرُّ أسبوعٌ من دون إضراب، بذرائعَ مطلبيّةٍ معلنةٍ مختلفةٍ لا تعبّر عن الحقيقة. أمّا في الواقع، فكان المنظِّمون يريدونها للتّعبئة الجماهيريّة وللحدِّ من سلطة الدّولة الّتي يكنّون لها عداءً قديماً، ويريدها الطّلاب للتّعطيل عن المدرسة.

وبعد أيامٍ من اغتيال زعيم الحركة الوطنيّة كمال جنبلاط في 16 آذار 1977، كان الشّتاء يهطل بغزارةٍ عندما بدأ تلاميذ الثّانويّة يتجمّعون في باحة المدرسة استعداداً للتّوجّه نحو المركز الرّئيس للانطلاق في التظاهرة الحاشدة.

طلبت منى من مديرها الإذن بالانصراف، بينما زوجها، الّذي أصبح منذ بداية السّنة ناظر المدرسة، كان مضطرّاً للبقاء. وانطلقت مُسرعةً مخافة أن يكونَ شارد قد ذهب في التظاهرة تحت الشّتاء. لمّا دخلت الصّف ووجدته خالياً من التّلاميذ، انقبض قلبها، ولكن ما إن نظرت إلى زاويته المظلمة، حتّى وقف واتّجه إليها كأنّه كان ينتظرها متأكّداً من قدومها، فأخذته من يده بلهفةٍ وتوجهت معه إلى منزلها لشرب كوبٍ من الشّاي ريثما تهدأ العاصفة.

لم تمرَّ على بيت أهلها كعادتها لتأخذَ ابنها، بل صعدا مباشرة إلى شقّتها وولجا غرفة الجلوس يفركان أيديهما من شدّة البرد، ويجسّان الأرض بخطواتٍ حذرةٍ من العتمة. فالسّماء متلبّدةٌ بغيومها السّوداء، والكهرباء مقطوعة منذ أيامٍ بسبب تفجير معمل التوليد الّذي يغذّي بيروت.

أخذ مكانه المعتاد على الكنبة المستطيلة، بينما توجّهت هي إلى المطبخ ثمَّ رجعت بعد دقائقَ حاملةً صينيّةً عليها فنجانان من الشّاي، شرباهما بسرعة كأنّهما يستعجلان الحدث الآتي لا محالة. وفجأة،

نهضت مضطربةً ولم يكونا قد نبسا بعد بأيّة كلمة. وقفت، ووجهها نحو النّافذة، مُديرةً له ظهرها، تنظر إلى الشّتاء يتساقط غزيراً، فكأنّما ترمي في لا وعيها إلى منحه الوقت ليتّخذ قراره. وراح شارد يتأمّل هذا الجسد الذي طالما حلم باحتضانه، كان عقله في حالة دوران، وجسده يلتهب. وكانت نظراته تصعد وتهبط، ومشاعره تلتهب حين استقرّ نظره على مؤخّرتها المكوّرة داخل بنطالها الجينز الضيّق.

كان في المدرسة يسترق النّظر إلى مؤخّرات التّلميذات المحبوسة في سراويل الجينز، ولا يكترث لإيماءات كريم وشغفه بنهودهنّ، ولطالما تجادلا بحدّةٍ أيّهما أكثر إثارةً في المرأة. ما كانا يدركان أنَّ الرّجال، كلّهم، ينقسمون منذ سنِّ البلوغ في مدرستيْن مختلفتيْن، عشّاق المؤخّرات وعشّاق النّهود، وفي كلِّ مدرسةٍ صفوفٌ وصفوف.

ولكنّه هذه المرّة، اشتمَّ عبق الإثارة الحارِّ في هواء الغرفة البارد، وعرف أنّه لا ينظر هذه المرّة إلى شيءٍ بعيد المنال، ولا إلى أيّة فتاة، بل إلى المرأة الّتي لا يكفُّ عن الحلم بها. وتابع يراقب جسدها بشهوة، بينما هي ساكنةٌ لا تتحرك.

أخيراً، قالت له:

- بماذا أنت سارحٌ يا شارد؟

صعقه السّؤال، فمنذ متى كانت قد أدارت رأسها نصف استدارةٍ وأصبحت عيناها منصبّتين عليه لا يعرف! إحمرَّ وجهه ولم يستطع النّطق، ظلّت لبرهةٍ قصيرةٍ تراقبه بحيرة، ثمَّ أصدرت ضحكةً مزيّفةً واقتربت وجلست قربه، مطلقةً العنان لركبتها أن تحتكَّ قدر ما تستطيع بفخذه. ولمّا رأته منكمشاً على نفسه كهرّةٍ وديعةٍ تنشد الحنان، قالت له كنمرةٍ تنظر إلى فريستها:

- ما بالك؟ ممّ خجلت؟

زاده سؤالها ارتباكاً. وكان شعوره يتأرجح بين الانطواء على نفسه والتّقوقع، أو الانفجار والهجوم عليها وأخذها بين ذراعيه. وبعد تنهيدةٍ عميقة، تمتم وهو يحكُّ بهدوءٍ شفته العليا صعوداً ونزولاً:

- لا أدري.

ركّزت نظرها عليه، كأنّها تحثُّ غرائزه الوجلة على التّحرّك، وقالت:

- لا تدري ماذا؟

صحيحٌ أنّه كان قد خطا الخطوة الأصعب، واعترف لها بحبّه، وأنّه لا ينفكُّ يفكّر فيها ويرغب بها في كلِّ لحظة من لحظات وعيه، لكن هذا شيء، وأن تضبطَه يشتهيها خلسةً كاللّص شيءٌ آخر، وتمنّى لو تنشق الأرض وتبتلعه فتنقذه من مأزقه.

أحسّت بخجله، وآلمها قلقه، فأرخت ظهرها المنتصب وقوّسته وهي تتأمّله واجمةً متردِّدة، ومرّت دقائقُ طويلةٌ عليه، شعر وكأنّها «مطّت أرجلها واستحالت عصوراً[12]». وهو الّذي لم يتقن في حياته قطّ الخروج من مرارات الصّمت القصير الأخرس.

في هذه الأثناء، كان القرار لا يزال يتأرجح في عقلها، هي الّتي تقرّر هل تجرفه معها في التّيار، أم تتوقّف هنا. منذ اعترافه بحبّه، وهي حائرةٌ من أمرها، تتأرجح بين رغبتها الجامحة بالبوح له بغرامها، وبين التزامها بالوفاء لزوجها ولتقاليد عائلتها الكاثوليكيّة المحافظة. كانت منذ فترة قد بدأت تفكّر أن عقد الزواج يحمل في طيّاته بعض السّعادة والكثير من الظّلم. وتساءلت في تلك اللّحظة إن كان منصفاً إجراء عقدٍ بين شخصيْن للعيش معاً مدى الحياة.

لم تكن قد قرّرت حين جاءتْ لتختليَ به أن يكون ما سوف يكون، أو

ربّما أوهمت نفسها بذلك. وبينما الأفكار المتناقضة تتصارع في رأسها، لم تستطع لجم يدها اليمنى عن الزّحف ببطءٍ وخفةٍ لتتموضعَ على فخذه تداعب جانبه الدّاخليَّ برؤوس أناملها. وبينما كان لا يزال مطرقاً، رفعت رأسه بكفّها بلطفٍ ونظرت إلى وجهه المتوهّج كالشّمس يغلي بارتباكه، يعصر شفته السّفلى بأسنانه بنعومة، فانتفضت غريزتها الجنسيّة الجارفة المسجونه في قمقمها، ولم يعد هناك مجالٌ للرّجوع إلى الوراء.

فتحت باليد اليسرى الزّرّيْن العلويين من قميصها، فبانت استدارة نهديها، وأعادت السؤال، هذه المرّة بصوتٍ بالكاد مسموع:

- لا تدري ماذا؟

نظر إليها جريئاً متفحّصاً هذه المرّة، فرأى أنّها لم تعد تلك المرأة النَّمرة الّتي كانت تهمُّ بالتهامه، وأصبحت عيناها ذابلتيْن، ووجنتاها تعلوهما حمرة الاستسلام؛ وبلحظةٍ كأنّها البرق، أصبحت الفريسة هي النَّمر، فانقضّ عليها والتهمها، بدأً من شفتيْها حتّى أطراف أطرافها، وكانت تتلوى بين يديْه، مقاومةً وخاضعةً في آنٍ واحد، ورغم الشّهقة الصّارخة الّتي أصدراها معاً لم يستطع التّوقف. كان مدفوعاً بطاقة سنينٍ من الرّغبة تجعله قادراً على أن يعاودَ التهامها مراتٍ ومرات، غير أنّها شبكت رجليها على أسفل مؤخرته، ويديْها على ظهره، مثبّتةً إياه، فهدأ لاهثاً ينظر إليها بنهم لا ينضب، فاحتضنته بقوّةٍ وهمست في أذْنه قائلةً: «إهدأ يا حبيبي، والآن كيف ستعود إلى منزلك بقميصٍ مخزّقٍ وشعرٍ منفوش؟».

أعارته واحداً من قمصان زوجها وهندمت شكله وقبّلته بشهوة المرأة التي تقبّل حبيبها قبل أن يخرج، شاعرةً أنّها أنثى من جديد. إنّها المرّة الأولى الّتي تخون فيها زوجها. لم تكن تشعر بأيِّ تأنيب ضمير، بل أحسّت، كما يحسُّ كلُّ إنسانٍ في هكذا حالة، أنّها ليست المسؤولة عمّا جرى، بل إنّها ضحّت قدر المستطاع ليكونَ زواجها مثاليّاً، ثمَّ رجعت

لتجلسَ على الكنبة نفسها، تستذكر بالتّفصيل ما حصل منذ ساعة، ومرّرت يدها على أسفل بطنها كأنها تتلمّس السّائل في داخلها وتحاكيه.

وفجأةً، بدأت الأفكار تختلط في رأسها كالهذيان، وتتشابك فيما بينها كالأشجار الملتفّة في غابةٍ استوائية، وكأنّها أفكار إنسان آخر. ولم تلبث أن غفت عميقاً، وغرقت في حلمٍ مزعجٍ. فرأت نفسها مطاردةً من ساحرةٍ شريرة، حاملةً على ظهرها صليباً ثقيلاً حتّى رمت نفسها في وادٍ سحيق. واستيقظت على يد زوجها يلكشها من كتفها عدّة مرّات، فانتفضت مذعورةً وفركت عينيْها لتتأكّدَ أنّها لا تزال حيّة، فاحتضنها وسألها لماذا تنام على الكنبة شبه عاريةٍ في مثل هذا الطّقس البارد، لكنّها أبعدته عنها ودخلتْ تستحمُّ قبل أن يشتمَّ عبق الخيانة الّذي يفوح منها، وخرجت بحالٍ أفضل ناسيةً منامها، ومسترجعةً من جديد ذلك البركان من مشاعر اللذّة الذي مرّت به. وحين سألها زوجها إن كان هناك ما يزعجها، أجابته بغرابةٍ لم يعهدها فيها قبلاً، قائلةً إنَّ الإنسان يجب أن يستمتعَ باللّحظة الّتي يعيشها كما هي، وألاّ ينتظرَ السّعادة الّتي يأمل أن تأتيَه في وقتٍ لاحق، فالتّعساء هم من يفعلون ذلك. وما إن أنهت كلامها حتى ذهبت إلى سريرها.

في اليوم التّالي، وصل شارد إلى المدرسة وكان لا يزال كالتّائه المنتشي، وكأنّ روحه تختال كأرجوحةٍ. وبينما كان يعبر باب المدرسة بمرافقة كريم، مرّت منى من أمامهما والتفتت إلى الوراء فتقاطعت نظراتهم هم الثّلاثة كموجات الأثير، وعرف كريم على الفور أنَّ هناك شيئاً ما قد حصل. فأخذ شارداً جانباً يستجوبه، من دون أن يحصلَ منه على الاعتراف. ولكنّه قرأ اعترافه في الوميض البارق من عينيْه وفي بسمته الرّاضية حبوراً.

- 6 -

بدأ المدعوون يصلون تباعاً إلى شقّة طارق، ولم يقمْ مرافقو طارق الواقفين في مدخل المبنى بتفتيشهم واستجوابهم كما جرت العادة، فأكثرهم كان معروفاً من قِبَلِهم، أمّا بالنّسبة إلى أبي نجم وزوجته فقد كانت أوامره أن يسألوهما عن الاسم فقط، ثمَّ معاملتهما بأقصى درجات الاحترام، ولمّا دخلا، تأهّل بهما بتحبّبٍ مميّز. ناولته معطفها برصانتها المعتادة، متناسيةً نظرتها الإغرائية منذ أيام، وسار وراءهما مراقباً مشيتها كإيقاع لحنٍ جميل، ثمَّ قادهما إلى الصّالون الواسع، حيث المدعوون يتوزّعون على الكنبات والكراسي الفخمة.

قبّلت أمُّ نجم ابنة خالتها، زوجة غيفارا، وهنّأتها على حمْلها المبكر ثمَّ صافحته، فمرّر سبابته محاولاً مداعبة الجانب الدّاخليِّ من رسغها، فسحبت يدها على الفور مبديةً امتعاضها، وتابعت التّعارف مع بقيّة المدعوين، الّذين كان يقدِّمهم لها طارق الواحد تلو الآخر، واضعاً كفّه بنعومة على أسفل ظهرها، موغلاً بخنصره ما استطاع إلى الأسفل، خلف تنّورتها الفضفاضة الطّويلة، حتّى لامس أعلى مؤخرتها من دون أن يظهرَ عليها الانزعاج، وحين سحب يده أخذتْ نفساً قصيراً مسموعاً من أنفها ورمته بسهام عينيها وابتسمتْ.

في زاوية الغرفة وُضعت المائدة التي تنتشر عليها «المازة» اللّبنانيّة بكلِّ أصنافها وخصوصاً «التّبولة» و«الكبّة»، تتوسّطها قنّينة العرق وبقيّة أنواع المشروبات، من الويسكي إلى الفودكا.

ما كاد المدعوون يأخذون أماكنهم حتى انتفضوا لسماعهم دويَّ انفجار، ليتبيّن لهم بعد قليلٍ أنّه صوت الرّعد، وانقطع التّيار الكهربائي وأظلمت الغرفة، وانقضّت السّماء على جلستهم بوجهها المكفهر، ثمَّ ما لبثت أن صبّت عليهم جام غضبها بشتاءٍ غزيرٍ لم يشهدوا له مثيلاً منذ فترة، وتابعوا سهرتهم على ضوء الشّموع.

وجد غيفارا الفرصة مناسبة للتّقرّب من أمِّ نجم الجالسة وسط زوجته ورفيقٍ شابّ، فناداه غيفارا وأخذه جانباً للاستفسار عن مسألةٍ حزبيّة، وخابت خطّته عندما رجع بأسرع ما استطاع، إذ وجد طارقاً قد أخذ المكان.

تكفّل غيفارا بمزج العرق، فملأ به الإبريق الزّجاجيَّ حتّى ثلثه، ثمَّ بدأ بإضافة الماء مراقباً تحوّل لونه إلى الأبيض الثّلجيّ، وسكب الكأس الأولى لنفسه ورشف منها برفق مستنشقاً رائحة اليانسون تتصاعد إلى أنفه، ثمَّ استهلَّ الكلام بتحليلٍ سياسيٍّ للمقرّرات الأخيرة للّجنة المركزيّة للحزب الشّيوعيّ، ومنوّهاً بالدّعم اللّامشروط للرّفاق في الاتحاد السّوفياتيِّ العظيم، ومبدياً امتعاضه من الممارسات غير المسؤولة لبعض المقاتلين من الحركة الوطنيّة والمقاومة الفلسطينيّة.

قاطعته أمُّ نجم بلهجةٍ متحدّية:

– ولماذا تسمحون بمثل هذه الممارسات؟

استغلَّ طارق الفرصة للتودّد منها فقال:

– أمُّ نجم معها حق.

وأعقب:

– هذه مسؤولية السّياسيّين في الحزب أكثر ممّا هي مسؤوليّة القادة العسكريّين.

لم يكن غيفارا قد أعلن استسلامه الكامل بعد، ووجد بدوره فرصته في نزال طارق على حلبته الفضلى، فتكلّم بإسهابٍ عن واجب السّياسيّين والعسكريّين في آنٍ واحد في أن يقوموا بمزيد من الجهد، مُستشهداً بلينين العظيم كيف كان يعالج المسائل المستعصية، ولكن هيهات، فمحاضرته الطّويلة لم تلقَ آذاناً صاغيةً من العاشقيْن، اللّذيْن كانا يتهامسان وكأنّهما وحيدان في الغرفة غير آبهيْن بالموجودين، ناسييْن أنّه يخصّهما بالكلام ويردُّ على تساؤلهما، فأنهى كلامه بأن سألَ طارقاً عن رأيه في ما قال ليحرجَه، متيقّناً أنّه لم يسمع شيئاً من الحديث.

لكن شخصيّة طارق العسكرية، لم تكن لتقيم كبير وزن للتحليلات، ولا للسياسيين البعيدين عن العسكر، وهو فعلاً لم يكن يستمع إلى غيفارا، ولكنّه استطاع استحضار كلماته الأخيرة، «الاتحاد السّوفياتيُّ العظيم وعلى رأسه الزّعيم بريجنيف»، فبنى ردّه انطلاقاً من تلك الجملة على أساسها، من دون أن يُفلتَ يد أمِّ نجم المخفية تحت تنورّتها ناظراً إلى غريمه بكبرياء المنتصر:

- أتعرف يا غيفارا؟ أنا لست من مؤيّدي التّعظيم والتّبجيل لحدِّ التّأليه، أعتقد أنّه من أكبر المشاكل الّتي يعاني منها مجتمعنا هو التّعصّب المفرط. حتى إنَّ كثيرين يعتقدون أنّه ضرورةٌ لا بدَّ منها، لصون الحزب أو الجماعة. لكن هؤلاء ينتقلون إلى التّعصّب للنّقيض بالزّخم نفسه والقوّة نفسها.

ولمّا رأى الصدمة تعلو وجه غيفارا، وقد ازدادت عيناه جحوظاً واحمرَّ أنفه الأفطس، عرف أنّه نال منه مقتلاً، فضغط على يد أمِّ نجم وأردف كملاكمٍ يُسقط منافسه بالضّربة القاضية:

- أعتقد من مداخلتك أنّك من هذا النّوع يا رفيق، مع أنّي أوافقك في بعض ما قلت.

ضرب طارق بكلامه عن التّعصّب على الوتر الحسّاس الّذي يزعج غيفارا، والّذي كان كمن يُقصف بالقنابل، وكأنّ طارقاً على علمٍ بانتقادات أمّ نجم له على هذه السّيئة في نفسيته. تبادل الغريمان نظرات التّحدّي وتكلّمت أعينهما بما تعجز الألسن عن قوله. فأشاح غيفارا بوجهه صوب أمّ نجم كأنما يعاتبها. فرآها تنظر إليه بابتسامةٍ هازئةٍ منتظرةً الرّدّ الّذي لن يأتيَ. فخفّض بصره مطرقاً، وعضّ على شفته السّفلى، كمن ينكّس راية الهزيمته.

مع امتداد الوقت، والاستطرادات المتمادية في الأحاديث السّياسيّة، بدأت الشّموع تنوص واحدةً تلو الأخرى، وأصبح النّور خافتاً، ما ساعد طارقاً على الالتصاق بأمّ نجم أكثر فأكثر، وكانت قناني الفودكا والويسكي قد تناثرت هنا وهناك جثثاً هامدة، إلّا بعضها الّذي لم يبقَ منه الّا القليل، وبدا أنَّ الجميع قد تعتعهم السّكْر، فصرخ أحد الرفاق قائلاً:

- دعونا من السياسة!

ومن دون أن ينتظر موافقة من أحد، باشر الغناء بصوتٍ جهوريّ:

«يا ميجانا يامیجانا يا ميجانا

اعطينا عيونِك تا نسلّ سيوفنا»

واستمروا يتداولون «الميجانا» على النّسق نفسه، إلى أن انتقل غيفارا إلى «الدلعونا»، ناظراً من حينٍ إلى آخر إلى أمّ نجم:

«على دلعونا على دلعونا

ما بنسى حباب لكانوا يحبّونا

قلبي عحبابي شعلان بنارو

ودمعات عيوني فضحت سرارو»[13].

أمّا طارق وأمُّ نجم فقد كانا يرقصان في مكان آخر، كانا على غيمةٍ أخرى في السّماء، يتبادلان الحديث همساً، من دون أن يستمعا إلى الأغنيات الصّاخبة حولهما. وكانت تتكلّم من دون انقطاع، كأنّها تطوّقه بدماثتها أكثر ممّا فعلت بجمالها، وهو ينظر إليها مفتوناً كحصانٍ يتهيّأ لامتلاك فرسه الصّهباء، فقد حتّى لكنتها القروية أثارته، وهو الّذي تعوّد سماعها من غيفارا وبقيّة الرّفاق من الجنوب، ولكن هُيِّئ له أنّها كانت تصدر منها بشكلٍ آخر، وخصوصاً محاولتها تغييرها لتقتربَ بها قدر المستطاع من اللّكنة البيروتيّة. ولمّا لفظت الثّاء كما يلفظها أهل الجنوب، أي كما هي في اللّغة العربيّة الفصحى، ثمَّ عادت مباشرةً فلفظتها مُصحِّحةً «سيناً» بلهجة أهل بيروت، لم يستطع أن يمنعَ نفسه من الضّحك. رمقته لائمة، فأمسك يدها بحنوٍّ اعتذاراً، ولكنّه لم يفلتها بعد ذلك، وبدأ يداعب أصابعها، فشبكت فخذها اليمنى فوق اليسرى مفسحةً له المجال لينتقلَ بيده حيثما يشاء، وبسرعةٍ فهم الإشارة فمرّر يده تحت فخذها العارية مداعباً هذه المرّة ما استطاع الوصول إليه من مفاتنها، وأمام تماديه المتهوّر، أبعدتْ يده، قاطبةً حاجبيْها بنعومةٍ وإغراء، فمال إليها ووشوشها قائلاً:

- أتعرفين بماذا أوحتْ لي تنورتك عندما جلستِ؟

- قلْ.

- شعرت أنّها عدوي اللّدود الّذي يخفي عنّي أجمل ما أتوقّع من مفاتن، كدجاجةٍ تحتضن صيصانها وتحميهم.

فوضعت يدها على فمها لتمنعَ نفسها من الانفجار في الضّحك. أمّا هو فقد شعر أنّه لم يعد قادراً على الصّمود أكثر، فوقف قائلاً بصوتِ القائد العسكريّ:

- تأخّر الوقت أيّها الرفاق، ويجب على أكثرنا الاستيقاظ باكراً، ما رأيكم لو نشرب القهوة؟

نظر أحد مرافقيه إلى ساعته قائلاً:

- أف، إنّها فعلاً الواحدة صباحاً، الرّفيق طارق معه حق، لقد تأخّرنا، ولا بأس الآن بفنجان من القهوة العربيّة.

وبإشارةٍ من طارق، دخل المطبخ وملأ الرّكوة[14] ماءً ووضعها على النّار ثمَّ رجع قائلاً:

- قمتُ بنصف المَهمّة، وحين يغلي الماء فعلى إحداكنَّ أيّتها الرّفيقات العزيزات إتمامها.

ونقّل إصبعه مشيراً إلى الفتيات، وما إن جلس حتّى توجّه إليه أبو نجم بالسّؤال قائلاً:

- لماذا قلتَ قهوة عربيّة وليس تركيّة؟

أحرجه السّؤال وهو الّذي ترك المدرسة في مرحلة مبكرة، فشرب كوب العرق الممتلئ حتى نصفه دفعةً واحدة، وقال بخجل:

- أنا لا أعرف، هكذا أسمع النّاس يقولون.

- على كلٍ، معك جزءٌ كبيرٌ من الحقّ.

أجاب أبو نجم، وبعد توقّفٍ قصيرٍ تابع:

- القهوة في بلادنا مصدرها أثيوبيا، وانتقلت من هناك إلى شبه الجزيرة العربيّة، في البداية انتقلت إلى اليمن تحديداً، حيث تأصّلت عند سكان البادية، وأصبحت رمزاً من رموز الكرم، ثمَّ حلّت عندهم محلَّ لبن الإبل، وباتوا يُفاخرون بشربها ويعتبرونها مظهراً من مظاهر الرجولة، ويُعِدّون لها المجالس الخاصّة الّتي تُسمّى بالشّبّة أو الدّيوانيّة. أمّا لمن يسمّيها قهوةً

تركيّة، فإنّني أودُّ تصويب الأمر، فالقهوة لم تنتقل إلى تركيا إلّا في القرن الخامس عشر تقريباً.

تدخّل غيفارا قائلاً:

– تُتحفنا دائماً يا أبا نجم بمعلوماتٍ تاريخيّةٍ وأدبيّةٍ قيّمة، فهلّا تشرح لنا إذاً كيف أصبح الشّاي المشروب المفضّل عند كثير من اللّبنانيّين، وبخاصّةٍ أهل الجنوب.

– هذا يا غيفارا له علاقةٌ بالاحتلال الإنكليزيِّ لفلسطين وجنوب لبنان، حيث تأثّر أهالي هذه المنطقة بالمحتلِّ الّذي يفضّل شرب الشّاي على القهوة، بعكس أهالي جبل لبنان الّذين تأثّروا بالمحتلِّ الفرنسيِّ الّذي يفضّل العكس.

تدخّل أحد الرّفاق، ووقف بطريقةٍ استعراضيةٍ ومدَّ يده الممسكة بكأس الويسكي وقال بصوتٍ عالٍ:

– أشرب نخبكم جميعاً، وأرفع كأس القهوة بالهال.

– أنا لن أرفعَ هذه الكأس!

أجاب غيفارا، ثمَّ أردف:

– فأنا لم أحبَّ يوماً طعم الهال في القهوة!

أعاد أبو نجم ملء كأسه فودكا، ثمَّ ارتشف منه قليلاً وقال مسروراً بثقافته لعَلَّ زوجته تنتبه لوجوده:

– سوف أحدّثكم قليلاً عن الهال، أعتقد أنَّ إضافته إلى القهوة هي استنباطٌ عربيّ. فهذه النّبتة ذات الأصل الهنديّ، تُستخدمُ كعطرٍ في الهند، وسمعت أنَّ أهل البلدان الإسكندنافية يستخدمونها في الخبز والمعجنات، وأنَّ الإسبان يضيفونها إلى بعض المشروبات الروحيّة.

- سيكون طعمها لذيذاً في كلِّ شيء، إلّا في القهوة! أردف غيفارا.

فربّت أبو نجم على كتفه وقال:

- سيكون لك ما تريد يا غيفارا، فيتوجّب علينا إذاً تحضير ركوتيْن، واحدةً بهالٍ وأخرى من دونه.

واستطرد:

- لقد تكلّمت أكثر ممّا يحقُّ لي، ولكن لا بأس فأنا أكبركم سناً، واسمحوا لي أن أختمَ كلامي بسرد بعض الأبيات الشّعريّة، الّتي تؤكّد أقدميّة القهوة على الشّاي عند العرب، والأبيات هذه هي عبارةٌ عن حوارٍ بين الشّاي والقهوة، وهي خليطٌ من العربيّة والفارسيّة ولا أعرف إن كانت منسوبةً أم لا، يقول الشّاي:

أنا الشّاي التي نزهة مواعيني.... بلّور وبرنجي ومعدن وصيني

أنا شاي العجم وملوك يجبيني.... وقودي من الفحم دخان ما بيَّ

فتردّ القهوة:

أنا بنت العرب وربيّة حاتم طيْ.... من أهل الكرم وأهل الجود وأهل الزّيْ

أنا كرمي تشلت وإنتي شويْ شويْ.... أهلي من العرب منيش عجميّة

- كأس أبي نجم، صرخ أحد الرّفاق بأعلى صوته.

- كأس أبي نجم، ردَّ الجميع رافعين كؤوسهم.

رفع غيفارا كأسه وقال:

- ولكن ألا تجد يا أبا نجم أنَّ هناك أخطاءً في بنية هذه البيوت الشّعريّة.

أجاب أبو نجم:

- صحيح، ولكنّي إنّما أردتُ تأكيد الفكرة، لا أكثر.

بينما كان السّاهرون يبحثون في تاريخ القهوة عند العرب، كانت يد طارق تختال وتجول أكثر فأكثر تحت تنّورة أمّ نجم، وغيفارا يزداد غلياناً كالماء الّتي تغلي في الرّكوة، فوقف مترنّحاً ورنا إليها بنظرةٍ ذليلةٍ وقال:

- سأصنع القهوة، هلّا ساعدتني؟

فنظرت إليه شزراً، ولم تعرف بما تجيب، فأنقذها طارق بأن وقفَ بتحدٍّ منتفضاً، وأمسكه من كتفه وأجلسه في مكانه وقال له بغرور المُسيطر:

- ألا ترى أنّك شربت كثيراً؟ ومتى كان الرّجال يتقنون صنع القهوة؟

ثمَّ اقترب منه وهمس في أذنه بسخرية:

- كنت قد ظننت أنّك استسلمت، كفاك مقاومةً يا عزيزي، سوف لن ينالَك إلّا الألم بعد النّدم.

ورفع صوته ليسمعَه الجميع:

- سوف أحضّر لكم يا رفاق أطيب قهوة، ولكنّكم تعرفون أنَّ اللّمسة الأنثويّة ضروريّة، هيّا يا أمَّ نجم!

ولم ينتظر ردّها، بل اقترب منها بزهو العسكريِّ الّذي لا يقبل الرّفض، وأمسكها من يدها جارّاً إيّاها إلى المطبخ، مدركاً أنّها أصبحت تحت سطوته، وقال:

- تعرفون، كلّما طال تحضيرها كلّما أصبح مذاقها أطيب، فلا تستعجلوننا أيّها الرّفاق الأعزّاء.

-7-

ما إن دخل طارق وأمُّ نجمٍ المطبخ الّذي بالكاد يتّسع لشخصيْن، حتّى وجد الماء في الرّكوة قد تبخّر نصفه من كثرة الغليان، فأعاد ملأها من جديدٍ وناولها كيس القهوة وملعقة، وبينما ينتظران غليان الماء وقف وراءها، لاصقاً جسده بجسدها.

كانت قد حدست، من النّظرة الأولى الّتي رأته فيها في المركز، قسوته وحبّه للسّيطرة، وأنّه لن يقبلَ أن تلعبَ معه لعبة الهرِّ والفأرة، فتركته يتمادى على راحته، ولم تتفاجأ حين أمسك ردفيها بيديْن جامدتيْن. جلّست ظهرها كلوحٍ خشبيٍّ فتشنّجت عضلاته، وارتدّت برأسها إلى الوراء وقد ألقت برأسها على كتفه، ولكن كان لا بدَّ لها من أن تُخفّفَ من اندفاعه، فقالت بلهجةٍ مهدّئة:

- كم هو صغيرٌ مطبخك، بالكاد نستطيع الوقوف.

- هذا أفضل، أليس كذلك؟

ثمَّ ردَّ الباب حتّى أصبح شبه مُغلق، وعاد فوقف وراءها، محتضناً إيّاها من الخلف، من دون أن تُبديَ هذه المرّة أيّة مقاومة، وهمس في أذنها:

- كم أنتِ جميلة!

- ماذا يعجبكِ بي وأنا في أواخر الثلاثينات من عمري؟

- أوّلاً، أنا فُتِنت بك منذ رأيتك، فجسدك مثل آلهة اليونان ثانياً، ما همَّ

العمر، فالمرأة الجميلة لا تكبر.

- تقول كلاماً جميلاً، أهذا ما تقوله لكلِّ النّساء؟

- أنتِ كلُّ النّساء.

قالها وبدأ يلعق عنقها بلسانه ويداه تعصران ثدييْها من تحت حمّالتهما، فأخذت تنهيدةً قصيرةً وقالت:

- إذا تابعت على هذا النّحو فلن أستطيعَ المقاومة، وها هي الماء قد بدأت تغلي في الرّكوة.

- أعرف.

وأردف ضاحكاً:

- قومي بعملك ودعيني أقوم بعملي.

وعاد لمُداعبة ردفيْها بيديْه، شاعراً بازدياد وتيرة تنفّسها، وما إن همّتْ بفتح الكيس الورقيِّ حتّى أحسّت بيديْها ترتجفان، فأبعدته بحركةٍ من كتفيها، وقالت:

- دعني أكمل القهوة، كدتُ أنسى أن أضعَ قليلاً من الماء في الرّكوة الثانيّة لمن يحبُّ القهوة من دون هال، بالمناسبة هل لديك قهوة من دون هال.

- عندي فقط قهوة من دون هال، كم أنت محظوظٌ يا غيفارا.

ضحكتْ وقرّبتِ الكيس من أنفها وشمّت القهوة وقالت:

- هي فعلاً من دون هال.

خفّفت قوّة النّار تحت الرّكوة ورفعتها قليلاً وبدأت تضيف القهوة بهدوء، وكانت كلّما أحسّت بفورانها حرّكتها بالملعقة وأبعدت الرّكوة عن النّار، وبعد دقيقتيْن كانت القهوة جاهزة. وبينما كانت ترتّب الفناجين

على الصّينيّة مرّر إصبعه بنعومةٍ في ثلم مؤخرتها فأمسكت يده وأبعدتها ووشوشته «لا تستعجل كثيراً، سيكون لدينا كثيرٌ من الوقت لاحقاً»، فوضع فمه على أذنها هامساً:

- أريدك هذه اللّيلة.

- وأبو نجم؟

- دعي الأمر لي، أفقط يهمّكِ أبا نجم؟

- ماذا تقصد؟

- وغيفارا؟

- معك حقّ، يهمّني غيفارا أيضاً، وبشكلٍ خاصّ، يهمّني أن يراك تأخذني.

- هكذا أنتِ تثيرينني أكثر.

- هل يوجد أكثر؟

قالتها وتبسّمت بإغراءٍ مُمرِّرةً يدها ما بيْن فخذيْه وخرجتْ.

عندما التقت بغيفارا كانت قد تخطّت عمر الثّلاثين، وشعرت حينها بحساسيّة هذه العتبة من العمر عند المرأة، حيث تتصارع ذروة الأنوثة مع انحدار الأفول وبداية خبوِّ الشّباب، كما سنِّ الأربعين عند الرّجل الّذي لا يزال طارق بعيداً عنه، ولكن ها هي تشعر بطاقاتها الأنثويّة تتفجّر من جديدٍ كبركانٍ انتفض بعد هدوءٍ طويلٍ يطلق حممه حول زوجها وعشيقها السّابق ومشروع عشيقها الحاليّ، آخذاً في طريقه كلَّ رصانتها.

وانتابتها رعشةٌ من الفخر والغبطة، حين دخلت وطارق على السّاهرين حاملةً الصّينيّة تعبق منها رائحة القهوة، وكان الكلُّ مُستعجلاً

شربها لأسبابه الخاصّة، فطارق أصبح كالثّور الهائج، وهي، التي لا تقلُّ عنه هيجاناً، تتساءل في سرّها عن الحلِّ الّذي سيجده لإطفاء حريقهما، وغيفارا يريد الخروج ومحاولة تأجيل المُحتّم.

أما المسكين أبو نجم، فقد انزاح عنه حملٌ كبيرٌ حين دخلا وتنفّس الصّعداء، ليس غيرةً، وهو الّذي قد بدأ فعلاً يغار، إنّما هرباً من عيون الحاضرين الّذين ينتظرون ردّة فعله أمام التّأخّر المريب لزوجته وطارق في المطبخ.

كان قد بدأ يشكُّ منذ فترةٍ بعلاقة زوجته بغيفارا، واكتشف خلال هذه السّهرة أنَّ شكّه كان صحيحاً، وظهر له ولكلِّ الحاضرين أنَّ طارقاً يريد اختطافها منه، وجِهاراً، كما لو أنها امرأةٌ عزباءُ لا زوج لها، وكان واضحاً أنَّ ثلاثتهم لا يعيرون انتباهاً لوجوده، وكأنّه مصارعٌ مدمّى في طرف الحلبة.

لم يشعر بالكُرْهِ تّجاه غريميْه، فهو الّذي تخلّى عن زوجته وتركها كهرّةٍ في شهر الإخصاب تنتظر غازيها، بل شعر بالحسد حين رآهما يتصرّفان كحيوانيْن جائعيْن وقعا على طريدةٍ سائبة، فانقضّا عليها ينهشانها ويتناحران في الوقت نفسه، يتلقّى كلٌّ منهما أذى الآخر من دون أيِّ حسابٍ للعواقب.

لقد أصبح منذ فترةٍ يرغب بها ويشتهيها كما لم يشتهها قطّ في حياته، وهو الّذي نسي وجودها كامرأةٍ لسنواتٍ طويلة، لدرجة أنّه أصبح يعتبرها كجزءٍ من الأثاث في بيته عديم القيمة. وها هي الآن تطلق العنان لشهواتها غير آبهةٍ به. ورجع بذاكرته بعيداً، إلى أكثر من عشرين سنةٍ خَلَتْ، يوم كان يختال في عرسه فخوراً بزفافه، بعد حبٍّ ظنّه أبديّاً، وكيف كان يردّد كلٌّ منهما للآخر أنّه سيكون له مدى الحياة. وبعد فترةٍ

من موت غزل، بدأ يعزّي نفسه بالأمل في استعادة عائلةٍ أهملها، بأن يصحّح حياته الزّوجيّة، ويحسّن أداءه الجنسي معها إذا ما تجاوبت، فلماذا لا يفعل معها ما كان يفعله مع غزل؟ وأدرك حينها، بالمنطق، أنّه لابدَّ أنّها كانت، ومنذ البداية، هي أيضاً تقطف لذّتها من شجرةٍ أخرى، وتيقّن له الآن أنّه لن يستطيعَ استعادتها بعد اليوم أبداً.

تراءت له غزل في هذه اللّحظة وكأنّه يراها فعلاً، فعَلَتْ وجهه ابتسامةٌ حين تذكّر كيف رجع حبّهما أقوى وأعنف بعد لقائهما في شارع الحمرا، سعادةً لم يُقدّر لها أن تطول، فقد كان الموت ينتظرها. من أيْن اتت هذه الصّدفة اللّعينة الّتي جعلتها تمرُّ في هذا المكان بالذّات؟ فكأنَّ القناص كان ينتظرها من دون غيرها، ليقتنصَ في الوقت نفسه نصف قلبه، ويقلب حياته حزناً أبدياً.

وكأنَّ الكحول الّذي أكثر من شربه، فتح باب خياله على مصراعيْه، فتذكّر والده الّذي أصبح في حالةٍ من العوز الماديّ، وهو الّذي كان يمدّه بالمال كلّما احتاج. وندب حظّه، أيضاً، لفقدانه التّدريجيِّ لتراتبيّته الحزبيّة أمام الدَّوْر الصّاعد للشّباب وخصوصاً العسكريّين منهم.

لعن القدر اللّئيم الّذي اصطفاه بكلِّ هذه الكوارث في فترةٍ قصيرة، فكزَّ على أسنانه واجتاحته رغبةٌ في الانتفاض، ولكنّه عاد فخمد من جديد، كأسدٍ هرم عاجزٍ لن تنالَه إلّا الهزيمة إذا ما أقدم على المجازفة والقتال، فلا بدَّ له أن يرضخَ لحياته البائسة، وما عليه إلّا لوم نفسه. وانزوى مكسوراً بعيداً تاركاً لبوته للأسديْن الفتييْن أمامه، جلَّ ما يتمنّاه أن يتركوه وشأنه، ولم تنتهِ اللّيلة بعد!

تناول فنجان القهوة من زوجته، فشعر به ثقيلاً جامداً في يده، فأرجعه على الطّاولة من دون أن يرتشفَ منه شيئاً. وأشاح بوجهه عنه ليجدَ

طارقاً ينظر إليه متفحّصاً، فكاد أن يقولَ له: «خذ زوجتي وافعل بها ما تشاء، فقط أخرجني من هذه المهزلة».

وكمن يقرأ أفكاره، توجّه إليه طارق بالسّؤال:

- أرى أنّك مرهق يا أبا نجم، أُفَضّلُ أن يوصلك أحد مرافقِيَّ إلى البيت.

- نظر إلى زوجتة وقال: أتريدين المجيء معي يا وداد؟

فاجأها سؤاله.

لقد مضت سنواتٌ طويلةٌ لم ينادها باسمها، وها هو يتلفّظ به كالمستجدي؛ ثبّتته بنظرةٍ حادَّةٍ متسائلة، أين أبو نجم المسؤول السّابق في الحزب، الذي كان يجول ويصول؟ هل يظنُّ بغبائه أنّي لم أكن أعرف بعلاقته بغزل؟ وكيف أصبح عدماً منذ وفاتها؟ لا، بالتّأكيد كان يعرف ولكنّه لم يكن يراني، وها هو الآن كالذّليل أمامي، أو ربّما يتظاهر بالمذلّة، سأبقى هنا وليفعل ما يقدر على فعله!

أعاد أبو نجم سؤاله، فأغمضت عينيْها وهزّت رأسها كمن يستفيق من سباتٍ عميق، وقالت بلهجةٍ مُتحدّية:

- إذهب وحدك! سوف أبقى قليلاً بعد.

عرفت بعد هذه الجملة أنّها تتمادى في استخفافها به، وتخطو خطوةً كبيرةً وخطرة، خصوصاً وأنّ غيفارا يراقب المشهد والغيرة تتآكله وتنهش قلبه. وبدا أنّه مستعدٌ لمبادرةٍ قاسيةٍ وصعبة دفاعاً عنه وعن حليفه أبي نجم. ولكنّها ألقت نظرةً خاطفةً إلى طارق الذي كان يقف منتصباً مزهوّاً، ففهمتْ، كما الجميع، أنّه، في أيام الحرب، الكلمة الأولى والأخيرة للعسكر وليس أمام رجال السّياسة إلّا الانكسار.

ولمّا أوصلها طارق بسيارته العسكريّة في الخامسة صباحاً إلى حيث تسكن، صعدتِ الدّرج بهدوءٍ ودخلتِ الشّقة بحذر، فجسدها لا يزال يعبق برائحة النّشوة والعرق، وشعرت بمهابة الموقف، فماذا لو سألها زوجها عن سبب التّأخير؟ ولكنّها لمّا انسلّت في سريرها بعد استحمام سريع، وجدته يغطُّ في نومٍ عميق، أو ربّما تظاهر بذلك، فأخذت نفساً عميقاً وغفت بسرعةٍ راضيةً مُطْمئنّة.

أمّا طارق، فقد اكتشف من الطّريقة الّتي اجتاحته فيها كبركانٍ ثائر، أنّها المرأة الّتي لطالما بحث عنها، الفريدة بجمالها وإثارتها وذكائها، وخصوصاً رصانتها الجامحة نحو العبث واللّذة حين ترغب بذلك. فهي أمرأة في قمة نضجها الأنثوي، ومن الواضح أنها تختار عشاقها برغبتها. وهو الّذي أصبح يعرف بحكم تجاربه الكثيرة أنَّ المرأة كلّما ازدادت رصانةً كلّما كانت أكثر شبقاً، بعكس النّساء اللّعوبات اللّاتي التقى بهنّ سابقاً، واللّاتي يُموِّهنَ برودتهنَّ الجنسيّة بألاعيبَ لاطائل منها.

وفي اليوم التّالي لم يتطرق أبو نجم إلى اللّيلة الماضية، ولم يسألها حتّى عن سبب تأخرها.

-8-

لاحظت أمُّ جوزف مكوث منى المتزايد عندها، ولم تعد تسمعها تناديها من أمام المبنى بجملتها المعتادة: «أمّي، أنزلي لي يوسف، أنا على عجلةٍ من أمري»، بل أصبحت تصعد بشكلٍ شبه يوميّ، وتبقى لساعاتٍ ثمَّ ترجع إلى بيتها كالمرغمة. وصدق ظنّها، عندما استدرجتْ زوجها نبيل بالحديث، فصارحها أنَّ هناك خطباً ما يجري في عقل منى، ولمّح إلى أنّه مضت فترةٌ لم يستطع فيها مجامعتها إلا نادراً، ولكنّه خجل أن يقول لها إنّه كان يأخذها من حينٍ لآخر وهي نائمة.

لم تكن منى امرأةً متزلّفة، ولم تتخلَّ يوماً عن صراحتها ووضوحها، أقلّه أمام نفسها. ولكنّها، منذ غرقها مع شارد في مستنقع الغرام الممنوع، أصبحت أكثر انطواء، إلّا حين تكون معه، إذ تنطلق روحها كفراشةٍ تسبح فوق حقلٍ من الزّهور.

أمّا زوجها، فكان قد شعر بالجليد الّذي يحيط بعلاقتهما، ووجد أنّه مغلوبٌ على أمره لا يدري ماذا يفعل. وكان يزداد عشقاً لها كلّما ازدادت بعداً عنه. لماذا تجافيه إلى هذا الحدّ؟ ما الّذي يجعلها تتحاشى وصاله؟ ولماذا لم تعدْ ترتاد الكنيسة كعادتها كلَّ يوم أحد، وأصبحت تتحاشى الخوري أو الاعتراف الّذي كانت تقوم به من حينٍ إلى آخر.

صحيحٌ أنّها تزوجته من دون حبٍّ إلّا من جهته فقط، ولكنّها لم تتوقّف قطّ عن معاملته كزوجٍ تكنُّ له كلَّ التّقدير والاحترام. وصحيحٌ أنّها لم تُبدِ يوماً لهفةً عند ملاقاته، ولكنّها لم تترك قطّ أيَّ واجبٍ يفوتها،

تجاهه أو تجاه ابنهما. وها هي تتعامل معه منذ أشهرٍ كالغريب. هل بدا منه ما يسيء إليها؟ كيف يستطيع إعادة الأمور إلى مجاريها؟ وبدأت نار الغيرة تتفاعل في صدره وتأكل أحاسيسه كما النّار في الهشيم، وراح يتساءل: هل هناك رجلٌ آخرُ في حياتها؟

بدأ يبحث عن إشارةٍ ما في الأشهر الّتي خلت فلم يجد. فقصد صديقه المقرّب الّذي طلّق زوجته حديثاً حين ضبطها تخونه، محاولاً استدراجه لمعرفة الوسيلة الّتي أوصلته لكشف زوجته. وفهم الصّديق الحاقد على كلِّ النّساء ما يجول بخاطره، وأخبره أنَّ المسألة في غاية البساطة، فما عليه إلّا مراقبتها. وأضاف أنّه من المهمِّ جداً أن يتجسّسَ كلُّ رجلٍ على زوجته من حين إلى آخر، حتّى لو كانت ملاكاً، وبالأخصِّ إن كانت تجافيه. أن يحاولَ الاستماع إلى مكالماتها الهاتفيّة مع المقرّبين منها، وخصوصاً الّذين تثق فيهم، فما سوف يكتشفه سيكون مفاجئاً حتماً. سوف يسمعها تقول لصديقتها: «كم هو ساذجٌ زوجي!»، أو: «كم إنني لا أطيقه!»، أو «كم هو سيئٌ أثناء العملية الجنسيّة!»، وسوف يسمعها ربّما تتكلم عن علاقتها برجلٍ آخرَ وكم تشعر معه باللّذة.

أخذ بنصيحة صديقه، ولم يجد صعوبةً في اكتشاف العشيق. فمنى لم تعد تلك المرأة الّتي تحسب ألف حساب لكلِّ خطوةٍ تقوم بها. فقد انجرفت في غرامها غير آبهةٍ إذا شاهدها أحد، ولا مكترثةٍ بما قد يُقال. أصبحت تأخذ شارداً إلى بيتها كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فيرى زوجها في المساء انتشاء الأنثى، يظهر واضحاً في حركاتها وتصرفاتها ونضارة وجهها وتلألؤ تقاسيمه.

هل يُعقل أن تخونَه مع تلميذٍ لها؟ ومع أنّه كان مُعجباً بتفوّق شارد الدّراسيِّ وبوعيه المميّز نسبةً إلى سنّه، ولكن، أن تصلَ بها الأمور حدّ

أن تبنيَ معه علاقةً أمرٌ لم يستطع فهمه، خاصة منها هي المرأة العاقلة المؤمنة. وعرف الآن لماذا كان ينفر في قرارة نفسه من شارد.

كان كلّما أراد اقتحام بيته ليجدَها متلبّسةً بالجرم المشهود يعود فيتراجع، تارةً يرجع أدراجه من مدخل المبنى، وطوراً يهمُّ بفتح الباب ثمَّ يُرجِعُ المفتاح إلى جيبه كالجبان، خائفاً من فقدانها، فقد أصبح منذ عرف بخيانتها يعشقها بجنونٍ إلى حدِّ الهوس. كان يعرف أنّه لن يستطيعَ مواجهتها وحيداً، ويجب عليه اختيار الوقت المناسب.

ولمّا دعتهم أمُّ جوزف إلى العشاء في بيتها بمناسبة عيد القيامة، وجد الفرصة مواتيةً للحديث في الموضوع. وظلَّ يمرّن نفسه طوال أيامٍ ويستجمع كلَّ ما أوتي من شجاعةٍ ومهاراتٍ كلاميةٍ استعداداً لمعركةٍ كان كلُّ همّه فيها استعادتها، وفقط استعادتها. لم يفكر في أيّة لحظةٍ بانتقامٍ أو أذى.

لم يتعوّد أن يشربَ أكثر من كأسَيٍّ نبيذ. أمّا هذه المرّة فلا بدَّ له أن يلامسَ السِّكر لتنهارَ حواجزه النفسية فيستطيع التكلّم بحريّة. وأسعفه الحظُّ حين استأذن أبو جوزف بالذّهاب إلى غرفته، فقد نصحه الطّبيب بعدم الإطالة في السّهر بعد الأزمة القلبيّة الّتي ألمّت به منذ فترة. ولم يبقَ إلّا ثلاثتهم، إذ إنَّ شقيقيّ منى كانا قد خرجا للسّهر مع أصدقائهما.

خيّم الهدوء على السّهرة، كرمادٍ يخفي الجمر الحارق تحته. ولم تتخلّلها إلّا كلماتٌ بلا معنى، أو جملٌ ليست في مكانها ولا زمانها، تتطاير كشراراتٍ في أرجاء الغرفة. وبينما كان نبيل يسكب كأسه الخامسة، نظرت إليه أمُّ جوزف نظرة لومٍ وشفقةٍ وقالت:

- إن تابعتَ على هذا المنوال فسوف تسكر ولن تجدَ أحداً يحملك إلى البيت!

- وما همَّ يا امرأة عمي، فقد بدأت أكره الرّجوع إلى البيت. أجد نفسي هناك وحيداً فارغاً إلّا من الوَحدة[15].

سكتت منى رانيةً ببصرها إلى الصّحن أمامها، تتحسّس كأسها بتصميم الجاهز للمواجهة. كانت تدرك أنّه يعرف، فقد لاحظت أنّه يراقبها ولم تحجم عن متابعة لقاءاتها مع شارد. أراد المعركة فليكن، ولتصل الأمور إلى خواتيمها.

نظرت أمُّ جوزف إليه بتعاطفٍ قائلة:

- هدّئ من روعك يا بني!

ثمَّ التفتت إلى منى وقالت:- هاتي يا منى أخبريني، ماذا يحصل؟ هل هناك خطبٌ ما؟

فوضعت منى أصابعها الأربع على حافّة الطّاولة، تاركةً إبهاميْها يتلامسان باضطرابٍ واضح، وقالت بلهجةٍ جافةٍ قاسيةٍ منقّلةً عينيها بيْن غريميْها:

- هل نحن هنا للعشاء أم أنّني في محاكمة؟ إنَّ حياتي ملكٌ لي، أتلفتَها بما فيه الكفاية، والآن أنا مصمّمةٌ أن أعيشَها بسعادة! وأقولها أمام والدتي بالفم الملآن، أتمنّى لو ننفصل ويذهب كلٌّ منّا في طريقه.

لم يكن يتوقع هذا الهجوم، أقلّه ليس بهذه الحدّة والجرأة، وهو الّذي قدم إلى الحلبة متسلّحاً بحقّه، ومعتقداً أنّها سوف تُحرَجُ بوجود والدتها، وسوف تتلقّى بخجلٍ محاضرته الّتي أجاد سبكها، والّتي تبخّرت الآن من رأسه ولا يتذكّر كلمةً منها، بل، بالعكس، ها هي كلماتها تنزل عليه كالسّكاكين. فكزَّ على أسنانه محاولاً لجم غضبه، ثمَّ سألها:

- وما الغلط الّذي ارتكبته بحقك؟ ألا أعاملك بكلِّ المودّة والاحترام؟

وتابع بصوتٍ متحشرجٍ مخنوق:

- هل لأنّني أحبّك كما لم يحبَّ رجلٌ امرأة؟

ومال بوجهه عنها لفترةٍ قصيرة، محاولاً تخفيف انفعاله، ولكنّه لم يستطع أن يمنعَ دمعةً تدحرجت على وجنته، فمسحها بإصبعه وأردف ناظراً إلى أمِّ جوزف:

- أشعر في هذا اليوم المقدّس، كأنّي أُصلبُ كسيدنا المسيح وأنّه لن تكونَ لي قيامةٌ إذا استمرّتْ منى بتعذيبي!

كانت أمّها لا تزال تحت هول الصّدمة، ولكنّها ما لبثت أن التقطت أنفاسها وتوجهت بالكلام إلى ابنتها:

- يا منى، لا يجوز أن تصلَ الخلافات إلى هذا الحدّ، لا بدَّ أن تجدا طريقةً للعودة إلى الحياة الطّبيعيّة كزوجٍ وزوجة، فلا سعادة في الحياة تضاهي السّعادة الزّوجيّة، فضلاً عن هذا، نحن كما قال زوجك، عائلةٌ مارونيّةٌ مؤمنة، والطّلاق كما تعرفين ممنوع، أطردي هذه الأفكار الهدّامة من رأسكِ!

- كفاكِ كلاماً يا أمي عن السّعادة الزّوجيّة الّتي ليس فيها من السّعادة إلّا اسمها. أنا لن أستطيعَ متابعة حياتي كما هي. أعرف أنّه كان يراقبني ويعرف كلَّ شيء، ولو كان رجلاً لطلب هو الانفصال عني. الطّلاق ممنوع أجل، فليكن الهجر الذي يلجأ إليه كلُّ الموارنة الّذين يصلون إلى طريقٍ مسدود.

- والطّفل الّذي تحملينه في أحشائك، هل ستتركينه يتربى من دون أب؟

كان نبيل لا يزال يستمع ممسكاً رأسه بكفيْه، لائماً نفسه على فتح الموضوع، وعندما سمع بالحمْل، انتفض مُتفاجئاً مذعوراً، فهو لم يكن

على علمٍ به، فصرخ قائلاً:

- أمعقول؟ ألا ترين أنّه من حقّي أن أعرفَ إن كنت حاملاً أم لا؟

- هذا أمرٌ يعنيني وحدي ولا علاقة لك به.

لم يخطر بباله حينها أن تكونَ حاملاً من شارد. وأرادت أمُّ جوزف التّكلّم لترطّبَ الهفوة الّتي قامت بها، إلّا أنّها تلقّت من منى نظرةً قاسيةً رادعة. فوجد نبيل نفسه مضطراً للمبادرة، فتوجّه إلى منى قائلاً كالمُستجدي:

- لابأس، أنا أسامحك على عدم إبلاغي بالحمْل، ولندَعْ أيضاً جانباً أنّك امرأةٌ مسيحيّةٌ ومؤمنة، فأنا لم أعتقد يوماً أنَّ الرّادع الدّينيَّ يمنعنا من ارتكاب المعصيات، ولكنّك يا منى من عائلةٍ محترمة، ربّاك والداك على القيم والأخلاق، وأنا أؤمن أنَّ الرّادع الأخلاقيَّ فقط هو الّذي يقف أمامنا حين نقدم على الرّذيلة، وعلى كلٍ.....

تابع كلامه وكأنّه وحيد في الغرفة، يبرم كأسه بين يديْه وينظر إليها كأنّه يخاطبها، تحدّث عن حبّه لها وعدم قدرته على العيش من دونها، وعن يوسف، ابنهما الوحيد، كان يرفع صوته ثمَّ لا يلبث أن يخفّضَه حتّى يصبحَ بالكاد مسموعاً، بينما كانت منى تراقب وجهه المُمتقع وعينيْه المجمّرتيْن اللّتين تكادان تنفجران بالبكاء. وما إن شعرت بالشّفقة عليه حتّى عادت وانقضّت عليها ذكرى ليلة عرسها، وكيف طرحها على الفراش ومارس عليها، وليس معها، الجنس مراراً كمن يغتصبها، وتذكّرت الألم الّذي شعرت به حينها من دون أن تصلَ إلى النّشوة.

تغلّب الحقد في قلبها على الرّحمة، فنظرت بقرفٍ إلى جسده المترهّل وإلى يديْه البدينتيْن تشدّان على الكأس بقسوة. وكمن تستفيق من حلمٍ مزعج، انتبهت إلى ما قالته من أنّه يعرف كلَّ شيء، ولم يعلّق،

إذاً صحيحٌ أنّه يعرف، وخوفاً من أن يتمادى أكثر، ويفضح اسم عشيقها أمام أمّها، وقفت قائلةً بهدوءٍ صارم:

- هيّا بنا نذهب إلى البيت، لا أعتقد أنّنا سوف نصل إلى نتيجةٍ في هذا الجوِّ المشحون.

ودخلتْ فحملت ابنها الغافي بين ذراعيها واتّجهت خارجة، من دون أن تلتفتَ إليه. فتبعها ذليلاً مكسوراً، كجنديٍّ خائبٍ عائدٍ من الهزيمة. فلم يعد أمامه إلّا الإذعان أو الرّحيل، وكلا الخيارَيْن مرّ.

في اليوم التّالي، وقف على شباك مكتب الإدارة، يشاهدها تخرج آخذةً معها شارداً الّذي كان ينتظرها على باب المدرسة، وليس بعيداً كما كانت تفعل، والتفتتْ شاخصةً ببصرها صوبه ترميه بسهام التّحدي.

الفصل السادس

- 1 -

تابع لبنان انزلاقه في أتون الحرب الأهلية. وخافت الدّولة ألا تستطيعَ إجراء الإمتحانات الرّسميّة للتّلاميذ في موعدها المعتاد في حزيران 1977، فحدّدت دورةً استثنائيّةً إضافيّةً في آذار لمن يريد أن يتقدّمَ لامتحانات الشهادة الثّانويّة، ونجح شارد فيها بتفوّقه المعتاد وهو لم يكمل بعد السّابعة عشرة من عمره.

كانت فرحة منى ممزوجةً ببعض القلق، ها هو يكبر وسوف يجد لنفسه طريقاً آخر بعيداً عنها. ففارقُ الخمسة عشر عاماً الّتي تفصلهما، ليس في مصلحة هذا الغرام الّذي كان ينمو في قلبها أكثر فأكثر، مع أنَّ تخوّفها لم يكن إلّا وهماً، فهُيام شارد بها وإدمانه عليها كانا قد وصلا إلى حدِّ الهذيان[16].

وهذا ما لمسته منه عندما اختلت به في اليوم التّالي، من دون أن تطمئنَّ كلّياً. فحين تجد بذرة الشّكِّ طريقها، فإنّها سوف تتابع ما دام يُغذّيها نبع الغيرة الّذي بدأ ينهش صدرها.

قبل أن تنجرفَ في غرامها وتتمادى فيه، كانت تحيّرها التّصرفات

اللّاأخلاقية والشّاذة في مجتمعها، كالسّرقة والكذب والاعتداء على حق الغير. وكانت تجاهر بكرهها للشّخص الذي يغتني بسرعة، من عمله أو تجارته، أو من السّياسة أو غير ذلك من ميادين الحياة، متذرّعةً بحجّة أنّه لا بدَّ أن يكونَ سارقاً أو محتالاً أو غشاشاً.

وها هي تجد نفسها في موقع الخيانة غير آبهةٍ بالقيم وبالأخلاق، بل، تبرّر الأمر، بكلِّ بساطة، بأنّه خارجٌ عن إرادتها. وتذهب أبعد من ذلك لتُحَمِّلَ المسؤولية لزوجها لأنّه تزوّجها مع معرفته أنّها لا تحبّه. وأصبحت لا ترى من صفاته إلّا السيّئ منها، حتّى المحبس في يدها، صار ثقيلاً بالكاد تستطيع حمله. أصبح كلُّ همّها ألاّ تخسرَ شارداً!

ها هي تجد نفسها بيْن ناريْن، نار عشقٍ لا يرحم، ونار الإيمان بتعاليم المسيح، وأصبح هاجس الافتراق عن زوجها يلازمها أينما ذهبت. وكانت تلحُّ عليه تارةً بالتّرجي وطوراً بالتّهديد من دون أن تصلَ إلى نتيجة.

وأصبحت لقاءاتها مع شارد أصعب. فالميليشيات في الشّارع منتشرةٌ ليلاً ونهاراً، والقنّاصون متمركزون فوق أسطح الأبنية المُشرفة، ينتظرون طريدةً مارّةً من هنا أو هناك، وبدأ القتل بسبب الانتماء الطّائفيِّ يصبح شائعاً، فكلُّ مسيحيٍّ في بيروت الغربيّة أو مسلمٍ في بيروت الشّرقيّة صار عرضةً للقتل، لأتفه الأسباب أحياناً.

وتدريجاً، لم يعد زوجها ذاك الرّجل النّبيل الّذي تعرفه. تغلغلت فيه الكراهيّة والبغضاء، وتركها تتجمّع في قلبه، كمن يربّي نبتة سامّة. وخيّمتِ الأفكار السّيئة فوق رأسه كغيمةٍ سوداء، مِن قتْلها وقتل نفسه، إلى قتل شارد. ومنذ أن اكتشف خيانتها، تحوّل إلى متعصّبٍ أعمى ضدَّ المسلمين. أصبح كلُّ واحدٍ منهم شارداً، واتّصل سرّاً بالذّراع العسكريِّ

لحزب الكتائب، القوّات اللّبنانيّة، وصار يزوّدهم بالمعلومات، عن تمركز الميليشيات في بيروت الغربيّة.

وبمرور الوقت، لم يعد يطيق العيش بين المسلمين، لدرجة أنّه أصبح يشيح بنظره شزراً إذا ما التقت عيناه بعينيِّ طفلٍ في الشّارع. وبدأ الرّيب بانكشاف أمره كمُخبرٍ لـ«لقوّات» يتملّكه. وتُوفّيَ، في هذا التّوقيت الحساس، والد منى إثر نوبةٍ قلبيّة، ولم يكن قد مضى شهورٌ على حصوله على رتبة عميدٍ في الجيش، فدُفن معه صمّام الأمان الّذي كان يحمي العائلة.

بعد الدّفن بأيام، فاتح منى بضرورة الانتقال للسّكن في بيروت الشّرقيّة، وهذا ما كانت تتوقّعه. فقريباتها أرسلنَ لها من هناك النّصائح بضرورة الهرب. وصديقاتها المسلمات في بيروت الغربيّة، أشرن عليها بالأمر نفسه، وخصوصاً أمُّ نجم الّتي زارتها للتّعزية وحذّرتها من خطر البقاء.

كان والدها ليحميَهم لو أنّه لا يزال حياً. صحيحٌ أنَّ الجيش اللّبنانيَّ كان قد انقسم إلى جيشيْن، أحدهما مُصطفٌّ مع المسيحيّين والآخر مع المسلمين، إلّا انّ الضّباط الكبار كانوا مع ذلك يتمتّعون بحصانةٍ خاصّة.

وجدت نفسها أمام خياريْن، كلاهما مرّ، فمن جهةٍ خوفها ألّا ترى شارداً بعد ذلك أبداً، ومن جهةٍ أخرى خوفها على حياة عائلتها. لم تفكّر بحياتها أو بحياة زوجها، إنّما كان كلُّ قلقها مركّزاً على يوسف ابن السّنتيْن، وعلى الطّفل الجديد الّذي بدأ يكبر في أحشائها، مدركةً من يكون والده الحقيقيّ. وأخيراً، حزمتْ أمرها: لا بدَّ من الرّحيل.

كان يجب أن ترى شارداً بسرعة، فقصدت أمَّ نجم في المساء. ما إن فتحت لها الباب حتّى تيقّنت من أنّها توصّلت إلى قرارها بالرّحيل.

وجاش صدرها بحزن الفراق الوشيك. فما يجمع المرأتيْن من محبةٍ وتواطؤ أصبح كبيراً.

وما إن خرجتا إلى الشّرفة، حتّى بدأت أمُّ نجم الكلام:

- كم أنا سعيدةٌ بقدومك لزيارتي، فأنت بحقٍّ أقرب صديقةٍ لي، كنتُ قد فكّرت بكثيرٍ من الأخبار الّتي أريد محادثتك بها حين ألقاك، وها هي تتبخّر من رأسي.

بينما المرأتان تنتقلان من حديثٍ إلى آخر، كانت منى ترنو ببصرها بيْن الفينة والأخرى إلى باب الشّرفة، فلكشتها أمُّ نجم من ركبتها مُمازحة:- لا بأس عليكِ، سوف يأتي حبيبك شارد!

فاجأتها ردّة فعل منى، الّتي علتْ حمرة الخجل وجهها، وظهر عليها الارتباك، فرمقتْها أمّ نجم متسائلة، رافعةً حاجبيْها إلى الأعلى، فأطرقتْ منى مُحرجة.

أنقذ شارد الموقف حين خرج إلى الشّرفة، واقترب من منى ليصافحَها، غمرتها الرّغبة باحتضانه، أو، على الأقلّ، تقبيله على خدّه كما اعتادتْ عندما كان صغيراً، ولكنّها مدّتْ له يدها مُصافحةً وأمُّ نجم تراقب حركاتهما بحشريةِ من يبحث عن إشارةٍ ما. وصدق ظنّها حين رأتها تتعامل معه وكأنّها بالكاد تعرفه، وتأهّلت به بكلماتٍ عاديّةٍ تنمُّ عن معرفةٍ سطحية، بينما تظهر في حناياها حشرجة الشّوق والوَلَه:

- أهلاً شارد!

وجلستْ مطرقةً إلى الأرض من جديد. وساد صمتٌ قصيرٌ، قطعته أمُّ نجم بلباقةٍ بأن وقفتْ قائلة:

- لا بدَّ أنَّ الماء تغلي في الرّكوة، دقيقتان!

أدارت ظهرها وانطلقتْ. ثمَّ ما لبثتْ أن برمتْ رأسها لتسألَ شارداً إن كان يريد أن تُحضرَ له فنجاناً، فرأته يتوثّب لأخذ يد منى، فعادت أدراجها متظاهرةً أنّها لم ترَ شيئاً.

قالت منى مُتلعثمة:

– سوف أغادر للعيش في بيروت الشّرقيّة.

– أعرف، أخبرتْني أمي أنّها نصحتك بذلك. حياتك وحياة عائلتك أهمُّ من كلِّ شيء.

– يغمرني الخوف ألّا أراك ثانيّةً أبداً.

شدّت على يده وأضافت:

– ولكن يجب أن نلتقيَ من كلِّ بدٍّ قبل رحيلي!

– أنا أحبّك فعلاً يا منى، أنتِ أهمُّ شخصٍ في حياتي. حين أكون معك، أو حين تخطرين في بالي أنسى كلَّ العالم.

– ألا يوجد إنسانٌ آخرُ في حياتك؟

فهم ما تريد قوله، وشعر بالغبطة مناجياً نفسه: «إذاً هي تغار! هي تحبّني فعلاً، وأنا الّذي لا أتوقّف عن الخوف أن تتركَني يوماً ما»، فنظر إليها بشغفٍ وقال مُتبسّماً:

– أجل، هناك أمّي وصديقي كريم، وتعرفين مدى تعلّقي بهما.

وأردف ليطمئنَها أكثر:

– نسيتُ جدّي، لقد مضى عليَّ وقتٌ طويلٌ لم أره فيه.

فتركتْ يده ومرّرتْ يدها على خدّه قائلة:

– أنتَ أحلى هفوةٍ ارتكبتها في حياتي.

– أتُسمّين حبّنا هفوة؟

- وما بها الهفوات؟ وما معنى الحياة من دون تلك الهفوات الجميلة التي تأسر قلوبنا من حين إلى آخر.

وبعد برهةٍ قصيرةٍ من الصّمت أردفت:

- ربّما تتساءل كيف يمكن لامرأةٍ مؤمنةٍ مثلي أن تقومَ بما أقوم به، وسيكون معك حقٌّ لو فكرتَ بهذه الطّريقة، فأنا نفسي لا أصدّق ما يحصل معي، أمرٌ خارجٌ عن إرادتي. ويبدو أنَّ الحبَّ الحقيقيَّ يتخطى كلَّ العقبات.

فتح فمه ليجيب، فوضعت إصبعيْها على شفتيْه تسكته قائلة:

- إنتظر، هناك شيءٌ أهمّ، ستخرج أمّك بعد قليل.

وسحبت من جيبها ورقةً مطويةً ناولته إيّاها بسرعةٍ وأردفت:

- هذا هو مكان اللّقاء، بعد غدٍ في الخامسة؟

- طيب، أكيد!

ما إن وضع العنوان في جيبه، حتّى قدِمَتْ أمّه حاملةً الصّينيّة وعليها فنجانا قهوة وفنجان شاي وقالت:

- أرى أنّكما لم تضَيّعا الوقت، هيّا عمّا كنتما تتكلّمان؟

- عنكِ!

قال شارد ضاحكاً، وأعقب:

- أنتِ ملاكٌ يا أمّي، من أخبرك أنّني أرغب بشرب الشّاي؟

بعد أن تركَهما، شعرتْ أمُّ نجم أنّه يجب عليها التّحدّث عن مسائلَ لا تمتُّ بصلةٍ إلى المشاكل والعلاقات، فقالتْ:

- أتعرفين يا منى، حين لم تأتِ البارحة كنت أنتظرك وحيدةً.

واستطردت:

- شعرت بالحيرة، ماذا أفعل في هاتيْن السّاعتيْن من الوقت؟ لم يكن عندي مكانٌ أذهب إليه.

- وبعد؟ أرى أنَّ هناك أمراً ما حصل معك.

- تعرفين أنّي لا أحب مشاهدة التّلفزيون، وخصوصاً إذا كنت وحيدة، ولكن للملل أحكامه، فأدرته مُنتقلةً من محطةٍ إلى أخرى، ووقع نظري على فيلمٍ كنت قد شاهدته سابقاً مع عائلتي. وفي ذلك الوقت، لم أستطع أن أعبّرَ بحريةٍ عن تأثّري بأحد المشاهد، حتّى إنّي أخفيتُ حينها بصعوبةٍ دمعةً نزلت من عيني. وبينما كنت أنتظرك وحيدةً قبل ساعة، في فترةٍ حسبتها مضيعةً للوقت، رجع المشهد ذاته، فبكيت من دون توقّفٍ كطفلٍ صغير، وشعرت براحةٍ كبيرةٍ بعدها.

- وما هي الحكمة من هذا الكلام؟

- الحكمة يا عزيزتي، هي أن تتأمّلي خيراً من الأوقات الضّائعة، فقد تخبّئ لك سعادةً لم تكوني تتوقّعينها.

- معك حق، ومنك نستفيد يا أمَّ نجم، والآن اسمحي لي بالانصراف فقد مضى وقتٌ طويلٌ على خروجي من المنزل وسوف يقلقون.

وقفت أمُّ نجم تودّعها على باب الشّقة، وكما هي عادة اللّبنانيّين، بدأتا بالكلام من جديد كما لو أنّهما التقتا توّاً، فقالت أمُّ نجم:

- حبيبتي منى، استمتعي بحياتك كما لو أنّك ستموتين غداً، عيشي ملذّات الدّنيا، كوني كما قال الفيلسوف الشّاعر أبو نُوَاس منذ نحو ألف سنة:

دعِ الرّسمَ الّذي دثرا يقاسي الرّيحَ والمطرا
وكنْ رجلاً أضاعَ العلمَ في اللّذّاتِ والخطرا

فضحكت منى قائلة:

- أجمل ما في هذيْن البيتيْن كلمة «أضاع»، فما ينصح به هو هدر

معرفتكِ وعلمكِ في اللذّة والسّعادة، ما هذه الفلسفة العبثيّة الجميلة؟

ونظرتْ إلى أمٍّ نجم متسائلةً بتودّد:

- بالمناسبة هل هذا ما تفعلينه؟ حين التقيت بك منذ فترةٍ في المركز العسكريِّ للحزب، حدستُ شيئاً ما في النظرات المتبادلة بينك وبين...ما كان اسمه؟

- طارق، اسمه طارق، ولكِ أن تدعي خيالك يسرح كما يريد!

قالت كلماتها مع الغمز والابتسام، ثم أردفت من دون أن تشعرَ بأيِّ إحراج:

- كم كان سيكون جميلاً لو يستطيع الإنسان أن يعيشَ لمرّةٍ ثانية، أن يعيدَ حياته من جديد، سيكون باستطاعته الاستفادة من أخطائه وأنْ يعيشَ بسعادةٍ أكبر.

وافترقتا على أمل اللّقاء الّذي ما كانت تعرف أيٌّ منهما إن كان سيحدث.

-2-

رغم تلقّي كريم مساعدةً يوميّةً من شارد، فقد رسب في صفّه، وها هو شارد يسبقه بسنتيْن دراسيتيْن، فانهماك كريم في العمل العسكريِّ كان يأخذ كلَّ وقته، وكان ينتقل من هذا المحور إلى ذاك كالعديد من أترابه.

شعر بالحزن، وخصوصاً بسبب والده الّذي كان يعوّل عليه كثيراً، ولمّا التقى بشارد في اليوم التّالي، كان قد بدأ يراجع حساباته. ما قاله له والده البارحة صحيح، إلى أين هو ذاهب؟ أيُّ مستقبلٍ ينتظر؟ ها هو شارد والكثير من رفاقه يعدّون العدّة للدّخول إلى الجامعة وهو سوف يعيد سنته. مشيا جنباً إلى جنبٍ على شاطئ البحر، شارد بحذائه الرّياضيِّ وهو بحذائه العسكريّ، وبعد فترةٍ من الصّمت قال شارد:

- لا بأس يا كريم سوف تنجح السّنة القادمة، ولكن يجب عليك، من الآن، أن تتّخذَ القرار بتخفيف نشاطاتك العسكريّة.

- أعرف يا شارد، أنا من النّاس الّذين يأسفون على عملٍ قاموا به أو قرارٍ خاطئٍ اتّخذوه، ولكنّي لا أندم أبداً، فمن يدري، فلربّما كان مسار حياتي سيتغيّرَ نحو الأسوأ لو أنّي نجحت.

- صحيح، وهذا يؤكّد نظريتي الّتي طالما حدّثتكَ عنها. الحياة ليست إلّا سلسلةً مترابطةً من الصّدف، ومعك حقٌّ ألا تزعل، فلربّما كانت في انتظارك صدفةٌ سيئةٌ وقلبتْ حياتك إلى مصيبةٍ ما.

سكت كريم هنيهة، وأحسَّ برغبةٍ في تغيير الموضوع، فجلس على

الرّمل النّاعم وجال بنظره في الأفق يتأمّل البحر، ثمَّ قال:

- ما أجمل بحرنا يا شارد؟ كم هو هادئٌ وشديد الزّرقة اليوم!

أجابه شارد متبسّماً:

- لا تزالَ كما أنت يا كريم، تذكّرني بطفولتنا في القرية، حين كنتَ تردّد كلّما التقينا تحت الزّيتونة: «هذا أجمل منظرٍ أراه في حياتي».

انشرح كريم قليلاً لهذه الذّكرى، وعادت إليه الابتسامة، وزاده شارد مرحاً حين سأله ساخراً:

- ألأنَّ بحرنا شديد الزّرقة نسمّيه نحن البحر الأبيض؟

- معك حقّ، غريب، لا أدري من أين جاءت هذه التّسمية، ما رأيك؟

- لا أعرف، وبأيّة حالٍ ربّما أجمل ما فيه هو قرص الشّمس البرتقاليّ، أتراه؟ أنظر إليه كيف سيتهاوى، ساقطاً خلف الأفق.

- رائع، والغريب هي السّرعة الّتي يسقط بها.

شاهد الصديقان المنظر بسكوتٍ تام، ولم تمضِ إلا دقائقَ حتّى ابتلع الأفق القرص الملتهب، تاركاً مكانه وهجاً أصفرَ جميلاً، تنهّد كريم عميقاً وقال:

- لماذا يا شارد يكثر الناس الحديث في السّياسة في بلدنا؟ وربّما يحصل ذلك في كل البلدان في طور التّطوّر؟

- معك حق، فالأوروبّيون لا يتكلّمون في السّياسة كثيراً، وكأنّ السّياسة عندهم مهنةٌ واضحة المعالم لها مختصّوها.

- أعتقد أنَّ السّبب أنّنا في خضمِّ الدّوامة، الأحداث يوميّةٌ وكبيرة، والحروب مستمرة، وبالإضافة إلى ذلك، فربّما هذا يشغلنا عن مصاعب الحياة اليوميّة الأخرى، خصوصاً المعيشيّة.

- أجل، هذا صحيح، ولكن، ألا تعتقد أيضاً أنَّ هناك أزمة ثقةٍ بين الشّعب والقيّمين عليه من السّياسيّين؛ فالإنسان في فرنسا عنده ثقةٌ كبيرةٌ نسبيّاً في قادته، يعرف أنّهم يعملون إلى حدٍ كبيرٍ لخيره وخيرهم، لمصلحته ومصلحتهم، بينما ترى القادة، وحتى النّاس، في البلدان النامية يعملون، بالدّرجة الأولى وقبل كلِّ شيء، لمصلحتهم الشّخصيّة.

هزّ كريم رأسه موافقاً وقال مُغيّراً الحديث:

- ألا تريد أن تصارحَني بما حصل بينك وبين مدرّسة اللّغة الفرنسيّة؟

- أنا أحبّها يا كريم، منذ رأيتها للمرة الأولى حين كان عمري ثماني سنوات أحببتها، وهي كذلك.

لم يستطع كريم أن يمنعَ نفسه عن الضّحك ما أزعج شارداً، فسأله:

- لماذا تضحك؟

- ولكنّها تكاد تكون بعمر أمّك، أفهم أن تحبَّها ولكن أن تحبّك هي؟

- أعرف أنّه حبٌّ غريبٌ، ولكنّه حقيقيّ.

- ماذا أقول لك؟ ولكنَّ لي رأيي الخاصُّ بهذا الموضوع.

- ما هو؟

- برأيي، إنَّ حُبَّ المراهقة والشّباب يكون، في أكثر الأحيان، عبارةً عن خليطٍ من الشّغف والجنس، أما الحبُّ الحقيقيُّ فهو نادر الحدوث، لا يصادفه إلّا القلّة من النّاس، وفقط بعد سنِّ النّضوج، ويبدأ دائماً صغيراً ثمَّ يكبر ويتبلور شيئاً فشيئاً، كأنّه يُطبخُ على نارٍ هادئة.

- تتكلّم كلاماً أكبر من عمرك، وربّما معك حقٌّ بالمبدأ ولكن لكلِّ قاعدةٍ شواذها الّذي يؤكّدها.

بدأ يحلُّ الظّلام، فانطلقا آخذيْن طرقاً ملتويةً للوصول إلى بيتيهما

خوفاً من القنّاصة المُتربّصين، أو من اشتباكٍ طارئٍ بين فئتيْن عدوتيْن، أو، أحياناً، صديقتيْن، واقترح كريم أن يلتقيا في الغد بعد الظّهر في مركز الحزب، فوافق شارد ولكنّه أعلمه أنّه يجب أن يتركَ المركز في الرّابعة، وافترقا.

في اليوم التّالي، كان المركز يعجُّ بالرّفاق حين وصل شارد، ووجد كريم يرتدي بزّته العسكريّة يُهيّئ نفسه للانطلاق مع رفاقٍ آخرين إلى الجبهة في الجبل، وكان المسؤول يعطيهم تعليماته الأخيرة، ينتقل من رفيقٍ إلى آخر بنبرةٍ حاسمة، مُتجوّلاً مُختالاً كالطّاووس.

«هذا هو طارق من دون أدنى شكّ»، قال شارد في نفسه. منذ حدّثه غيفارا عن تلك السّهرة الّتي قضياها مع والديْه، وهو يجد فيه شخصاً مقيتاً من دون أن يكونَ قد التقاه، وحدس من الحسرة الّتي كان غيفارا يتكلم بها أنَّ الأمور لم تجرِ لمصلحته وأنَّ أمّه أصبحت منذ ذلك الوقت تحت كنف طارق، وشعر آنئذٍ بالعار الّذي لحق بأبيه، وتعجّب من نفسه كيف كان ينظر إلى علاقة أمّه بغيفارا بإيجابيّة، بينما أصبح يراها الآن مع طارق خيانةً مذلّة. وكأنَّ المواقف الّتي يتّخذها الإنسان كاذبةٌ ونسبيةٌ وفيها مشاعر متناقضة.

ورجع بذاكرته إلى ذلك الحديث مع غيفارا. تذكّر كيف كان يتكلّم بأسىً وندمٍ كطفلٍ فقد توّاً لعبته المُفضلة، وناجى نفسه متسائلاً: «لماذا فتح معي هذا الحديث؟ هل كان يريد منّي مساعدته لاسترجاع أمّي؟ وهل أصبحَ موقفي العبثيّ من الحياة واضحاً لدرجة أن يتجرّأ ويوحيَ إليَّ بطلب كهذا؟ وهل أنا لا أهتمُّ فعلاً بخيانة أمي وتغيّرها من امرأةٍ رصينةٍ وعاقلةٍ إلى عاشقةٍ وَلْهى تنتقل من رجلٍ إلى آخر؟».

قطع طارق عليه حبل تفكيره بأن مدَّ له يده مُصافحاً:

- إذاً، أنت هو شارد!

ثمَّ توجّه إلى كريم قائلاً:

- تأخرتَ يا كريم كثيراً بتعريفي إليه، أخبرني والداه الكثير عنه لدرجة أنّي كنتُ توّاقاً للقائه!

«يا له من وقحٍ مغرور!»، قال شارد في نفسه، وصافحه ناظراً مباشرةً إلى بسمته المُتعجرفة ولسان حاله يقول: «كم أحتقر هؤلاء العسكر، يملكون جمجمةً فارغةً كالطّبل».

شرب الجميع الشّاي بانتظار الشّاحنة العسكريّة الّتي سوف تنقل كريم ورفاقه إلى الجبهة. وفي هذا الوقت، حاول طارق التّقرب من شارد، فجلس قربه يحدّثه ناصحاً إيّاه بالاهتمام بدرسه ومُستقبله، وعدم الدّخول في دوامة العسكر. فأمّه لن تقوى على احتمال فقدانه، ما جعل شارداً يزداد كرهاً له وللمسؤولين أمثاله، الّذين يرسلون الصّبيان والشّباب الغرباء إلى الموت. أمّا حين يتعلّق الأمر بأشخاصٍ مُقرّبين، فإنّهم يُبعدونهم عن هذا الجوّ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كان شارد ينظر إلى ساعته من حينٍ إلى آخر. فظنَّ طارق أنّه يشعر بالملل، واضطرَّ لتغيير موضوع الحديث مراراً. ما كان يعلم أنَّ كلَّ تفكير شارد كان ينصبُّ في تلك اللّحظة على موعده مع منى الّذي بدأ يقترب. وقبل أن تحلَّ السّاعة الرّابعة بقليل، انتفض واقفاً، ونبس بكلماتٍ مقتضبةٍ غير مترابطةٍ تماماً وخرج بسرعة. فلحق به طارق واستوقفه قبل أن ينزلَ الدّرج مُمازحاً:

- ما بالك؟ هل أنت ذاهبٌ إلى المعركة؟ سُررت كثيراً بمعرفتك، سلّم على والديك!

-3-

صحيحٌ أنّه كان لدى شارد ساعةٌ من الوقت قبل حلول موعده مع منى في الخامسة، وأنَّ المكان الّذي كانت قد حدّدته له للّقاء قريب من المركز، ولكنّه، على الرّغم من ذلك، وصل متأخّراً دقائقَ عن الموعد، إذ إنّه اضطرَّ لسلوك طرقٍ ملتوية.

كانت منى تزداد اضطراباً كلّما اقترب موعد اللّقاء. وبدأت تذرع الغرفة الفارغة، إلّا من كرسيّين، ذهاباً وإياباً، وترنو من حينٍ إلى آخر بنظرها باتّجاه الباب منتظرةً طرَقات شارد الأربع الّتي اتّفقا عليها، وكأنَّ إرهاق الحمْل الّذي كانت تشكو منه منذ أيامٍ قد اختفى. وبدأت تتساءل مُضطربة: «لقد تأخّر، هل حصل له مكروه؟ ما كان يجب أن ألاقيَه في هذا الحيِّ القريب من خطِّ التّماس الأخطر في بيروت!».

حاولت لجم توتّرها بالنّظر إلى الدّهان المُهترئ على الحيطان، والمكتوب عليها بالأحرف العريضة، وبألوانٍ مُختلفةٍ أسماءَ تدلُّ على أنَّ هذه الشّقة كانت مركزاً عسكريّاً قد تمَّ إخلاؤه، «أبو الجماجم»، «أبو حديد»، بالإضافة إلى شتائم للأحزاب المعاديّة ولقادتها.

ولم تكد تسمع صوت أقدام تتوقّف أمام الباب حتى بدأ قلبها يخفق بشدة. واتّجهت مسرعةً وفتحت الباب عند سماعها الطرقة الأولى، وأمسكته من يده تجرّه إلى الدّاخل. نسيت ما كانت تفكّر فيه قبل دقائقَ عن كلمات اللّوم والتقريع الّتي كانت تريد أن تعنّفَه بها لتأخّره، واحتضنته فوراً بشوقٍ من دون أنْ تتركَ له المجال للكلام. وجرّته إلى

الغرفة المجاورة، الّتي كانت في ما مضى غرفة نومٍ لعائلةٍ عاديّة، وألقت به على البساط المرميِّ وحيداً على الأرض، ومارست الجنس معه بعنفٍ وشهوانيّةٍ لم يعهدهما فيها من قبل، لم تترك مكاناً من جسمه إلّا ولمسته أو قبّلته. كانت تشعر أنّها ربما لن تراه بعد ذلك أبداً.

وصلت إلى النّشوة مرّاتٍ من دون أن تكتفيَ، ولكنّها شعرت بالرّغبة في التقاط أنفاسها، فنزلت عنه واستلقت على البساط عارية، تتصبّب عرقاً في هذا اليوم الحارِّ من تموز، شاخصةً ببصرها إلى السّقف ويديْها ممدودتان كالمصلوبة، تلهث كما لو أنها أكلت توّاً حتّى التّخمة وجبةً حصلت عليها بعد جوعٍ طويل.

بعد دقائقَ، استرجعت تنفّسها الطّبيعيَّ وتذكّرت عطشها، فاستوت جالسةً وتناولت من حقيبتها قنينة ماء، شربت نصفها وأعطتها لشارد الّذي أكملها حتّى آخرها، وارتدَّ مستلقياً من جديد، حالماً كعادته. فمالت نحوه متّكئةً على كوعها الأيسر وباشرت ملامسة شعره النّاعم الأملس بأصابعَ يدها اليمنى. وبعد ثوانٍ من الصّمت قالت:

- أتعرف صديقتي غزل؟

- أجل أذكرها عندما كنت صغيراً.

- أتعرف أنّها ماتت؟

- لا، هذا مؤسف، ماتت باكراً، هل كانت مريضة؟

- لا، قُتِلتْ بطلقة قناصٍّ منذ أشهرٍ بينما كانت تمرُّ قرب معبر كنيسة مار مخايل.

سكتت قليلاً، كأنّما تتردّد في قول أمرٍ ما، ثمَّ قالت:

- لم تسألني عن السّبب الّذي جعلني أتذكّرها!

وقبل أن يجيبَ نظرت إليه بابتسامةٍ رقيقةٍ وأضافت:

- هل لاحظتَ الشّغف العنيف الّذي مارستُ به الجنس معك؟

ونقرت بإصبعها نقرةً خفيفةً على أنفه واستطردت:

- كنتُ كمن تغتصبك، وحينها خطرت غزل في رأسي كشعاعٍ عابر، كانت امرأةً شبقةً لا تستطيع مقاومة رغباتها الجنسيّة، وأنا حين ألتقيك أكون مثلها تماماً. فكما يبدو، كلُّ امرأةٍ منّا لها لحظاتها الشّبقة الخاصّة بها.

- ولكنّها آنيّةٌ وظرفيّةٌ عندكِ، على ما آمل.

- أجل، طبعاً يا حبيبي، حدّدْتُ وقلتُ لكَ «الخاصّة»، أنت رجلي الوحيد، معك أعيش أجمل أيامي، من دونك أنا لا شيء، أنتَ من جعل منّي أنثى.

- هل فعلاً لم تحبّي زوجكِ قطّ؟

- أبداً، ومنذ فترةٍ بدأت أقتنع أنّني أكرهه، وطلبت منه الانفصال مراراً ولم يوافق، أعتقد أنّه بدأ يصبح خبيثاً.

فسكت هنيْهةً والغبطة تملأ كيانه، ثمَّ قال:

- لقد قرأتُ منذ أيام قصيدة «صلوات في هيكل الحب» لأبي القاسم الشابيّ، الشّاعر التونسيُّ المشهور، لقد سمعتِ عنه طبعاً، إنّها في غاية الروعة.

- طبعاً سمعت عنه، ولكنّي لا أعرف القصيدة الّتي تتكلّم عنها، ما همَّ، وبعد؟

- حين وصلتُ إلى البيت الّذي يقول فيه:

أنتِ، ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ عبقريٌّ من فنِّ هذا الوجودِ

أتعرفين ماذا خطر في بالي حينها؟

تابعت مداعبة شعره بأصابعها الرّقيقة وقالت:

- بالتّأكيد لا أعرف، قلْ لي!

- تذكّرتُ أجمل لوحةٍ لم تفارق خيالي قطّ.

- بدأتُ أتحمّس، هات أخبرني!

أخذ تنهيدةً عميقةً ونظر إليها وقال:

- تذكّرت أوّل مرّةٍ رأيتكِ فيها عندما كنتُ طفلاً، حين وقفتِ أمامنا في الصّف تُعرِّفين عن نفسكِ، استرقتُ حينها نظراتي إليك خلسةً كاللّصّ الخائف، ولا أنسى كيف فصَّلتُ تقاسيمَ وجهك وجسدك، لقد انغرزت هذه اللّوحة في ذاكرتي، كأجمل مشهدٍ رأيته في حياتي، وربّما، لم أرَ فيما بعد ما يضاهيه جمالاً، كم كانت جميلةً تنّورتك السّوداء!

ضحكت عالياً فتردّد صدى صوتها في الغرفة الخالية من الأثاث، وقالت من دون أن تستطيعَ التّوقّف عن الضّحك:

- ألم تنسَ لون التّنّورة؟ على كلٍّ، أعتقد أنَّ كلَّ الأشياء الجميلة الّتي نسرقها خلسةً لا تُنسى.

وقبل أن يقولَ لها إنّه يوافقها الرّأي في المبدأ، ولكنَّ تلك اللّحظة كانت شيئاً آخر، تبسّمت وقالت وهي لا تزال تنكش شعره:

- كم كان عمرك وقتها؟

- ثماني سنواتٍ على ما أعتقد.

- وعمري؟

- أنتِ قولي!

- كنت في الثّالثة والعشرين، وها أنا عشيقتك، ألا تجد هذا غريباً؟

- ولماذا؟ فالحبُّ ليست له قواعدَ ولا قوانين، وعلى فكرة، فقد كان

نهداك يبرزان من فتحة القميص الأحمر الّذي كنتِ ترتدينه.

قرصته من زنده فتألّم مسروراً وقال:

- أتعرفين يا منى، قليلةٌ ونادرةٌ هي اللّحظات القصوى في الحياة، منها السّعيدة الّتي نتمنّى لو يقف عندها العمر ولا يمضي إلى الأمام أبداً، ومنها التّعيسة الّتي نتمنّى فيها لو تختفي هي أو نختفي نحن من الوجود.

- آهٍ منك يا شارد، أنت إنسانٌ آخر، سوف تصبح فيلسوفاً من دون أدنى شكّ.

- ولا أنسى أيضاً يوم عقدتم الاجتماع في بيتنا، حين أقفلتم عليكم غرفة الاستقبال، انتظرتك حزيناً لأنّني لم أستطع رؤيتك قبل الاجتماع، وفرحاً في الوقت نفسه لأنّني سوف أراك بعد قليل.

توقّف قليلاً وهي تنظر إليه برغبةٍ ثمَّ تابع:

- لا أعرف إن كنتِ مررتِ بشعوريْن متناقضيْن في آنٍ معاً، فهذا من أجمل الأحاسيس وينغرز في الذّاكرة كوتدٍ من حديد، فكأنّ النّسيان يتقصّد ألّا يمحو الذّكريات الجميلة الّتي نختلسها، بل يتركها لنا لنتنعّم بها لاحقاً.

كانت قد بدأت مداعبته واستفزاز غرائزه، وأمضيا ساعاتٍ غير آبهيْن بالوقت الّذي يمرُّ وبالليّل الّذي أسدل عليهما عتمته، وبالخطر الّذي سوف يكون رفيقهما في رحلة الخروج من هذا الحيِّ المهجور، أنهكته كما لو أنّها كانت تريد امتصاص كلّ رحيقٍ دفينٍ من رغباته الجنسيّة.

لم تخبره عن موعد رحيلها المفاجئ في الغد، إلّا عندما وصلا إلى برِّ الأمان قرب بيتها. وكم أراد حينها لو يستطيع معانقتها واحتضانها إلى الأبد، أو على الأقلِّ أن تنفشَ شعره كما فعلتْ يوم فراقهما الأول. ولكن ما أكثر العيون الحشريّة الّتي تراقب في شارع مار الياس. لم يسألها عن سبب تقديم الموعد، بل شعر بالرّاحة. فقد كان بدأ يخاف عليها من

البقاء في المنطقة المسلمة. أخذ يدها مصافحاً، وسألها:

– أتذكرين ماذا قلتِ عند فراقنا الأول؟

– أجل، قلت لك إنّي سوف أشتاق إليك، وسألتك إن كنت ستشتاق إليّ أنتَ أيضاً.

– لن تبارحي مخيّلتي أبداً، لن أتوقّفَ عن هُيامي بكِ ما دمت حياً.

تسلّلت من عينها دمعةٌ استقرّت على وجنتها مسحتها بسرعة. وتلفّتت يمنةً ويسرة ثمَّ قبّلته من خدّه وهمست في أذنه: «سمعتك تقول لي بينما كنتَ تقبّلني أنّ البدانة تلائمني، هذه ليست بدانة يا شارد، إنّي حامل»، ووضعت يده على بطنها قائلة: «إنّه ولدك!» شهق متفاجأً فيما انصرفت هي مبتعدة، بقي واقفاً في مكانه مشدوهاً، فرحاً وحزيناً، يشاهدها تمضي كخيالٍ عتيق، حتّى اختفت في الزّاروب الفرعيّ.

-4-

أمضى شارد الأيام الأولى بعد رحيل منى كئيباً، وانزوى في البيت لا يخرج منه إلّا نادراً، لاهياً نفسه بقراءة رواية «أولاد حارتنا» للرّوائي المصري نجيب محفوظ، الّتي كانت منى قد أهدته إيّاها حديثاً. وشعر أنّه بات لا يرجو شيئاً من هذه الحياة، ويتمنّى عند خلوده إلى النّوم ألّا يستفيق أبداً. حاولت أمّه مراراً وتكراراً جرّه إلى الحديث عن سبب كآبته، من دون أن تستطيعَ جعله يعترف بما ترتاب به إلى حدِّ اليقين.

كانت خطوط الهاتف مقطوعة، فلم يجد كريم بداً من الذّهاب للاطمئنان إلى حالة صديقه، وهو الّذي تعوّد أن يراه كلَّ يوم، حين لا يكون في مَهمةٍ حزبية.

لم يُخفِ شارد سروره بزيارة صديقه، على الرّغم من أنّه كان ينتظرها، وكذلك أمُّ نجم. فهي ما إن فتحت الباب لكريم، حتى بدأت تلومه لترك صديقه أياماً من دون أن يسألَ عنه. وبينما كانت تقوده إلى غرفة الجلوس، حيث شارد يشرب الشّاي مع والده، لم يستطع أن يرفعَ عينيْه عن مؤخّرتها المرسومة تحت قميص نومها الشّفاف، ما جعله يشعر بتأنيب الضّمير، وهو المثاليُّ الحريص على القيم الأخلاقيّة.

تصافح الصّديقان واقترب كريم من أبي نجم الّذي عانقه بحرارة، عاتباً عليه هو الآخر لمروره النّادر لزيارتهم، ثمَّ استلمت أمُّ نجم دفّة الحديث مقاطعةً زوجها، الّذي خضع خانعاً، كما هي العادة منذ ليلتها الأولى مع طارق. وما إن أنهت كلامها حتّى انتصبت واقفة، وطلبت من

زوجها ترك شارد وكريم بمفردهما. وقبل أن تصلَ إلى الباب خارجة، قالت لزوجها بلهجةٍ آمرةٍ من دون أن تلتفتَ إلى الوراء ألّا ينسى أن يسكبَ الشّاي لكريم.

ما إن اختليا ببعضهما، حتّى نظر كريم إلى شارد وقد ازداد نحولاً، وتعلو وجهه سحنةٌ من الحزن والألم، وسأله:

- ماذا؟

أشاح شارد بوجهه نحو الشّرفة وقال:

- أنا أحبّها فعلاً، كيف سأتابع حياتي من دون أن أراها، وربّما لن أراها أبداً بعد اليوم. أعرف أنّك كنت تظنُّ أنَّ تعلّقي بها سببه الجنس ليس إلّا، ولكنّك مخطئ، فحياتي الآن شبه خاوية، أعيش فقط على أمل اللّقاء بها.

- معك حق، هذا ما كنت أظنّه في البداية، ولكنّي في الفترة الأخيرة غيّرت رأيي، إنّما هذا لا يعني، يا شارد، أن تنزويَ وحيداً، فالحياة يجب أن تستمر، ولماذا التّشاؤم، فالحرب ستضع يوماً ما أوزارها وسوف تلتقيان.

- ما يعزّيني، أنّها استطاعت الاتّصال بي منذ يومَيْن، وأخبرتني أنّها بخير، لقد أصبحت في شهرها الخامس، وستلد في الخريف.

ضحك كريم وقال:

- ألله أعلم، ربما أنت والد الطّفل وسوف تصبح أباً.

سُرّ شارد بملاحظة صديقه وانشرحت أساريره، مع أنَّ هذا الأمر، منذ أعلمته به منى، كان يؤرّقه قليلاً. فماذا لو أنجبت الطّفل وظهر الشّبه به؟ ألن تقعَ في المشاكل مع زوجها وعائلتها؟ ولكنّه أخذ نفساً عميقاً كمن يعلن العزم على تخطّي عقدةٍ ما، وقال:

- معك حقٌّ يا كريم، يجب أن ننظرَ إلى الحياة بتفاؤل، وأن نرى النّصف

المليء من الكّوب وليس النّصف الفارغ.

وبعد شرودٍ قصيرٍ استعاد رغبته في النّقاش، فتوجّه إلى صديقه سائلاً:

- سمعتك تقول ألله أعلم؟ ألا تزال مؤمناً بوجود الله يا كريم؟

- ها أنتَ تبدأ من جديد أيّها الفيلسوف، لا تستطيع إلّا أن تعلّق، صحيح أنّني شيوعيّ، ولكنّك تعرف أنّي مؤمن، ولا أزال أصلّي وأصوم. ومن جهتكَ، لا أشكُّ أبداً أنّك لا تزال مؤمناً بعدم وجود إلهٍ خالق، وبمناسبة هذا الحديث فأنا أؤيّد اختيارك دخول الجامعة لدراسة مادّة الفلسفة، دراسة تناسبك تماماً.

- شكراً يا كريم، فعلاً هذا هو الخيار الأقرب إلى شخصيّتي، ولكن في الوقت نفسه لا خيار آخر لديَّ، فإمكانات والدي الماديّة لا تسمح لي بالذّهاب بعيداً في العلوم كالطّبِّ أو الهندسة مثلاً.

وسكت قليلاً ثمَّ تنهّد وأردف:

- سأعود إلى موضوعنا، أجل لا أزال مؤمناً بالعبثيّة المطلقة لهذه الحياة. لا أزال عند رأيي أنّها ليست إلّا سلسلةً مترابطةً من الصّدف.

- إذاً لا يجب أن تتألّمَ أو تزعل، ولا أن تفرح.

- صحيح، ولكن هذا ليس بيدي، فالعواطف تنمو معنا بالفطرة، وهي أيضاً تابعةٌ لمبدأ الصّدفة نفسه.

- دائماً ترى الأمور بسيطة، ولكنّك ما زلت لا تستطيع تفسير كيف خُلقَ هذا الكائن البشريِّ المعقّد.

وأجاب شارد صديقه سائلاً:

- أتعرف يا كريم لماذا أخذ العالم كالفين جائزة نوبل سنة 1961؟

وأعقب قبل أن يتسنّى لكريم الإجابة:

– نالها على إنجازٍ قام به سنة 1952 عندما استطاع إدخال عنصر الكربون في جزيئاتٍ لتتشكّل جزيئات عضويّة أخرى.

ثمَّ أردف:

– بكل بساطةٍ يا عزيزي، في فترةٍ ما، تكوّنت شروط الحياة على كوكبنا، وخصوصاً الماء والضّوء، بوجود الكربون والأوكسيجين والهيدروجين وبقيّة العناصر الكيميائيّة، كان لا بدَّ للصّدفة أن تحصلَ في وقتٍ ما مع مرور الزمن لتجتمعَ هذه العناصر في جزيئاتٍ عضويّة، وخصوصاً الحوامض الأمينيّة، وهكذا تشكّلت بداية الحياة ثمَّ تطوّرت خلال ملايين السّنين إلى ما نحن عليه.

وتابع قائلاً بينما كريم ينصت إليْه بشغف:

– يا كريم، إنَّ مادة الـD N A، الّتي تحمل جيناتنا الوراثيّة هي نفسها عند كلِّ المخلوقات.

ثمَّ أصدر لأوّل مرّةٍ بعد غرقه لأيامٍ في الكآبة، ضحكةً مسبوكةً بالحزن، وقال:

– لا تسألني الآن من خلق الكربون وغيره من العناصر، فبالتّأكيد ليس عندي الإجابة عن كلِّ شيء.

– إذاً، أوليس أسهل بكثير أن تقولَ إنَّ هناك خالقاً لكلِّ هذا وانتهى الأمر؟

– معك حق، كان هذا ليكونَ أسهل، ولكن ليتني أستطيع.

كان كريم قد بدأ يقتنع بعبثيّة هذه الحياة، ولكنّه كان يرفض الإقرار بأنَّ وجودنا كلّه مجرّد صدفة، لا بل كان يطرد هذه الأفكار كلّما راودته. فماذا لو كان شارد مخطئاً والتقى ربّه بعد وفاته، فكيف سيبرّر له انزلاقه

في الإلحاد. تناول فنجان الشّاي، وقلّبه بين يديه، ثمَّ رشف رشفةً كبيرةً وهمَّ بالكلام، إلّا أنَّ أمَّ نجم دخلت عليهما مرتديةً بنطلون جينز ضيقاً، وقد صفّفت شعرها الأسود القصير بشكلٍ يظهر عينيْها الخضراويْن تسبحان على وجهها الأسمر. أوصت كريم أن ينتبهَ لشارد وأن يلازمَه قدر المستطاع، ونصحتهما بالتّنزه في شوارع المدينة، ثمَّ استأذنت وخرجت مسرعة.

«هي بلا شك ذاهبة للقاء طارق»، قال كريم في نفسه. وفهم شارد ما يجول في مخيّلة صديقه. ومع أنّه خرج حاقداً على طارق بعد لقائهما الأوّل في المركز، إلّا أنّه عاد وراجع رأيه فيه في هذه الأيام الأخيرة الّتي قضاها وحيداً. كان هُيامه بمنى قد أعمى بصيرته، فلم يلاحظ أيّة بهجةٍ ظهرت أخيراً في عينيِّ أمّه وأيّة غبطةٍ ملأت حياتها، ولهذا لم تعد هذه العلاقة تزعجه كثيراً، مع أنّه كان قد بدأ منذ فترةٍ يشفق على والده، المغلوب على أمره، وعلى غيفارا، الّذي يزورهما من حينٍ إلى آخر فيلتهمها بعينيه نادماً ومتحسّراً.

أمام إصرار كريم، وافق شارد على الخروج. ولمّا مرّا أمام مركز الحزب، لم يعرّجا كالعادة، خوفاً من مفاجأةٍ ما هناك، بل تابعا السّير باتّجاه بيت كريم.

ما إن اقتربا من المنزل حتّى لمحا شقيق كريم، الّذي حالما رآهما توجّه صوبهما مسرعاً، ونادى بأعلى صوته: «أين كنتَ يا كريم؟ لقد بحثنا عنك في كلِّ مكان»، فحدس كريم أمراً سيّئاً في نبرة صوت أخيه وقرأه على وجهه المتجهّم. أخذه أخوه من يده ودخلا البيت من دون أن ينبسا ببنت شفة. ولمّا سمع كريم ولولة أمه وقد ارتمت على الأرض، عرف أنَّ أباه قد مات، فكان قد حصل اشتباكٌ بين تنظيميْن مسلّحيْن

للسّيطرة على المنطقة، سقط فيه عددٌ من القتلى المدنيّين، من دون أن يُصابَ أيُّ مقاتلٍ بأذى، كما جرت العادة في الحرب اللّبنانيّة، وكان قد صدف مرور والده هناك.

لم يستطع كريم أن يمنعَ نفسه من البكاء، وأكثر ما آلمه أنَّ إصابة والده كانت في رجله وكان بالإمكان أن يعيشَ ولكنّه نزف حتى الموت من دون أن يستطيعَ أحدٌ الاقتراب منه لإسعافه. وازداد تأثّره حين اقتربت منه أخته الّتي لم تبلغ بعد العاشرة من عمرها، فاحتضنها وأجلسها على ركبته، لاجماً بكاءه قدر ما استطاع.

مرّت أيامٌ لم يترك شارد فيها صديقه، إلّا ليذهبَ للمبيت في اللّيل، واكتشف تغيّراً في كلامه، ووعياً جديداً يتبلور في شخصيّته. تحدّث كريم لأوّل مرّةٍ عن مشاكله، وتفجّرت مشاعره بلوم نفسه على فشله الدّراسيّ، مُرجعاً السّبب، إلى تنشئة والده له منذ صغره كشخصٍ قليل القيمة، لينموَ بثقةٍ مهزوزةٍ بنفسه، غير قادرٍ على مجابهة الحياة.

وكمن يتوقّف أثناء ركضٍ من غير وجهةٍ ولا هدف، أسرَّ كريم لشارد أنّه قرّر ترك السّلاح، والذّهاب للعمل في أفريقيا مع أخواله، فلا مستقبل له في الدّراسة، وها هي أمّه وإخوته قد أصبحوا بلا معيل. أيّده شارد، على الرغم من حسرة الفراق المحتّم، فكريم هو صديقه الوحيد تقريباً. وها هي وحدته الّتي طالما عانى منها تنقضُّ عليه من جديد كطائرٍ جارح، فيفترق في فترةٍ وجيزةٍ عن حبيبته وعن صديقه، إلى أجلٍ ربّما لن يأتيَ.

لم تمضِ أسابيعُ حتى تلقّى شارد الرّسالة الأولى من كريم، يخبره فيها أنّه ينتج أكثر ممّا كان يتوقع، ثم ألحقها بعد فترة برسالة أخرى يعلمه أنّه يستعدُّ لفتح مؤسّسته الخاصّة، واقترح عليه موافاته ليعملا معاً.

-5-

حين جاءت عمّة شارد لزيارتهم في بيروت، حاملةً معها سلةً من البيض البلديِّ وسطلاً من اللّبن، استقبلها أبو نجم بحرارةٍ بالغة، لائماً إياها، في الوقت نفسه، على مكابدة عناء المجيء إلى بيروت في هذا الجوِّ المحفوف بالمخاطر، واكتشف عند رؤيتها بعد طول فراق، مدى إهماله لعائلته في الفترة الأخيرة. فمنذ عودة والديْه إلى قريتهم، لم يزرْهم فيها إلّا مراتٍ قليلة، حتّى عندما عرف بمرض والده، الّذي اقترب من سنِّ الثّمانين.

كان قد قاطع والده منذ انتقاله للسّكن في بيروت الغربيّة، عندما رفض طلبه لمساعدته في شراء منزلٍ بدلاً من دفع الإيجار المُكلف، مع معرفته أنَّ الزّمان كان قد دار على الجدِّ أبي ابراهيم، من مرض زوج ابنته زينب العضال واضطراره إلى إعالة عائلتها الكبيرة، وطلاق ابنته الثّانية، ومرض زوجته ثمَّ مرضه، يُضاف إلى كلِّ هذا أنَّ الزّراعة لم تعد مصدر رزق كما في السّابق، وتابع بيع أراضيه حتّى لا يقعَ في العوز، وحتّى لا يظهرَ عليه فقرٌ بعد غنى، وهو الأبيُّ الكبير النفس.

ودّع أبو نجم أخته ومشى باتّجاه الشّرفة مطأطئ الرّأس، يداه في جيبيْه، وبدأ يذرعها جيئةً وذهاباً، يستعرض سنواته الأخيرة، الّتي لم تكن أقلَّ وطأة عليه ممّا كانت على والده. فقد أرهقه النّزوح المتوالي من منزلٍ إلى آخر، والمصاعب الماديّة الجمّة منذ كفَّ والده عن مساعدته،

ثمَّ زنى زوجته العلنيِّ والمكشوف، حتّى إنَّ الضّوء المشعَّ الوحيد خلال هذه السّنين، حين عادت غزل إلى حياته، انطفأ فجأة، وكأنَّ قدره يسخر منه.

دخل الصالون وتمدّد على الكنبة مغمض العينيْن، واستعرض وجهها حين كانت تطلق ضحكتها الرنّانة، فتغرق عيناها العسليتان، على الرّغم من وسعهما، في وجهها الممتلئ المُغمّز. استشعر اللّذة الّتي كانت تهبه إياها، والّتي لا تزال تسكن في كلِّ تفاصيل جسده. ورجع بعيداً إلى خلوتهما الأولى كيف فكّت شعرها الأحمر المربوط إلى الوراء لتتركَه ينسدل على صدرها المنمّش.

لم ينتبه لأمِّ نجم وقد أصبحت فوق رأسه تماماً.

- بماذا أنتَ شاردٌ يا أستاذ؟

سقطت كلماتها عليه كدوش ماءٍ بارد، فوقف منتفضاً وقال وهو يبرم رأسه ببطءٍ يميناً وشمالاً كالآلة:

- لا شيء، كنتُ أفكّر في ما لو ذهبنا إلى القرية غداً.

- معك حقّ، علينا أن نقومَ بهذه الزيارة، طالما فكّرت في ذلك، ولكنّي أفضّل أن نذهبَ بعد غد.

- كما تريدين، وربّما، نستطيع البقاء لأسبوعٍ أو أسبوعيْن، فالعطلة الصّيفيّة طويلة.

قالت وقد رفعت نبرتها قليلاً:

- لابأس، ولكن يتوجّب عليَّ النّزول إلى بيروت من حينٍ إلى آخر لأتفقّدَ البيْت.

وتركته يحلم من جديد.

نظر إليها تخرج متراقصةً بجينزها الملتصق بجسمها، لم تتقصّد إثارة ما تجيش به نفسه من رغبةٍ مكبوتةٍ وغيرة. فقد اعتادت في الفترة الأخيرة أن تُظهرَ له مفاتنها، ناسيةً كونه رجلاً. وأصبحت تعتبره مثل حيوانٍ أليفٍ تمتلكه. لم تكن تدرك أنّه ربّما انفجر ذات يوم كحيوانٍ ضارٍ وافترسها.

«تريد أن تتفقّدَ طارقاً وليس البيت»، قال في نفسه، «وتريد أن تؤجّلَ الذّهاب ليومَيْن حتّى تستطيع توديعه، وها هي تعاشره الآن بمعرفتي، وهي تعرف أنّني أعرف، من دون أن يرفَّ لها جفن، والله أعلم، فربّما تضاجعه أيضاً في سريرنا الزّوجيّ، حتّى إنّها، هذه المومس، لم تعد تكترث لتلميحات نجم القاسيّة لها، بل تتحدّاه كأنّه ليس ابنها، وتدعوه إلى ترك البيت إذا أراد واستئجار بيتٍ آخرَ مع أصحابه الفاشلين مثله. وأصبحت لا تهتمُّ بما سوف يقوله النّاس عنها وكم سيؤثّر هذا على ابنتها الشّابّة المقبلة على الزواج». وتابع مناجاته: «لست فقط ابناً عاقّاً مع والدي، إنّما أصبحت أيضاً رجلاً خسيساً بلا كرامةٍ لا تؤثّر بي الإهانة، فلأذهب إلى الجحيم».

بعد يومَيْن، حزموا حقائبهم وانطلقت العائلة في السّيارة القديمة الطّراز الّتي كان أبو نجم قد اشتراها حديثاً، إلّا نجم، فقد فَضَّلَ البقاء مع شلّة أصدقائه، الّذين، كحالته، نزح أكثرهم من قرية فطر في السّنين الأخيرة.

ما إن وصلت أمُّ نجم إلى القرية، حتى باشرت بتنظيف المنزل، تساعدها ابنتاها. وفي ساعات، كان البلاط يلمع والجدران قد أزيل عنها كلَّ أثرٍ لخيوط العنكبوت، والأسرّة جُهّزَتْ بالشّراشف الّتي حملتها معها من بيروت، بينما أبو نجم ظلَّ متمدّداً على الكنبة في غرفة الجلوس، وقد تقصّدت ألا تطلبَ منه المساعدة، وهو لم يعرضها، وكأنّها كانت تريد

تذكيره أنَّ البيت ملكها، فهي لا تزال تحتفظ بوثيقة ملكيّته الّتي أعطاها إيّاها والده بعد الانتهاء من بنائه منذ أكثر من عشرين عاماً.

قبل أن تنهيَ التّرتيب والتّنظيف، كان رفاق وأصدقاء أبي نجم قد بدأوا بالوصول تباعاً. وما لبث أن ضجَّ المنزل بالضّيوف. وكانت زينب وأختها، رغم التّعب الّذي نال منهما، تتناوبان على واجبات الضّيافة من شايٍ وقهوة.

كان الزّوار جميعاً، يتبادلون الحديث مع أبي نجم، إلّا أبو أمين، الّذي جاء لابساً بنطالاً وقميصاً جديديْن، كان قد اشتراهما منذ أيامٍ حين عرف من عمّة شارد بقدومهم. وكان يتظاهر بالاستماع، ويختلس النّظر عبر الباب المفتوح إلى أمِّ نجم الّتي تقصّدت المرور من حينٍ إلى آخر متظاهرةً بعدم الانتباه لنظراته الشّرهة تأكل كلَّ تفصيل من جسدها. صحيحٌ أنّه كان قد شعر بوخز الضّمير على خيانة صديقه، وحَلَفَ مرّاتٍ عديدةً ألايعاودَ التّفكير فيها، ولكن، ها هو يتحوّل من جديدٍ إلى مُفترسٍ جائعٍ منذ عرف بقدومها. وها هي غرائزه الرّجوليّة تجتاحه من جديد، جارفةً كلَّ ما تجده في طريقها من قيمٍ وأخلاق. وتمنى لو يستطيع الاختلاء بها، لينهشَ جسدها الذي لم ينساه.

مضت ساعاتٌ قبل أن يستطيعَ أبو نجم الاعتذار ممن بقي من أصدقائه، ليذهبَ لرؤية والديْه. ووافقت أمُّ نجم على اللّحاق به بعد أن تعرّجَ على جارتها الحاجّة علية، ومن ثمَّ على والدتها.

دفعت أمُّ نجم الباب الحديديَّ لحديقة الحاجّة علية، فصدر عنه صريرٌ لم تعهده من قبل، ونادتْ «ياألله» معلنةً قدومها فلم تسمع جواباً، فخطر في ذهنها أنّ البيت أصبح مهجوراً، ولكنَّ الحاجّة ظهرت أمامها مُقوّسة الظّهر تسقي ورودها الجّوريّة الأرجوانيّة، فألقت عليها السلام

ولم تسمع الجواب أيضاً، حتّى إنَّ الحاجّة لم تلتفت إليها إلّا حين أصبحت على بعد خطواتٍ منها.

انفرجت أسارير الحاجّة لرؤية جارتها. وقبل أن يُتاحَ لها التّقدّم بخطوةٍ واحدةٍ تّجاهها، كانت أمُّ نجم قد غمرتها بذراعيْها. وتبادلتا القبل بحرارة، فسقط منديل الحاجّة الأبيض على كتفيْها، فرفعته أمُّ نجم لتعيدَه كما اعتادت أن تراه، مُغطّياً رأس الحاجّة تاركاً المجال للخصل البيض الأماميّة للظهور. وما لبثت الحاجّة أن غطّت رأسها بشكلٍ محكمٍ قائلة:

- أهلاً حبيبتي، أنا جدُّ مشتاقةٍ لك. هكذا تنسين جارتك علية؟

- لا والله يا حاجّة، لم أنسَكِ قطّ، ولكن الظّروف.

أمسكت أمُّ نجم جارتها الهرمة من ذراعها وجلستا على المصطبة المكسّرة، تحت شجرة السّرو التي تبسط ظلالها على كلِّ الحديقة. كانت الحاجّة، على الرّغم من عمرها الّذي تخطى السّبعين، لا تزال كما عهدتها، نظيفةً ومرتّبةً بعباءتها المُطرّزة الّتي تعوّدت أن تخيطها بيديْها، فضفاضةً في الأعلى وضيقةً تحت الخصر، لتُظهرَ ما تبقّى من مفاتن وركيْها.

- يا سلام يا وداد، ازددت جمالاً، ووجهك أصبح أكثر نضارة.

- وأنتِ، لا تزالين ستُّ الصّبايا يا حاجّة.

- دعينا بلا مجاملة، أنا في انحداري الأخير، ألا ترين أنّك مضطرّةٌ لرفع صوتك على مداه حتى أسمعَكِ، وانظري إلى همّتي كم أصبحت ضعيفة، أنا يا ابنتي أُقطّع ما تبقّى لي من العمر وحيدة، فأولادي بالكاد يبعثون لي الرّسائل، آهٍ كم أنا سعيدةٌ بمجيئك.

مرّرت الحاجّة نظرةً متفحصةً على أضافر أمِّ نجم المقلّمة بعنايةٍ

والمطليّة باللّون الأحمر الفاقع، فتذكّرت صباها، وشدّتها إليها من جديدٍ بحنانٍ لافت. ولم تستطع إلّا أن تعلّقَ على الصّبغة الشّقراء لشعر أمِّ نجم، قائلةً إنَّ هذا غريبٌ على أهل الضيعة ولكنَّ التّغيير من وقت إلى آخر مفيدٌ للجميع.

لم يتسنّ للجارتين الغوص طويلاً في أحاديثهما، فقد سمعتا صرير الباب من جديد، فالتفتت أمُّ نجم، وبعدها الحاجّة، ليَرَيا أبا أمين قادماً يتراقص كذَكَر الرّتيلاء يغري أنثاه. وما إن وصل حتّى جلس قربهما من دون دعوة، فتناولت الحاجّة عكّازها وقالت بلباقةٍ إنّها تريد صنع القهوة، ودعتهما للدّخول وانتظارها في غرفة الجلوس، مفسحةً المجال لخلوتهما المعتادة في السّابق، فهبَّ أبو أمين واقفاً وقد برزت مخالبه استعداداً للهجوم، لكنَّ أمَّ نجم ضغطت بكفّها على فخذ الحاجّة ممسكةً إيّاها عن الوقوف، وقالت لها، بينما ترمق أبا أمين بطرف عينها باستكبار، إنّها ستذهب لرؤية والدتها، ولا حاجة بها للضّيافة. ونهضت خارجةً وهو يجرّدها من ملابسها بنظراته، ويلعن السّاعة الّتي دفع فيها كلَّ هذا المبلغ لشراء ثيابٍ جديدة.

كانت كلّما اجتاحتها الرّغبة الجنسيّة حينما تكون وحيدة، تسترجع مشهد إغوائها لأبي أمين في الدّكان، ولأنّها كانت خيانتها الأولى، فقد تربّعت هذه اللّحظة على عرش ذاكرتها كالأكثر إثارةٍ في حياتها، ولكنّها لم تعد تستذكره قطّ منذ فترة، حتّى في قمّة غليانها، وها هي تلتقي به من جديد، وهو الرّجل الّذي أعطاها رعشتها الأولى، فلا ترى فيه إلّا فحلاً غرائزيّاً لا حاجة لها به، وانتابت جسدها رعشة اشمئزازٍ وهي خارجة.

كانت مقتنعةً بما قالته لها الحاجّة في إحدى جلساتهما إنَّ المرأة تحبُّ مرّةً واحدةً في حياتها، وعندما تتلقّى الصّدمة الأولى من حبيبها، تبني في

قلبها سدّاً من الحقد والألم في وجه كلِّ مشروع حبٍّ جديد، وتكتسب عواطفها مناعةً ضدَّ الرّجال. ولكن ها هي على العكس، نسيت حبّها لزوجها وأصبحت تعتبر كلَّ ما مرّت به قبل لقاء طارق مجرّد نزواتٍ جنسيّة، وبات له في وجدانها وعلى جسدها وقع آخر.

تبسّمت وهي تسير صعداً باتّجاه بيت طفولتها. ورأت كم تغيّر الحيُّ في هذه السّنوات الثّلاث، فاختفت بيوت الطّين لتحلَّ مكانها بيوتٌ مبنيةٌ من الباطون، إلّا بيت أمّها، فلا يزال على حاله كشاهدٍ على الفقر. عانقتها أمّها ببكاء العاتبة، فمن لها في هذه الدّنيا غيرها؟ ودخلت تحضّر لها فنجاناً من الشّاي، هرباً بكبريائها من نشيجها. فجلست أمُّ نجم على بقايا كرسيٍّ في طرف الجنيْنة المتواضعة، ورنت بنظرها إلى التّلّة حيث كانت تلتقي مع أبي نجم قبل الزّواج. وتبيّنت من دون صعوبةٍ الصّخرة التّي كانا يجلسان عليها، والتّي كانت تعجُّ بالذّكريات، فرأتها مجرّد صخرة، لا يميّزها عن غيرها إلّا كِبَرَ حجمها.

في هذا الوقت، بقي شارد وحيداً في حديقة البيت، وانتظر خروج الجميع ليجلسَ تحت شجرة الكرز، متّكئاً على جذعها، فبيْنهما تلك الذّكريات، ولديْه الكثير ليخبرَها به. سَرَّهُ كيف شبّت في هذه السّنوات الثّلاث عاليةً عملاقةً بين رفيقاتها من أشجار اللّوز والزّيتون، واشتهى بعض الحبيبات الحمر اللّامعة تحت أشعّة الشّمس الوهّاجة على الأغصان العليا، والّتي نجحت في الاختباء من أيدي الأولاد المشاغبين، وآلمه الهشيم الّذي حلَّ بالأغصان السّفلى، الخالية حتّى من الأوراق، كأنّما مرَّ عليها سربٌ من الجراد.

وضع بيده قبلةً على جذع شجرته، ثمّ انطلق إلى بيت جدّه، مسرعاً رغم حرارة الشّمس التي تحبس النّاس في بيوتهم. كان الجدُّ أبو ابراهيم

جالساً على كرسيٍّ خشبيٍّ في زاوية المصطبة الفسيحة أمام الدّار المظلّلة بشجرة الكينا. لم يستلقِ كعادته في مثل هذا الوقت بعد الغداء، بل جلس ينتظر قدومهم بهدوئه ووقاره المعتادين، مُمسكاً عكّازه الخشبيَّ باليد اليمنى ومسبحةً من حجر اليسْر باليد اليسرى، وما إن أطلَّ شارد حتّى وقف متّكئاً على عكّازه وتعانقا بشوقٍ وفرح، بمواكبةٍ وابتهاجٍ من عصافير الدّوري تبثُّ من شجرة الكينا موسيقاها الصّاخبة الجميلة.

دخل شارد البيت وقبّل يد جدّته الضّريرة، ثمَّ خرج وجلس قرب جدّه يتبادلان الأحاديث والذّكريات، وينظر من حينٍ إلى آخر إلى وجهه، وقد استوطنت التّجاعيد بشرته وجبهته، وحلّت نظراتٌ مستسلمةٌ حزينةٌ مكان نظرات العزِّ والكبرياء، وتألّم لرؤية عباءته وقد أكل عليها الدهر وشرب، فبدأ لونها الرّماديُّ يميل إلى البياض، وهو الّذي تعوّد أن يهبَ ثيابه للفقراء في القرية حالما يظهر عليها أيُّ أثرٍ للقِدَم.

وحين كان الجدُّ يسرد أقاصيصَ عن حياته عندما كان وجيه الضّيعة وثريّها، كان يُجلّس ما استطاع ظهره المقوّس، كأنه استعاد شبابه للحظات، ثمَّ ينحني من جديدٍ راجعاً إلى حاضره البائس، كأنَّ لسان حاله يقول: «كم أنتِ قاسيةٌ يا أرجوحة القدر!».

وشدَّ الأسبوعان اللّذان أمضوهما في القرية أواصرَ العلاقة بيْن شارد وأخته زينب، واكتشف كم هي وحيدةٌ في هذا البحر الهائج من الرّوابط العائليّة الممزّقة، وكم تعاني من الإهمال، وكم تحتاج لقريبٍ تخبره بمكنوناتها، وكم هو صعبٌ على فتاةٍ شابّةٍ ألاّ ترثَ من جمال أمّها إلّا قامتها الطّويلة الّتي، ولسخرية القدر، شوّهها ردفان ثقيلان يكادان يحطّان على الأرض، وظهرٍ منحنٍ من ثقل نهديْها الكبيريْن اللذين ورثتهما عن عائلة والدها.

لم يتسنَّ لهما في السّابق التّقارب، لأنّها أنثى. فعلى الرّغم من نضوجه الفكريِّ المبكر، تراكم بينهما فارق سنواتٍ طويلة، مع أنّها تكبره بعامين فقط. ولمّا أخبرته عن الحبِّ الّذي يجمعها بشابٍّ من القرية، صديقٍ لأخيها نجم، وكيف يعامله والدها بقسوة، إذ إنّه دون المقام اللّائق بعائلتهم، نصحها بالمجابهة مهما كلّف الأمر. فخسارة الحبِّ الأوّل سيرميها في حسابات المفاضلة بينه وبين من ستتزوجه.

وأثناء مكوثه في قريته، قصد شارد قرية عين الوادي، الّتي كانت منى قد كلّمته عنها مراراً من دون أن يُقدَّرَ له رؤيتها، مشى في أزقّتها يشتمُّ رائحة حبيبته في الغبار، وفي أسوار الحدائق وجذوع الأشجار. وحزن لرؤية بيتها الّذي طالما حدّثته عن جماله، مهجوراً يتلهّف للقاء أصحابه.

استعاد شارد في القرية توازنه الّذي كان قد فقده بهجرة منى. وعاد إلى عادته القديمة يجول في البراري. ولكنَّ غبطته وانشراحه لم يصمدا طويلاً، فما لبث حنينه إلى منى أن عادَ يغزوه بوتيرةٍ متسارعة، وبدأ ينتظر بفارغ الصّبر العودة إلى بيروت، فماذا لو تخلّت عن كلِّ شيء وأتت تبحث عنه.

وكانت حاله كحال أمّه، فقد اشتاقت لسماع صوت طارق يهمس في أذنها كلمات العشق، وما إن تلقّت رسالةً منه وصلتها عبر رفيقٍ من مركز الحزب في القرية حتّى بدأت تستعجل الرّجوع أكثر من ابنها.

وافق أبو نجم بسرعةٍ على العودة إلى بيروت قبل الموعد المُحدّد بأيام، وهو الّذي كان يبحث دائماً عن فرصةٍ يستريح فيها من بيروت وهمّها. فرصة يسترخي فيها ولا يفعل شيئاً. وها هو حين وجدها لا يعرف كيف يملأها لولا الأشياء الصّغيرة التّافهة الّتي أنقذته من مله، وعرف حينها أهميّتها في الحياة.

-6-

ما إن انتقلت منى وعائلتها إلى بيروت الشّرقيّة في هذا الشّهر اللّاهب من آب 1977، حتّى بدأت تشعر بوطأة التّغيّرات الّتي طرأت على زوجها، الّذي تحوّل من عاشقٍ حنونٍ إلى زوجٍ قاسٍ. وافتعل معها مشاجرته الأولى حين نادته كما العادة أبا يوسف، فانتفض كهرٍّ محشورٍ في زاويةٍ لا مجال له للهروب منها قائلاً:

- ربّما أكون أبا يوسف، مع أني لستُ متأكّداً أنَّ يوسف ابني. أقلّه أنا متأكّدٌ أنّ طفل الزّنى هذا، الّذي تحملينه في أحشائك ليس ولدي، اسمي منذ هذه اللّحظة نبيل، هل فهمتِ، فقط نبيل.

وعقّب مباشرةً:

- فهمت الآن سبب إصرارك على مناداتك باسمك منى، لأنَّ هذا كان يذكّرك بهذا الرّابط الزّوجيِّ الّذي تكرهين، أليس كذلك يا أمَّ يوسف؟

كانت لا تزال تحاول جاهدةً إقناعه بالانفصال، أو بالهَجْر على الطّريقة المارونيّة، ولكنّه كان لا يزال يرفض رفضاً قاطعاً، انتقاماً منها وهُياماً بها.

وكرّت المشاحنات البغيضة بينهما، فلم يكد يمرُّ يومٌ من دون أن يجدَ فيه سبباً ليستفزّها. ولكنّها كانت تتحاشى وصول الأمور إلى منزلقٍ يشكّل خطراً عليها وعلى ولديْها.

وبحكم موقعه السّابق كمُخبرٍ للقوّات اللّبنانيّة حين كان في بيروت الغربيّة، فقد استطاع بسرعةٍ أن يصبحَ من المقرّبين إلى القائد، ما زاد كره منى له، على الرّغم من أنّها كانت قد تركتْ كلَّ نشاطٍ لها في الحزب الشّيوعيِّ منذ ولادة يوسف. وأصبحا كالعدوّيْن اللّدوديْن في البيت، لا تجمعهما إلّا العلاقات اليوميّة الضرورية.

وعندما انتقلا إلى شقةٍ واسعةٍ في حيِّ الدّكوانة إحدى ضواحي بيروت، وهي شقة تعود ملكيتها إلى عائلةٍ مسلمةٍ هجّرتها الحرب إلى بيروت الغربيّة، لم يعترض حين طلبت منه الانفصال كلٌّ في غرفة، بل ربّت على كرشه المتهدل بسخريةٍ قائلاً، إنّه بعلاقاته الحزبيّة لم يعد يحتاج إليها. وفهمت ما يقصده، حيث كانت العلاقات الجنسيّة عند مسؤولي الأحزاب سهلةً ومباحةً مع الرّفيقات الشّابّات المنخرطات في العمل الحزبيِّ وخصوصاً في العمل العسكريّ. وشعرت بالرّاحة والقرف في آنٍ معاً.

وعلى الرّغم من تظاهره بالاكتفاء الجنسيِّ خارج البيت الزّوجيّ، إلّا أنّه ظلَّ يرغب بها إلى حدِّ الهوس المَرَضيّ. ولم تكن تعلم أنّه كان يدخل غرفتها حين يعود متأخّراً في اللّيل، فيتلصّص عليها وهي نائمة، متخيّلاً مشاهدَ إباحيّةً لها مع عشيقها، كيف تصل إلى ذروتها وكيف ينفث فيها بذرته، إلى أن يصلَ هو أيضاً، من حين إلى آخر، إلى ذروته واقفاً.

بعد الصّيف الحارّ، هلَّ الخريف قاسياً. ويوم وضعت حملها في منتصف تشرين الأول، كان البرد قد بدأ والشّتاء يهطل غزيراً. وما إن وقع بصرها على عينَيِّ المولودة المفتوحتيْن على وسعهما، حتّى رأت بهما شارداً، فغمرتها بحنانٍ لافت، بينما كره نبيل الطّفلة أيضاً من النّظرة الأولى، وراودته للحظةٍ الرّغبة في خنقها.

ورغم القساوة الّتي أبداها في الفترة الأخيرة، ونشاطاته الجنسيّة الجامحة خارج البيْت الزّوجيِّ، وإنجابها سِفاحاً من عشيقها، فقد كان لا يزال يحبّها ويتمنّى لو تعود الأمور بينهما إلى مجاريها. كان مستعدّاً للتّخلّي عن نشاطه الحزبيّ، بل حتّى إعلان عدائه للقوّات، ولكن هيهات، فبعد أيامٍ من الولادة، وبينما والدة منى وأقاربها، أتوْا للزّيارة والتهنئة، أعلنت على الملأ أنّها ستسمّي ابنتها زينب، ما استدعى استنفاراً من الجميع، واستهلّت أمُّ جوزف الكلام قائلةً:

– حبيبتي منى، أنا مثلك تماماً أكره التعصّب الطائفيّ، ولكن أن تسمّيَها زينب فهذا أمرٌ لن يقبلَ به أحد.

التزمت الصّمت، فالقرار لم يكن عندها وليد اللّحظة، إنّما كانت قد فكّرت به طويلاً، والآن هي مصمّمةٌ بعنادٍ نهائيٍّ أن تختارَ لابنتها اسماً مسلماً، وشيعيّاً خصوصاً، وليس أيُّ اسمٍ شيعيّ، بل اسم زينب أخت حبيبها. ولم تنجح محاولات أخيها جوزف، الّذي كان قد ترقّى منذ مدةٍ قصيرةٍ إلى رتبة نقيبٍ في الجيش اللّبنانيّ، في جعلَها تتراجع عن موقفها، ولم يرفَّ لها جفنٌ حين خرج زوجها متوعّداً صافقاً الباب خلفه.

ما إن خرج حتّى ذهبت إلى غرفتها وأقفلت الباب خلفها بالمفتاح، فتحت خزانتها وتناولت رزمة الرّسائل المخبّأة بعناية، بعيداً عن ملابسها الدّاخليّة، إذ إنها كانت تشكُّ بأيدٍ خفيّةٍ تعبث بها من حينٍ إلى آخر. افترشت السّجادة، وتناولت الرّسالة الّتي نجح شارد بإيصالها في الصّباح، يبدي فيها حزنه لوجوده بعيداً عنها أثناء الولادة، فأعادت قراءتها بتمهل، وتوقّفت عند القصيدة في ذيلها، الّتي كان شارد قد استوحاها من دمعة الفراق الّتي نزلت على وجنتها في المرّة الأخيرة الّتي التقيا فيها:

أدموعاً كانتْ؟

أمْ هي الأحلامُ
تنسابُ على وجنتيْكِ
في ترحالٍ وسفرْ؟
أم حكايا وأماني
تائهةٌ
في دهاليز القدرْ؟
.....
وتركتِني وحيداً خائفاً
كقاربٍ وضيعٍ
تتقاذفه الأمواجُ
ويجلده المطرْ
.....
فما أرتجي بعدُ؟
وكيفَ الفِرارُ من شجوني؟
وأينَ السبيلُ؟
وأنتِ بعيدةٌ هناكَ
خلفَ البصرْ
.....
وها أنا ألجُ خريفَ عمري
قبل سنِّ الشّبابِ
وأصبحَ سِيّان عندي
نورُ شمسٍ
أوْ قمرْ

سقطت من عينها هذه المرّة دمعةٌ حارقة، ثمَّ تبعها وابل من دموعٍ أخمدت نار شوقها، إلى حين. فهدأتْ ومسحت عينيْها بطرف سبابتها واحدةً تلو الأخرى، وطبعت على الرّسالة قبلةً صامتةً حزينة، وطوتها بعنايةٍ وحرصٍ كأنّها جزءٌ من جسدها، وأعادتها إلى مكانها وسط الرّزمة.

في الأسابيع الّتي تلت، بات شارد حاضراً معها ما لازمت ابنتها، ترى وجهه في وجهها، وترغب به كلّما أرضعتها. أصبحت تعيش في منزلها بجسدها فقط، أمّا قلبها فكان يتنقّل معه هناك في أزقّة بيروت الغربيّة، بين شارع مار الياس والكورنيش البحريّ حيث كانا يتنزّهان معاً.

اشتاقت للقاءاتهما حين كانت تتلقّفه عيناها بذبول الانتشاء، وتسمع صوته يتهادى في أذنيْها كالنَّشا. وما زالت كلماته عند اتّصالها الهاتفيِّ الأخير به، بعد يوميْن من توديعه، تهمس لها بحروف الوَلَه. لم تعد تحتمل كلَّ هذا الفراق، ويجب أن تسعى للقياه. وما همَّ أنَّ المناوشات بين البيروتيْن أدّت إلى إقفال كلِّ المعابر، وأنّها بدأت تجد صعوبةً في التّنقّل وهي مُرضعة. ولكن لا بدَّ ممّا ليس منه بدّ!

مضت أيامٌ تستلُّ من رأسها الفكرة الخائبة تلو الأخرى، إلى أن تذكّرت طارقاً، كانت قد تعرّفت إليه في مركز الحزب بوجود أمِّ نجم، وكانت على يقينٍ أنَّ شائعة العلاقة الّتي تربطهما صحيحة، ولم يظهر عليهما أنّهما يخافان من إشهارها إذا استدعى الأمر، ولهذا فهو لن يخذلَها، ومن لها غيره ليجمعَهما؟ ونجحت بمراسلته، ائتمنته على سرّها وأخبرته بمطلبها، متمنّيةً عليه أن يُجَهِّزَ الخطّة المناسبة للّقاء الموعود، على أن يتريّثَ قليلاً لترتّبَ من جهتها الخطوات الّتي يجب عليها درسها بحذر، وأن ينتظرَ منها رسالةً ثانيةً حالما تصبح جاهزة. أنهت رسالتها برجاءٍ أن يحرقَ رسالتها وينساها في حال رفضه مساعدتها.

-7-

سُرَّ طارق عندما وصلته الرّسالة من منى، فسوف يستطيع أن يقدّمَ خدمةً لأمِّ نجم، الّتي شعر في هذه الأسابيع الثّلاثة الّتي قضتها بعيداً عنه في القرية، أنّها ليست إحدى عشيقاته أو رقماً جديداً مُضافاً إلى نزواته الجنسيّة. ولم يعد يمنّي النفس، كلّما تذكّرها، بامتلاك فخذيْها المشدوديْن كعموديْن من رخام، اللّذين كان في السّابق يراهما ويشعر بملمسهما من خلال ثيابها، قبل أن يعرّيَها.

بل بالعكس، اشتاق لتلك اللّحظة الّتي دخلت فيها مكتبه مُودّعةً قبل ذهابها، كيف وقفت ببنطالها الجينز منتصبةً في إطار الباب كلوحةٍ عتيقة، يدها اليسرى على خصرها، ومستندة بكتفها اليمنى على الحافّة. تبسّم حين تذكّر أنّه لم يعرفها في البداية، بشعرها المصبوغ باللّون الأشقر المشوب بالحمرة، إلى أن اقتربت وأحنتْ ظهرها، واضعةً كفّيها المفتوحتيْن على مكتبه، ليبرز من نهديْها ما يلزم بالضّبط لجرّه إلى الوقوف متأهّباً، وكيف اختلج قلبه فرحاً حين سمعها تقول بغنجٍ إنّها لوّنت شعرها لأنّها تريد أن تكون وداداً أخرى في الفترة الّتي سيفترقان فيها، وكيف جلست على الكرسيِّ وأطلقت ضحكتها المتقطّعة المبحوحة مُرجعةً رأسها إلى الوراء تاركةً شعرها المشقّر يتهادى كسنابل القمح.

استذكر رصانتها المطبّعة بعشقٍ متهوّر، وسرعة بديهتها ومرحها،

وكيف كانت تلازمه كظلّه كلّما اختلى بنفسه وحيداً، فيتمنّى لو يستلّها من سراديب وجدانه ويحيلها حقيقةً أمامه؛ عرف أنّها قَدَرُه الجميل، وأنّه فعلاً يهواها ويحبّها، وما همَّ فرق السّنوات السّتّ الّتي تكبره بها.

في العاشرة من صباح اليوم التّالي لعودة أبي نجم وعائلته إلى بيروت، وشمس آب قد بدأت تبثُّ لهيبها بتؤدّةٍ وتصميم، منذرةً بيومٍ حارّ، توقّفت سيارتان عسكريّتان أمام المبنى، رأتهما أمُّ نجم من شرفتها فأسرعت لتفتحَ الباب لحبيبها، ولمّا انتبهت أنّها لا ترتدي إلّا قميص نومٍ شفافاً، عادت فتناولت بسرعةٍ عباءةً مرميةً على الكنبة، ألقتها على جسدها وربطتها بحزمٍ من المقدّمة، ثمَّ عادت ففكّت الرّبطة وأعادتها ضعيفة لتظهرَ ساقيْها عند أقلِّ حركة.

بينما كانوا يشربون القهوة على الشّرفة المطلّة على الزّاروب المكتظِّ بالمارّين والباعة، لم يجد طارق حرجاً في الطّلب من أمِّ نجم الانفراد بها ليحدّثَها بموضوعٍ خاصّ، ولم تجد هي سبباً لتقولَ أيّة كلمةٍ تطمئن بها زوجها، الّذي تابع شرب الشّاي وكأنَّ المسألة لا تعنيه بشيء. ما إن دخلا المطبخ، حتّى ردَّ الباب وراءه وزرع بلهفةٍ في ثغرها وعلى وجنتيها شتلاتٍ من القبلات القصيرة النّاعمة، ثمَّ التهم شفتيْها يسقيها برضابه، ولو أنّها استسلمت له ما كان ليتوانى عن أخذها في منزلها وهما واقفَيْن، ولكنّها أبعدته والغبطة تملأ كيانها. فها هو أخيراً يغرق في قبلته حتّى الثّمالة، ولا يسارع إلى تمرير يديْه كعادته بين فخذيها أو يعصر ثديها حتّى الألم بكفِّ يده المتينة.

أبعدته عنها، وأمسكت رأسه بكفّيها الناعمتيْن، وقرّبت رأسه برفقٍ نحو شفتيْها، لامسةً بدهاءٍ باطن أذنه بطرف أنفها، فاقشعرَّ حتّى أخمص قدميه، وهمست:

- أخبرني، كم اشتقت إليّ؟

وقبل أن يجيبَ أردفت:

- شكراً على الرّسالة الجميلة، لم أكن أعرف أنّك تكتب الشّعر، هل أنت كتبتها؟ وهل كنتَ تقصد ما تقوله؟

- أولاً، لن تستطيعي تقدير كم اشتقت إليك، ثانياً، أجل هذا الشّعر لي، واعذريني لأنّي لم أخبرك سابقاً أنّي أكتب الشّعر.

وعقّب كمن يريد إغاظتها، وكمن يريد إظهار التّمايز بينه وبين غيفارا:

- وفضلاً عن ذلك، فقد علّمتني التجارب أنَّ الرّجل إذا أراد أن تُعجبَ به امرأةٌ فليقلْ لها شعراً، أمّا إذا أرادها أن تنفرَ منه فليقلْ لها فلسفة.

- أعترف أنّك فاجأتني، غريبٌ أمر الإنسان كم يخفي أفكاره عن الآخرين، فكأنَّ كلَّ واحدٍ منّا شخصان، شخصٌ ظاهرٌ نراه وآخرُ سريٌّ متخفٍّ لا يعرف به إلّا صاحبه، كأنْ تكتشفَ مثلاً يا خواجة طارق، أنَّ صديقك شاعر، ويكون هذا آخر ما تتوقّعه منه.

- صديق؟

احتضنته بحنان وعادت فهمست في أذنه:

- أكثر بكثير.

- أنا راضٍ، هذا الّذي هو أكثر بكثيرٍ من الصّداقة، أسمّيه أنا عشقاً وغراماً، وبكلِّ الأحوال، توقّعي منّي من الآن فصاعداً المزيد من الشّعر. ثم أردف فلننسَ الشّعر ودعيني أسألكِ، هل تذكرين ماذا قلت لك في آخر مرّةٍ رأيتك فيها في المركز؟ قلتُ إنّك الأنثى الأجمل والأشهى...

فقاطعته قائلة:

- وهذا أفرحني وآلمني في آن معاً.

- معك حق، ولكن كانت على شفتيَّ كلمةٌ أخرى لم أستطع قولها.

لم يكن بعد قد اعترف لها بحبّه، مع أنّه تفوّه بالكلمة من حين إلى آخر أثناء المداعبات الجنسيّة، فهو من هذا الصّنف من الرّجال الّذين يعتبرون أنّ الاعتراف بالحبِّ للمرأة دليل ضعف واستسلامٍ وخضوع، ولكنّها أرادت هذه المرّة اجتثاثها من أعماقه، فأقفلت أذنيْها بسبابتيْها، وقالت بعينيْن برّاقتيْن كنجمتيْن تظهران ثمَّ تختفيان بوتيرةٍ متسارعة:

- قلها الآن، لا بأس إن لم أسمعها، يكفيني أن أراها على شفتيْك!

وبينما يرنو إليها مُعجباً بحركة الغنج والتّحدي الجميلة الّتي قامت بها، أردفت:

- لا أزال أنتظر أيها الرّجل العسكريُّ القاسي، هيّا قلها ولا تخجل.

أبعد بيدٍ مرتجفةٍ سبابتها اليسرى عن أذنها، ووشوشها بلهفة:

- كنت أريد أن أضيف أنّني أحبّك يا وداد، فعلاً كنتُ أريد، ولكنّني لم أكن متأكّداً.

- والآن؟

- مئة بالمئة، وأريدك لي وحدي.

احتضنته مطمئنّةً وقالت وهي تخفي دمعةً حبستها في طرف عينها:

- اشتقت لك كثيراً، أنت رجلي ولن أكونَ بعد الآن إلّا لك وحدك.

- ربما لم تفهميني جيداً، أنا أعني الكلمة حرفيّاً، أريد العيش معك، ولوحدنا، تزوّجيني يا وداد.

خفق قلبها بشدّةٍ وخُيِّلَ إليها أن قلبها يكاد ينفجر كزجاجات من بلّور، فلطالما منّت نفسها بسماع هذه الكلمة منه، إنّما كانت تعتبرها ضرباً من خيال، أمسكت يديْه برفقٍ وقالت مُطرقةً:

– آهٍ لو تعرف كم أنا راغبةٌ بذلك أيضاً، ولكن مهلاً يا حبيبي، فماذا أفعل بزوجي وبالأولاد؟ لا، لا أستطيع الآن، ربّما بعد فترة، حين يُتاحُ لنا إزالة العوائق من أمامنا. أضف إلى ذلك، أنّك يجب أن تتأكّدَ من شعورك تّجاهي ليس الآن، إنّما...

واستطردت بسرعةٍ واضعةً طرف سبابتها على صدغه:

– بعد هذا الّذي ترغب به الآن في رأسك، فلربّما كان ما تعتبره حبّاً لا يعدو كونه...

وسكتت.

– أنا متأكدّ...

عادت فقبّلته هذه المرّة تاركةً العنان لشفتيْها تمتصّان ما بقي عنده من غرورٍ وكبرياء، وتذيبان جبْروته، فغدا بين يديْها كطفلٍ وديع، ثمَّ عادت من جديد فأمسكت رأسه بكفيْها وسألته عن الأمر الآخر الّذي انفرد بها من أجله.

كان قد اتّخذ قراره بإخبارها بما يجري بين شارد ومنى، وكان قد أعلم منى أنّه لن يرتّبَ لقاءهما على غفلةٍ من أمّه، وها هو الآن محرج، لا يعرف من أين يبدأ، وأين هي تلك الجُمل الّتي راجعها مراراً بالتّرتيب؟ بدأ يتردّد على غير عادته، فكيف سيخبرها أنَّ صديقتها العزيزة تعاشر ابنها؟ وعدل عنها لأنَّ الفكرة الأولى الّتي أتته أنَّ حبيبته سوف تُسرُّ منه، ولكن ماذا لو كان مخطئاً؟ ماذا لو غضبت منه وأدّى الأمر إلى أن تسوءَ علاقتهما؟

كم خاض من المعارك وكم اتّخذ من القرارات الصّعبة في لحظةٍ قصيرة، وها هو يجبن الآن كولدٍ ارتكب خطأً يريد إخفاءه عن أستاذه. كم كان يعتدُّ بنفسه أنّه لن يأسفَ يوماً على خسارة، وها هو يضعف

لمجرّد التّفكير بفقدان هذه المرأة. حتى غيفارا الذي كان يكرهه ويرى فيه عدواً محتملاً يجب عليه محاربته، هو الآن يشعر بالغبن الذي ألحقه به بسبب خطف أمَّ نجم منه، فهي امرأة لا تعوَّض. كم نعته أصدقاؤه بالمغرور المتعجرف، وها هو قد أصبح منذ فترةٍ هادئاً ويحترم الجميع ويعاملهم بمودّة.

أحاطها بذراعيْه بحنان، قائلاً بصوتٍ خافتٍ كأنّه يحدّث نفسه، أنّه كان فقط مشتاقاً إليها، وأخبرها عن سعادته بالقدَر الّذي وضعها في طريقه، واعداً إيّاها بالتّعويض عن الحظّ السّيئ الّذي نالها جرّاء زواجها الفاشل، وأنهى حديثه بقناعةٍ تكوّنت عنده حديثاً، بأنَّ المرأة حين ترتبط برجل، إمّا أنّه يرفعها عالياً في المجتمع، وإمّا يحاول دائماً إنزال قدرها حتّى يسيطرَ عليها، وأنّه هو، سوف يزرعها نجمةً في السّماء.

سُرَّت لسماعه يحدّثها من جديدٍ بكلامٍ شعريّ، وأنصتت إليه بوله العاشقة، مع أنّها عرفت أنّه بهذا يتهرّب من الإجابة عن سؤالها. فقطعت عليه إسهابه بغراميّاته وأبعدته عنها من جديد، وقطّبت جبينها ونظرت إليه متفحّصة، ثمَّ رفعت حاجبيها المرسومين كخطيْن إلى الأعلى، وزمّت شفتيها المحمرّتين كحبة كرز، كأنّها تحثه أن يتراجعَ ويخبرَها بما كان يريد قوله. ولكنّه أصرَّ على النكران، فاتّفقا على اللّقاء في الغد في بيته، وأسرعا بالعودة إلى الشّرفة.

-8-

لم يسأل أبو نجم عمّا دار بينهما، فقد أصبح لا مبالياً بالنسبة إلى علاقتهما، وانتقل الجميع من حديثٍ إلى آخر إلى أن وصل الحديث إلى الحرب البشعة بين بيروت الشرقية وبيروت الغربيّة، وهنا تذكّرت أم نجم منى فسألت طارق إن عرف شيئاً عن أخبارها منذ انتقلت للعيش في بيروت الشرقيّة. رنا طارق مباشرةً بنظره محدّقاً في أمِّ نجم مرتبكاً، ثمَّ رمش بعينيْه مرّاتٍ وتوجّه بحديثه إلى أبي نجم، متحاشيّاً نظراتها الثّاقبة المتسائلة، ما زاده ارتباكاً وجرّه للتفوّه بجملٍ مقتضبة، وأحياناً، غير كاملة، ما جعلها تتأكّد أنَّ ما كان سيخبرها به يتعلّق بمنى.

«إذاً شكّي بمحله»، قالت في نفسها، «لا شكّ أنّ علاقة شارد بمنى حقيقيّة»، وتابعت مناجاتها: «ولكن ما دخل طارق؟ يجب أن أعرف».

وقفت وفي نيّتها أن تطلبَ منه العودة للانفراد قليلاً حتّى تسألَه، ولكنّها سمعت عدة طرقاتٍ على الباب الخارجيّ، فجمّعت أطراف أصابعها إلى الأعلى كثمرة الصّنوبر، وهزّت يدها ناظرةً إلى طارق كمن تتوعّده وذهبت لتفتحَ الباب.

أخذت ابنة خالتها بالأحضان وربّتت على بطنها المتكوّر قائلةً: «أنت على وشك الإنجاب يا حبيبتي، صبيٌّ إن شاء الله»، ثمَّ نظرت إلى غيفارا الّذي ازداد نحولاً وغارت وجنتاه فبرزت عيناه الجاحظتان كأنّهما

تتوثّبان للخروج من وجهه، أمسكت يده مصافحةً كالقريب الغريب، وأمسك يدها بلهفةٍ ذليلة، ما جعلها تطمئنُّ باستمرار سطوتها عليه، وولجوا الشّرفة.

- كيف أحوالك يا غيفارا؟ لم أرك منذ أيام.

سأل طارق بجفاء من تفاجأ بقدوم شخصٍ غير مرغوبٍ فيه، ومنافسٍ لدودٍ مفروضٍ عليه بحكم القرابة الّتي تربط أمَّ نجمٍ بزوجته، من دون أن يكرهَه، فقد تحوّل منذ فترةٍ إلى رجلٍ متسامحٍ لا يضمر الشرَّ لأحد، بعكس غيفارا الّذي تحوّل إلى شخصٍ حقود، وأصبح يكنُّ له الكره والحسد. ما إن أخذ غيفارا مكانه على كرسيٍّ جانب طارق مقابل أمِّ نجم، كتلميذيْن يتنافسان على العلامة الأعلى، حتّى أجاب عن سؤال غريمه قائلاً:

- لا بأس يا رفيق، كلُّ شيءٍ يجري كما أريد.

وبلع ريقه وتابع:

- مع أنَّ الأرق أصبح يرافقني أحياناً كثيرة، وأنت؟

- أنا من حسنٍ إلى أحسن، وبعكسك تماماً، فقد زال عنّي الأرق الّذي كنت أعاني منه، أخبرني، ما الّذي يؤرّقك يا رفيق؟

نظر غيفارا إلى أمِّ نجم، ثمَّ أشاح بسرعةٍ بوجهه عنها، وهزَّ رأسه صعوداً ونزولاً وقال:

- هي الحياة، يومٌ لك ويوم عليك.

تبسّم طارق راثياً لحاله، ما أغاظ غيفارا وفهم أنّه يهزأ به، فنظر إليه غاضباً وقال:

- لا تنجرَّ إلى التّكبّر يا عزيزي، فالحياة كالدّولاب، تكون أحياناً في

القمّة ثمَّ لا تلبث أن تسقطَ في الحضيض، وبالنّهاية ينتظرنا الموت جميعاً.

لم يُقدَّر لطارق الردّ، إذ أخذ أبو نجم الكلام مباشرةً قائلاً:

- معك حق يا غيفارا. وقد عبّر أبو الطيب المتنبّي عن ذلك منذ قرابة ألف سنة ببيتيْن جميليْن من الشّعر:

مِن كلِّ من ضاق الفضاء بجيشه ... حتّى ثوى فَحَواهُ لحدٌ ضيّقُ

فالموت آتٍ والنفوسُ نفائسُ ... والمتسغرُّ بما لديْه الأحمقُ

وأعقب:

- عذراً طارق لا أقصدك، إنّما أردت فقط تأكيد فكرة غيفارا حول الغرور.

- لا عليك يا أبا نجم، ومعك الحقّ، ففي ما مضى نال منّي الغرور مقتلاً، ولكنّي منذ فترةٍ أصبحت إنساناً آخر، وهذا أمرٌ أكيد.

ورنا إلى أمِّ نجم بنظرةٍ عاشقة، لم تخفَ على أحدٍ من الموجودين، وخصوصاً غيفارا، الّذي أصبح أنفه الأفطس كالخوخة الحمراء، وزادته أمُّ نجم غيظاً عندما ردّت على نظرة حبيبها بمنحه بسمةً لعوباً، وبشبك رجليْها مُظهرةً ساقيْها، وهو الّذي لطالما أزعجته ثقة طارق الدّائمة بأقواله وأفكاره، فشدَّ على أسنانه ليكتمَ غيظه ونظر إلى غريمه بتحدٍّ وقال:

- أعذرني يا رفيق، ولكنّني أعتقد أنّه من الأفضل أن نخفّفَ قليلاً من استعمال هذه المفردات في أحاديثنا اليوميّة، مثل «أنا أكيد» أو «هذا خطٌ أحمر» أو «هذا نهائيٌّ لا رجوع عنه»، فيجب دائماً وضع احتمال أن نكونَ مخطئين في ما نقول.

واستطرد ساخراً:

- لست ألومك، فيبدو أنَّ هذا نتاج العناد المتجذّر فينا نحن العرب، ونتاج الرّغبة الدّائمة بالمناكفة والتّحدي؟

- هل تقصدني بهذا الكلام؟ أنا قلتُ ما أقول بكلِّ صدق.

وبدل أن يهدأ، ازداد غيفارا انفعالاً، وقال مُحتدّاً:

- أتعرف يا رفيق؟ حين يقول إنسانٌ لآخر بكلِّ محبة، فهذا يعني أنّه يكرهه، وأيضاً حين يقول له بكلِّ تواضع فهذا يعني أنّه مغرور، وأترك لك تفسير قولك بكلِّ صدق.

- هل تنعتني بالكاذب يا غيفارا؟

- ليس تماماً، ولكنّي أرى أنَّ كلامك ليس صحيحاً كلّياً، وكما قال مارك توين: «الفرق بين الكلمة الصّحيحة والكلمة الصّحيحة جزئيّاً هو تماماً كالفرق بين الضّوء والحشرة المضيئة».

وخيّمت سحابة سوداء لا تنذر بالخير، وعدّل أبو نجم ظهره الذي تقوّس، وهذا ما لم تلحظه فيه أمُّ نجم من قبل، كأنّه يتأهّب للانخراط في المعركة إلى جانب غيفارا، من منطلق المثل القائل «عدوُّ عدوّي صديقي». فأعادت ترتيب عباءتها لتغطّيَ مفاتنها وتسحبَ فتيل النّار الّتي أوقدتها، ووجدت أنّه لا بدَّ لها من التّدخل السّريع لتدارك الموقف قبل أن ينفجر، فطلبت من غيفارا، بعد أن أخذت الإذن من زوجته، الحاضرة الغائبة في الجلسة، أن يوافيَها في غرفة الجلوس، فنهض وتبعها منصاعاً. وما إن أغلقتِ الباب وراءها واستدارت، حتّى شاهدته يركع أمامها ذليلاً خانعاً جاهزاً للبكاء وأمسك يديْها فقبّلهما وقال:

- أعترف أنّي لم أعرف كيف أحافظ عليك، أنا أحبّك، أرجوك!

كم كانت ترغب بإذلاله أكثر، ولكنّها خافت من ردّة فعله وتطوّر

الخلاف مع طارق إلى حدودٍ لا تحمد عقباها، فرفعته بيدها وأجلسته على الكنبة وجلست على الكنبة المقابلة تفصلهما طاولةٌ مربعةٌ رآها غيفارا كالجبل أمامه، وقالت له بجديّة من يريد حسم أمرٍ ما وإنهاءه إلى الأبد:

- اسمع يا غيفارا، عندما بدأتَ تملُّ علاقتنا، كنتَ ترغب بي من حينٍ إلى آخر، وتعيد على مسمعي الاسطوانة نفسها بتهكّم الآمر النّاهي: «إنّ شخصاً مثلي يرتكب هفوةً تلو الأخرى، يجب إعطاءه فرصةً تلو الأخرى»، ثمَّ تأخذني كما تريد، أنا لم أعد المرأة نفسها، وأيضاً لم أعتقد للحظةٍ بقولك هذا، ولا أجد سبباً في إعطائك فرصةً جديدة.

- معك حق، ولكن في هذه الحالة تحكمين عليَّ بالإعدام.

- أنت الّذي حكمت على نفسك بالإعدام، لقد غدر زوجي بي بعد حبٍّ كبيرٍ وهبته إياه، ثمَّ تعلّقتُ بك فعدتَ وخذلتني، ومن هاتيْن التجرِبتيْن تعلّمتُ أن أحبَّ كما لم تحبَّ امرأةٌ وأن أنسى كما ينسى الرجال[17].

- ويبدو واضحاً أنّك قمت بالعكس، فقد نسيتِ كما ينسى الرّجال وتحبّين كما لم تحبَّ امرأة؟

رمقته مُطوّلاً بنظرةٍ ثاقبةٍ محاولةً قدر المستطاع تمالك أعصابها، ثمَّ رفعت حاجبيْها ومالت بجسمها إلى الأمام وقالت بجفاف:

- يجب عليك أن تفهمَ يا غيفارا، أنا لم أعد عشيقتك، ولن أعودَ إليك، وسأقرُّ لك بما تريدني أن أعترف به، أجل، تجمعني علاقةٌ بطارق، ومصمّمةٌ أن أذهبَ بها إلى النّهاية إن استطعت.

فصرخ مغتاظاً:

- ولكنّي أتألّم يا وداد! لم أعد أستطيع العيش مع شعوري بالحماقة الّتي أدّت بي إلى فقدانك!

رنتْ إليه مُحتارةً بما يجب أن تقولَ ثمَّ أمسكتْ يده وقالتْ:

- سوف أكون صريحةً معك أكثر يا عزيزي، أنتَ تعتقد أنّك تحبّني ليس إلّا، فلو كان الأمر كذلك لما تخلّيت عني، ارفع رأسك وانظر في عينيَّ مباشرةً وقلْ لي إن كان ما تشعر به نحوي حبٌّ أم رغبةٌ جنسيّةٌ في امرأةٍ جميلةٍ تشتهيها كما كلُّ رجل.

وأردفت بعد توقفٍ قليلٍ بينما هو مطرق الرأس:

- في أكثر الأحيان، ومن ضمنها حالتكَ، يوهم المرء نفسه أنّه يحبُّ شخصاً ما لصفاتٍ معينةٍ كالهضامة أو الهدوء أو الحركات المثيرة وغير ذلك، وبالحقيقة، هذه الصّفات لا تعدو كونها محفّزاً لرغباته الجنسيّة، وما يعتبره حبّاً لا يعدو كونه شغفاً جنسيّاً ليس إلّا، مُغلّفاً بتلك القشرة من الصّفات.

وبينما كانت تتكلّم ارتخت عضلات وجهه شيئاً فشيئاً، واختفت تلك النّظرة البائسة من عينيْه، وعضَّ شفته السّفلى متسائلاً إن كان ما تقوله صحيحاً.

وكأنّما فهمت بذكائها ما يدور في خلده، أرجعت ظهرها إلى الوراء كمن يستريح بعد معركةٍ رابحة، وأخذت نفساً عميقاً وقالت كأستاذٍ يختم محاضرته:

- أنت يا غيفارا رجلٌ ناجحٌ وذكيّ، وزوجتك على وشك أن تلد، إنسَ علاقتنا وتفرّغ لعائلتك.

تأكّد له الآن أنّه خسرها نهائيّاً ولن يستعيدَها أبداً. ومرّت في رأسه خيوطٌ باهتةٌ من أسئلةٍ مشتّتةٍ بلا أجوبة، وتذكّر اعترافها له بعلاقتها بأبي أمين ظنّاً منها أنّه حبّها الأبديّ، ويجب أن يعرفَ كلّ شيء عنها، وتهيّأ له أنّه يتألّم لغدره بزوجها القابع مُحبطاً على بعد أمتارٍ منهما، ومرّت في ذهنه ذكرى طفولته البائسة الفقيرة.

وما لبثت هذه الخيوط أن تجمّعت كلّها في عقدةٍ واحدة، شعورٌ بالحقد على كلِّ النّساء. كلّهنَّ زانياتٌ وغادرات، يجدنَ بعض الصّعوبة في الخيانة الأولى، ثمَّ لا يلبثنَ أن يجدنَ الخيانة حقّاً مكتسباً يلِجْنَهُ من دون أيِّ تأنيب ضمير، فقال مُناكفاً:

– لك ما تريدين، إنّه جسدك على أيّة حال، وبالمناسبة سمعتك تقولين إنّي ذكيّ، أتعرفين أنَّ هذه الكلمة هي من أكثر الكلمات كرهاً عندي؟

– إم...

– ليست فقط كريهة، إنّما أيضاً لا أفهمها، فتُلصقُ أحياناً بشخصٍ سريع البديهة، وأحياناً أخرى، بصاحب ذاكرةٍ مميّزةٍ . أمّا المتفوّق في مادة الرياضيّات في الصّفّ، فحدّثْ ولا حرج، وما همَّ ألا يكونَ لبقاً في الكلام مع النّاس، أو أن يكونَ فظاً في التّعامل مع شريكة حياته... وكذلك الأمر في ما يخصُّ كلمة غبي، باعتقادي، إنَّ الإنسان يمارس عمليّة إسقاطٍ لرغباته وعقده النّفسيّة في هاتيْن الكلمتيْن.

– صحيحٌ أنّك أستاذ في علم الاجتماع! تملك دائماً الحجّة والبرهان، مع أنّي لا أتّفق معك تماماً، وعندي تعريفٌ خاصٌّ للذّكيّ؛ إذ أرى أنّه ذاك الإنسان الّذي ينظر إلى أيّة مسألةٍ تواجهه بمرونةٍ قابلةٍ للتّغيير، فلا يعطيها تفسيراً نهائيّاً لا رجوع عنه، وهو، أيضاً، ذاك الإنسان الّذي يحدس إلى أين يمكن أن تتطوّرَ الأمور.

انتبهت أنّها أصابته في الصّميم من دون أن تقصد، ولم تشأ أن يتابعا مناكفةً لا طائل منها، ورأت أنّه لا بدَّ لها من إنهاء النّقاش بسرعة، فانتقلتْ بنبرتها من المُلاطفة إلى الحزم والشّدّة وقالت:

– دعنا الآن من الفلسفة، واسمعني جيداً بعقلٍ منفتح. لقد مرّت علاقتنا يا غيفارا بلحظاتٍ سعيدةٍ وأخرى تعيسة، فأحياناً كنّا نتبادل أحلى الزّهور،

وأحياناً أخرى نتبادل أبشع الأشواك، فلنتذكّر الحسن ولننسَ القبيح، والأهمُّ، فلنسامح، نسامح في قلبنا وعقلنا وليس بالتّصرفات والمظاهر فقط.

لم يعد لديْه ما يقول فأطرق صامتاً ينتظر رصاصتها الأخيرة، الّتي ما لبثت أن أتت:

- والآن فلنخرج قبل أن يتساءلوا عن سبب تأخّرنا.

في هذا الوقت، كان أبو نجم قد أتى بالقهوة لطارق ولزوجة غيفارا، ولم يشربها معهما، فمنذ تلك اللّيلة الّتي اختلى فيها طارق بزوجته لأوّل مرّة، أصبح للقهوة مذاقٌ مقيتٌ في فمه، وأصبح بخارها يتفشّى في منخريْه كالغاز الكريه. هو الّذي كان يتغنّى برائحتها حين يستفيق في الصّباح، كأجمل ما يمكن أن يتنشّقه الإنسان. بات الآن مُقتنعاً أنَّ حاسّة الشّمِّ مُضرّةٌ أكثر ممّا هي مفيدة.

أمّا طارق، فقد طلب القهوة ليس بدافع الرّغبة في شربها، إنّما لتقطيع وقت غياب حبيبته وغيفارا، واغتاظ من قلّة صبره وهو الّذي يخطط عادةً بهدوءٍ ورويّةٍ لمعركةٍ قد تأخذ شهوراً، وكان قد بدأ يتململ حين رآها عائدة إلى الشّرفة بخُيَلاء وغيفارا وراءها يجرجر أذيال الخيبة. رمقها بنظرةٍ متسائلةٍ فرشقته بغمزةٍ من عينها اليسرى أطارت من رأسه كلَّ تساؤلاته، بلْ، وكلَّ أبيات الشّعر الّتي تابع أبو نجم تلاوتها وكأنّه لم ينتبه لخروج زوجته وعودتها إلى الشرفة.

-9-

مضت أشهر، استطاعت منى خلالها استرجاع قواها، وعملت بجدٍّ لتعودَ إلى وزنها الطّبيعي ما قبل الحمْل. وعادت عيناها العسليتان إلى بريقهما. وأصبحت مستعدّةً للقاء شارد. فعاودت الاتّصال بطارق الّذي أبدى لها جهوزيّته حالما تعطيه الإشارة.

بالإضافة إلى عملها على تحسين لياقتها ونضارتها، فقد أقامت في فترةٍ وجيزةٍ علاقاتٍ واسعةً مع نساء الدّكوانة والأحياء المجاورة، اللاتي كنَّ قد امتعضنَ في البداية من تسمية ابنتها زينب، ولكنّهنَّ سرعان ما تفهّمنَ موقفها وشعرنَ بضرورة الوقوف معها في وجه هذا الرّجل القاسي السّكير. وما كنَّ يعلمْنَ أيُّ إنسانٍ حنونٍ كانه، ولماذا تحوّل من حملٍ وديعٍ إلى نسرٍ كاسر.

وربَّ صدفةٍ خيرٌ من ألف ميعاد، فلمّا دعتها إحدى صديقاتها إلى بيتها لتعرّفَها بزوجة المسؤول العسكريِّ للقوّات في منطقة الدّكوانة، لم تكن منى تتوقّع أن تكونَ تلك المرأة هي نفسها رفيقتها الحميمة خلال سنوات دراستها في الجامعة اليسوعيّة، التقتا من جديدٍ كما لو أنّهما لم تفترقا قطّ.

ضحكتا من سخرية الصّدف حين عرفتا أنّهما ترتادان الكنيسة نفسها، ولم يُقدَّرَ لهما قطّ أن تلتقيا وجهاً لوجه، وروَت الواحدة للأخرى،

باقتضاب، الخطوط العريضة لحياتها منذ افترقتا. ثمَّ، وكما هي عادة النّساء، تكلّمتا لساعاتٍ عن الحياة اليوميّة، سابحتان بإسهابٍ في تفاصيلها الدّقيقة، وكأنّ لون السّتائر الّذي ستختاره صديقة منى لبيتها، أهمُّ من الأخبار المتداولة عن اجتياحٍ إسرائيليٍّ وشيكٍ لجنوب لبنان.

كانت صديقتها لا تزال على وعيها وتفهّمها للآخر، وكانت مع التّحرّر من القيود الاجتماعيّة، وشديدة التّعصّب لقضيّة المرأة، حتّى إنّها كانت قد أصرّت عند زواجها على زواجٍ مدَنيٍّ في قبرص، ما يتعارض مع عقيدتها الدّينيّة. وحين صارحتها منى بعيشها كالسّجينة مع زوجٍ لا تريده، وقفت إلى جانبها ووعدتها بفعل ما بوسعها لمساعدتها. لم تمطرها بالنّصائح المعتادة بالعودة إلى الرّشد وإعادة التّفكير، أو تسألها عن أسباب الخلاف مع زوجها، فكانت تدرك أنَّ لكلِّ عشٍ زوجيٍّ أسراره الخاصّة، وأنَّ جفاءً بين الزّوجيْن، لحدِّ الطّلاق، يكون أحياناً لسببٍ تافهٍ، كما هو حال أختها الّتي هجرت زوجها وتبيّن بعد سنواتٍ أنَّ السّبب كان صوته الحادّ الّذي لم تعد تحتمله.

أمّا زوجها، فكان قد أصبح أكثر عدائيّة، يتعامل مع الطّفلة زينب كالغريبة الدّخيلة التي يجب التّخلص منها، فلا ينظر إليها إلّا شزراً، حتّى إنَّ منى أصبحت تخاف عليها منه، وخصوصاً حين يعود في أواخر اللّيل تفوح منه رائحة النّساء والخمر، ولكنَّ هذا لم يمنعها من أن تبقى متماسكةً كلبوةٍ تدافع عن أشبالها.

وبإيعازٍ منه، كان اسمها مُدرجاً على كلِّ المعابر إلى بيروت الغربية لمنعها من العبور. وعندما هُيِّئ له أنّه مسيطرٌ على الوضع، وأنّها في وضعيّة المهزوم لا عون لديْها يساعدها فيما لو فكّرت بلقاء شارد، خفّف من رقابته. لم يكن يعلم إلى أي حدّ قد يصل تواطؤ النّساء عندما

يتعلق الأمر بمواجهة الجنس الذّكريّ، وكيف يصبحنَ جبهةً واحدةً ويعملْنَ بكتمانٍ وحرصٍ وتصميمٍ على هزمه.

وهكذا، استطاعت بمساعدة صديقتها تأمين مرورها عبر أحد الحواجز الفرعيّة، وحدّدت التّوقيت. وما كان عليها إلّا إيصال رسالةٍ لطارق لينتظرَها في الجهة المقابلة ويهيّئَ لها المكان الّذي سوف تلتقي شارداً فيه.

كان ذلك النهار من شهر كانون الثاني 1978 صحواً على غير عادة بعد أيامٍ من الشّتاء الشّديد والعواصف، ما جعلها تتفاءل خيراً حين أوصلتها صديقتها إلى المعبر.

نزلت من السّيارة واضطرّت إلى السّير مئات الأمتار لتصلَ إلى الحاجز المقابل حيث كانت تنتظرها سيارةٌ عسكريةٌ أرسلها طارق. جلست منهكةً على المقعد الخلفيّ، بينما السّائق ورفيقه يسترقان النّظر إليها بحذرٍ ورغبةٍ من خلال مرآتيِّ السّيارة، ولولا الخوف من طارق، ما كانا ليفوّتا عليهما فرصة مراودتها عن نفسها، كأكثر الرّجال أثناء الحروب والغزوات.

بينما السّيارة تسير ببطءٍ على الطّريق المحفّرة الّتي اختفى الزّفت عنها، مسحت العرق والغبار عن جبهتها بمنديلٍ تحوّل لونه فوراً من الأبيض إلى التّرابيّ، وباشرت إعادة مكياجها سارحةً بأفكارها، لدرجة أنّها نسيت وجودها في هذه السّيارة مع غريبيْن. كانت قد اختارت اللّون الأحمر الفاقع لطلاء شفتيْها، ولكن، ماذا لو لم يُعْجَب شارد بهذا اللّون الذي تضعه لأوّل مرّة؟ وماذا أيضاً لو لم تعجبه القّصّة القصيرة لشعرها البنيّ الّذي تركت له تَمَوُّجه المعتاد ولم تصبغه أسودَ كما كانت تفكر؟

وجفلت حين عَبَرَ رأسها السّؤال المقلق القديم لدى النّساء، فماذا لو كان شارد قد تغيّر وتعرّف إلى فتاةٍ من عمره.

انتشلها توقّف السّيارة في طريقٍ فرعيةٍ من حيٍّ رأس النبع من أفكارها، ورأت من خلال الزّجاج طارقاً يتّجه صوبها، فشعرت بالارتباك والخجل اللّذيْن بدّدهما طارق ببسمته المُطَمْئنة، فاستعادت ثقتها بصوابيّة الخطوة الّتي قامت بها. وبينما كانا يحثّان السّير باتّجاه الشّقّة الّتي أومأ إليها طارق بإصبعه، ازداد خفقان قلبها ولم تعد تفكّر إلّا باللّحظة الّتي بدأت تستعجلها للقاء حبيبها.

كان شارد ينتظر بأعصابٍ مشدودة، وعندما سمع وقع الخطوات تقترب، انتفض واقفاً على بعد خطوتيْن من الباب كلصٍ يتوثّب، وما إن أدار طارق المفتاح حتّى رأى منى تدخل في لمح البصر وارتميا في عناقٍ حميم، ثمَّ في قبلةٍ حارقةٍ غير آبهيْن بوجوده، فوقف لثوانٍ مشدوهاً، ثمَّ أقفل الباب وراءه، ولم يعرف إن كانا قد سمعاه حين قال إنّه سيرجع بعد ساعتيْن بالضّبط.

لم ينبس أيٌّ منهما بأيّة كلمة، بل اتّجها إلى غرفة النوم متعانقيْن بعجلة من يخاف من طارئٍ ما قد يخطف منهما هذه اللّحظة. حتّى الموت بعدها لم يكن ليعنيَ لكليهما أيَّ شيء، وتطارحا الغرام بشغفٍ وعنفٍ كجائعيْن بعد أيامٍ من الضّياع في صحراءَ قاحلة، من دون أن يكترثا للتّخت الخشبيِّ القديم ينكسر تحتهما، ليغرقا في وسطه كجسمٍ واحد.

لمّا ثيابهما المبعثرة في كلّ الاتجاهات، وجمّعاها جانباً، ثمَّ انتقلا إلى التّخت المجاور، ولم يكن هناك حاجة ليعربَ أيٌّ منهما عن حبّه للآخر، فقد أصبحت هذه الكلمة وراءهما. أخبرته كم عانت لتسمّيَ

ابنتهما زينب، ووصفت له بفرحِ عينيْها وحركاتها، الشّديدة الشّبه به، وتكلّمت بخوفٍ وألمٍ عن زوجها الّذي تغيّر وأصبح قاسياً وشريراً، وعن خوفها على أولادها منه.

لم ينتبها إلى انتهاء مهلة السّاعتيْن المحدّدة من طارق، إلّا حين طرق الباب، فلبسا على عجل، وفقط في هذه البرهة القصيرة من الوقت تحدّثا حول المستقبل، حديثاً كان شارد يريد البحث فيه، وكانت هي تهرب منه. وبينما كانت تزرّر قميصها، أخبرها أنّه يريدها له وحده وإلى الأبد، فاقتربت منه وقبّلته بنعومةٍ وقلقٍ قائلة: «يا ليْت هذا يحصل، دعِ الأمور للزمن، الآن ليس بأيدينا حيلة».

واتّفقا على موعدٍ لاحقٍ تحدّده هي، ثمَّ فتحا الباب لطارق، وانطلقت آخذةً معها فلذةً منه وتاركةً له قلبها وصعدت السّيارة العسكريّة في طريق العودة.

أمّا طارق فقد تملّكه في هذه اللّحظة شعورٌ واحد، وهو الرّغبة بأمٍّ نجم، فأدار محرّك سيارته وانطلق مسرعاً موكلاً إلى أحد مرافقيه إيصال شارد. تعجّبت أمُّ نجم لقدومه المفاجئ، مُحمرَّ الوجه وعشوائيَّ الحركات، قبّلته من دون حذرٍ قائلةً إنّها وحيدة، ويستطيع أن يفيضَ لها بما يجيش به صدره. فكان ردّه بأن جرّها إلى سريرها الزّوجيِّ من دون أن ينبسَ بأيّة كلمة، بهيجانٍ لم تعهده فيه قبلاً، غير آبهٍ باحتجاجها وخوفها من أن يأتيَ أحد أفراد عائلتها. وعرّاها من ثيابها كلّها وهي تقاوم راغبة، وتبعده مستسلمة. وبعد دقائقَ أصبحت تقتحمه غازيةً ناسيةً هواجسها والوقت الّذي بدأ يمضي بسرعة.

- 10 -

انتبه زوج منى إلى غيابها، وازداد شكّه عندما عرّج إلى بيت أمّها ورأى الأولاد، وعنّف أمَّ جوزف حين أخبرته أنّ ابنتها ذهبت لزيارة صديقةٍ لم تفصح لها عن اسمها. وبعد بحثٍ مضنٍ لساعاتٍ في كلِّ مكان، وجد أنّه لا خيار عنده إلّا العودة وانتظارها في بيت والدتها، الّتي فتحت له الباب قائلةً إنّ ابنتها قد عادت وهي في الدّاخل.

كانت منى جالسةً على الكنبة ترضع ابنتها من نهديْها المُنهكيْن اللذَيْن اجتهدا وكدحا في هذا اليوم، حين دخل زوجها والشّرر يتفجّر من عينيه في كلِّ الاتّجاهات. نظر إليها بغضب من يريد إشباعها ضرباً لولا الخوف من النّقيب أخيها المقرّب هو الآخر من القوّات، فقال بنبرة من يحاول جاهداً تمالك أعصابه:

- ها قد جئتِ يا مدام! بحثنا عنك في كلِّ مكان.

وحين أطرقت صامتة، تأكّدت له شكوكه، وأدرك أنّها تتحاشى الكلام حتّى لا تجرَّها صراحتها المعهودة إلى المجاهرة بفعلتها. واستشاط غيظاً عندما غطّت نهديْها مناولةً ابنتها الجائعة إلى أمّها، لتمنعَه عنهما، كأنّهما ملكٌ لإنسانٍ آخر ومحرّمٌ عليه حتّى رؤيتهما، فبدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بعصبيّةٍ شديدة، يلقي سؤالاً تلو الآخر، وإهانةً تلو الأخرى، وهي واجمة، ملقيةً عليه من حينٍ إلى آخر نظرةً خاطفةً مسروقةً لتستبينَ

درجة العنف الّتي يمكن أن يصلَ إليها، ناظرةً بقرفٍ إلى كرشه الذي يزداد تضخّماً من جرّاء الإفراط في الشّرب والظّاهر من القميص المفكوك الأزرار، وإلى يديْه المتشابكتيْن بصعوبةٍ خلف ظهره.

أفرغ جعبته من الأسئلة والشّتائم من دون أن يتلقّى أيَّ ردّ، فسكت من دون أن يهدأ. ماذا عساه يسألها بعد؟ وإلى أين يستطيع التّمادي؟ وإلى متى تستطيع هي أن تحافظَ على سكوتها مدركةً أنَّ فيه أيضاً إدانتها؟ أصبح الإحراج سيد الموقف، ولا بدّ من مخرج، فتدخّلت أمُّ جوزف وطيّبت خاطر صهرها، بحججٍ تبريريّةٍ غير مقنعة، تظاهر بقبولها مدّعياً أنَّ الأمر أصبح من الماضي.

أوصلها إلى البيت من دون أن يتبادلا الكلام، وخرج هادئاً مبيّتاً أمراً ما، شعرت به في نظراته وطريقته العنيفة في صفق الباب وراءه، فظلّت متيّقظةً خائفةً حتّى رجوعه في آخر اللّيل، ودخوله غرفتها، فتظاهرت بالنّوم مراقبةً تحرّكاته بعينيْها المشقوقتيْن بالكاد، وفجأةً انقضَّ عليها واغتصبها بعنفٍ مستعملاً كلَّ كلمات الرّذيلة الّتي خطرت في باله، بينما هي مستسلمةٌ لإرادته فاتحةً عينيها كأنّها جثةٌ هامدة، منتظرةً نهاية عذابها بلا مبالاة، كأنَّ ما يجري لا علاقة لها به، فانتقامه هذا أهون عليها بكثيرٍ من المخاوف الأخرى الّتي راودتها لساعات. ولم تنتبه أنّه حصل على نشوته إلّا عندما نهض عنها، ووقف قرب السّرير يرفع بنطاله ناظراً إليها برضًى عن نفسه، فقد قام بما شعر أنّه كان يجب أن يفعلَه منذ فترة. وما إن خرج حتّى دخلت واغتسلت كما لم تفعل بحياتها، كأنّما تطهّر جسمها من النّجاسة الّتي لحقت بها.

دخل غرفة الجلوس، وضع أمامه قنينة الويسكي وملأ كأسه حتّى طفحت وسال منها بعض الشراب، ثمَّ أشعل سيجارةً وبدأ يستعرض

كلَّ هذه التّغيرات الّتي طرأت على حياته في الفترة الأخيرة. وتدريجاً، انقلب رضاه عن نفسه إلى كرهٍ وأسفٍ لما بدا منه. لماذا وصل إلى هذا الحدِّ من القسوة؟ كم قال إنّه سوف يُغيّر حياته ثمَّ يجد نفسه بعد فترةٍ لم يغيّر شيئاً؟ أولم يكن أولى به أن يهجرَها كما أرادتْ؟ ولكن، هل كان ليستطيعَ العيش من دونها؟ فما الحلُّ عندما يحمل الإقدام في طيّاته ندماً محتملاً، ويحمل الإحجام في ثناياه ألماً لا يُحتمل؟

شعر كم هو جبانٌ حقيرٌ ومُحِبٌّ غيورٌ في الوقت نفسه. فرمى برأسه على الكنبة شاخصاً ببصره إلى السّقف بعينيْن حزينتيْن، ولم يلبث أن غفا كما هو.

استفاق في اليوم التّالي ليجدَ نفسه ممَدّداً على الكنبة، وابنه يوسف الّذي لم يكمل بعد عامه الثّالث ينظر إليه من الكنبة المقابلة. وشعر كأنَّ الولد قد عرف بما اقترفه، فازداد خجلاً من نفسه، ونهض فدخل الحمام واغتسل، ثمَّ خرج من البيت مسرعاً خائفاً أن يرى زوجته المُغتصبة في اللّيل، فكيف سيهرب من نظراتها؟ حتّى إنّه لم يذهب إلى المدرسة مخافة أن يلتقيَها هناك، بل اتّصل بالمدير ليبلغَه أنّه مريض، وتنقّل شارد الذّهن من مركزٍ حزبيٍّ إلى آخر، إلى أن بلغَ به المستقرُّ عند صديقٍ قديمٍ من بين القلّة الّذين بقوْا أوفياءَ لصداقته.

اتّبع نصيحة صديقه ورجع في المساء مُبكراً على غير عادته، فتحت له الباب كشخصٍ غريب، بكبرياء المرأة المجروحة الّتي لا حول لها ولا قوّة، ناظرةً إليه بخنجريْن ثابتيْن لا يتزحزحان من دون أن تنبسَ بأيّة كلمة. تمنّى وهو يمرُّ من أمامها لو أنّها تهينه أو تصفعه، ولكنّه لم يكن يعرف أنَّ المرأة تنتقم دائماً من حيث لا يستطيع الرّجال توقّعه. فلم تمضِ دقائقُ على جلوسه قبالة التّلفاز متظاهراً بمتابعة الأخبار، حتّى

دخلت عليه وسألته إن كان يريد أن تحضِّرَ له العشاء، فأجاب بالنّفي شاعراً بالاطمئنان إلى عودة الأمور أقلّه إلى ما كانت عليه قبل اللّيلة الفائتة.

ولكنّها ما لبثت أن بدّدت آماله حين رجعت بعد قليلٍ سائلة:

– هل أغتسل قبل النّوم أم أنّك تريد تلويثي هذه اللّيلة أيضاً؟

نزلت كلماتها عليه كالسّكاكين، شاعراً هذه المرّة بغباء اطمئنانه، فهل تغفر المرأة الحاقدة؟ ولمّا حاول استرضاءها والاعتذار منها قائلاً إنَّ هذا الأمر كان خارجاً عن إرادته، وإنّه مستعدٌّ لأن يتغيرَ وأن يفعلَ ما تطلبه، إلّا تركها، أجابته بحدّة:

– إفعل ما يحلو لكَ يا أستاذ نبيل، ولتعلم أنَّ ما تفكر به وما ستفعله لا يعنيني، أنت لا تعدو كونك رجلاً خسيساً لا تحمل من النّبل إلّا اسمك، تباً لك من رجلٍ منحطّ!

وما لبثتْ أن ندمَت على ما تفوهتْ به، أوليست هي أيضاً زانيةٌ مُخطئة، وردّدت في نفسها مراتٍ عديدةٍ «أغفر له ولي ياربّ»، ولجأت إلى فراشها وبكت بصمتٍ حتّى غفت.

الفصل الأخير

- 1 -

مرّت ثلاث سنوات ونيِّف، غرق شارد خلالها في دروسه الفلسفيّة بجدٍ ونشاط. لم يفوّت خلالها محاضرةً أو ندوة، في الجامعة أو خارجها، وصارت النّقاشات بين الطّلاب تجده قبل أن يبحثَ عنها، إلى أن حصلَ في حزيران 1981 على إجازته بتفوّقٍ لامع، وحالما عرف النّتيجة، كتب رسالةً لمنى أعطاها لطارق.

شعرت أمُّ نجم بالفخر بابنها المحبّب، ولكنّها لم تكن أكثر سعادةً بهذه النّتيجة من كريم، القادم لزيارة لبنان بعد غياب أربع سنوات، والّذي صار له منذ فترةٍ تجارته الخاصّة في أفريقيا وأصبح من الميسورين، يسير نحو الغنى بثباتٍ ووعيٍ وصبر، وخصوصاً بحذرٍ، مُتّبعاً نصيحة خاله الّذي كان يردّد على مسمعه مبدأه في عمل التّجارة «لا يضاهي الغنى سرعةً إلّا الفقر، فحذار يا صغيري من مطبّات الحياة».

لم يكن مجيء كريم للزّيارة فقط، فما إن اجتمع بشارد حتّى أخبره أنّه ينوي الزّواج من أخته الصغرى، الشّديدة الشّبه بأمّها. احتجَّ شارد في

البداية، فهي في السّادسة عشرة من العمر. ولكنّه فوجئ بمباركة والديْه لهذا الزّواج، ثمَّ ما لبث أن اقتنعَ بالأمر حين لمس الرّغبة من أخته، الّتي كان كريم فعلاً يعجبها، إنّما، قبل كلِّ شيء وجدت لنفسها نافذةً للخروج من جحيم الحرب.

أمّا موافقة أمِّ نجم وتزكيتها، فقد كانت نابعةً من رغبتها بالعيش الرّغيد لابنتها بعيداً عن الفقر الّذي عانت منه العائلة في السّنوات الأخيرة. وكانت قد وافقت على مضضٍ على زواج ابنتها البكر زينب من صديق نجم الفاشل وعودتها للعيش معه في فطر والعمل في الزّراعة. وقبلت حينها بالأمر، لأنّها كانت تعي أنَّ الحظَّ القليل لزينب من الجمال لم يكن ليسمحَ لها بالحصول على زوجٍ أفضل. وفي قرارة نفسها، كان كلُّ همّها أنّ يذهبَ أولادها كلٌّ في سبيله حتّى يخلوَ لها الجوُّ مع طارق، الّذي أصبحت بالنّسبة إليه الحبيبة وزوجة المستقبل. فقد تابعا علاقتهما بتؤدّة وبقناعةٍ من كليْهما أنّهما خلقا لبعضهما، وبدآ يتباحثان مراراً بالسّبل الّتي سوف تسمح لهما بالعيش معاً بشكلٍ نهائيّ.

أمّا أبو نجم، فكان قد أصبح أكثر انطواءً على نفسه، عاجزاً، مستسلماً أمام قدره، حتّى إنّه لم يعد يشعر بالحقد تجاه زوجته، التّي أصبحت تعود من لقاءاتها بعشيقها غير مباليةٍ برائحة عرقه وعطره يفوحان من ثيابها، كأنّها تردُّ له الصّاع صاعيْن بعد طول زمن، فتذكره بأيام كان يعود بعد لقاءاته الغراميّة بغزل، مستهتراً بما قد تجده من آثارٍ عالقةٍ على ثيابه.

وتحوّل إلى والدٍ حنونٍ يهتمُّ بأولاده، مع أنّه لا يزال يميّز بينهم ويقلق بشكلٍ خاصٍّ على مستقبل نجم الّذي ترك المدرسة ويعمل في محلٍّ لميكانيك السيارات. وسُرَّ كثيراً عندما تعرّف ابنه على ابنة أحد المهاجرين اللّبنانيّين في أوستراليا الموجودة في لبنان للزّيارة والبحث

عن عريس، فلربّما تكون هذه الفرصة الوحيدة عند ابنه لبناء حياةٍ أفضل.

وكانت صفقات الزّواج بين الفتيات اللّبنانيّات في الهجرة مع شبابٍ في لبنان قد أصبحت تجارةً رائجة. فبينما يستطيع الشّابُّ الزّواج وبناء العلاقات مع نساءٍ في المهجر، تجدُ الغالبيّة السّاحقة من الفتيات أنفسهنَّ مرغماتٍ على المجيء واختيار عريسٍ في لبنان، فمن جهة، لا تتقبّل العقليّة التّقليديّة اللّبنانيّة زواج الفتاة من أجنبيّ، ومن جهةٍ أخرى، سوف يُتاح لها الاختيار بين الأفضل من الشّباب، الّذين يرزحون تحت عبء الحرب ومصاعب الحياة. ولن يكون بمقدورهم الهجرة بسهولةٍ إلّا من خلال هذه الطريقة؛ فأبواب الهجرة كانت قد بدأت تصبح أكثر صعوبة.

وتمَّ زواجا نجم وكريم بسرعة. وبعد أيامٍ قليلة، حثّت أمُّ نجم ابنها البكر على العمل لأخذ أخيه الأصغر إلى أوستراليا، حال وصوله، ولو عبر تزويجه هو الآخر، وإن كان لم يبلغ بعد الثّامنة عشرة من عمره. فهو الآخر حظّه في العلم قليل، ولمّا يزل في الصفّ الأوّل ثانوي. فأثلج صدرها حين لمست منه المسؤوليّة قائلاً إنَّ هذا سوف تكون له الأولويّة حال وصوله إلى أوستراليا.

كانت علاقة شارد بطارق قد تحوّلت تدريجاً من الكره إلى المحبّة ثمَّ الصّداقة الوطيدة. وأصبح يجد فيه شخصاً موثوقاً حازماً متواضعاً. وبدأ في الوقت نفسه ينفر من غيفارا. فصار يراه متزلّفاً حقوداً. ولمّا قدم طارق لزيارة آل نجم لتهنئتهم بتزويج ابنهما، اختلى بشارد سائلاً إيّاه ماذا سيفعل الآن؛ فالوظيفة ستجعله تابعاً مدى الحياة لراتبٍ مُذِل، وأخبره أنّه أمَّنَ له منحةً دراسيّةً مجانيّةً للذّهاب إلى الاتّحاد السّوفياتيّ، وإلى موسكو تحديداً، لمتابعة دراسة الدكتوراه في الفلسفة.

شكره شارد إنّما أخبره أنّه لن يستطيعَ البتَّ بقراره قبل معرفة رأي منى. ولكنَّ طارقاً أقنعه بضرورة تطوير حياته، وأنَّ منى لن تقبلَ أن تكونَ حجر عثرةٍ في دربه، بل ستكون سعيدةً له، ووعده بإرسال رسالةٍ ثانيةٍ لها، فتردّد شارد قليلاً ثمَّ وافق مُحتفظاً بحقِّ التّراجع بعد أخذ رأي منى.

أمّا كريم الّذي جاء لزيارتهم في المساء، فقد كان وقع الخبر عليه مختلفاً، فتجهّم وجهه وأخبر شارداً أنّه كان يُحَضِّرُ له مفاجأةً أجمل، فهو يريد منه الذّهاب إلى باريس ومتابعة الدّكتوراه في السّوربون، وأنّه سيتكفّل بالمصاريف كافّة. رفض شارد في البداية ولكنّه رضخ أمام إصرار كريم، الّذي قال له إنّه لا يعرض عليه خدمةً، بل يطلبها منه، فهو صديقه الأقرب وأصبح الآن قريبه.

في الأسبوع نفسه، سافر كريم وزوجته إلى أفريقيا، وشارد إلى باريس بعد تلقّيه رسالةً من منى تشجّعه، حيث بدأ مشواره نحو تحصيل الدّكتوراه. أمّا نجم، فقد انتظر شهوراً طويلةً قبل حصوله على الموافقة على الهجرة والسّفر إلى أوستراليا. وما إن تمّت هجرته في بداية سنة 1982، حتّى عمل جاهداً ليفيَ لأمّه بالوعد الّذي قطعه لها في ما يخصُّ أخاه الأصغر. واستطاع بعد أشهرٍ عقد صفقة زواجٍ لأخيه من فتاةٍ مهاجرةٍ في أوستراليا تكبره بعدة سنوات.

وبانتظار سفر ابنها الأخير، بدأت أمُّ نجم تبحث بجديّةٍ مع طارق مسألة الطّريقة الّتي سيتّبعانها للعيش معاً، وكان يستعجل الأمر أكثر منها حتّى يُتاحَ لهما الإنجاب، فقد تخطّت سنَّ الأربعين بسنوات.

-2-

سُرَّتْ منى كثيراً بخبر نجاح شارد وهي تقرأ رسالته. وما إن طوتها بعنايةٍ وضمّتها إلى رزمتها المخبّأة بعناية، حتّى تذكّرت يوم نجاحه في الثّانويّة العامة، كيف شعرت حينها بالخوف على حبّهما، أمّا الآن، فقد غمرتها الفرحة لاطْمئنانها لمستقبله الواعد، الّذي بدأ يرتسم. فرحةٌ ممزوجة بالحزن لتأكّدها من استحالة مستقبلهما معاً. فأمسكت قلمها وخطّت على الفور ردّها الّذي كان شارد قد استلمه قبل أيامٍ من سفره، ردّ عبّرت فيه عن سرورها وإصرارها على سفره، وقرأ بين السّطور شعوراً بالإثم وزهداً في الحياة.

وبعد سفره، استمرَّ التّواصل بينهما من خلال الرّسائل. وفي حزيران 1982، بينما كان يستعدُّ للمجيء إلى لبنان مُمنّياً القلب بلقاء حبيبته، وقع ما لم يكن في الحسبان، فقد حصل الاجتياح الإسرائيليُّ للبنان، وصولاً حتّى بيروت ومحاصرتها.

بعد أسابيعَ من الحصار، نجح الإسرائيليّون في احتلال بيروت وإخراج الفلسطينيّين من لبنان. وفي أواخر آب، تمَّ انتخاب حليفهم قائد القوّات اللّبنانيّة بشير الجميِّل رئيساً للجمهوريّة، ما أبهج زوجها وأحزنها لشدّة كرهها لشخص الرّئيس. وهدأت المعارك على كلِّ الجبهات. وسريعاً تمَّ فتح المعابر بين البيروتيْن، فبدأ شارد يعدُّ العدّة

من جديد للمجيء إلى لبنان في أواخر شهر أيلول، ولكنَّ المفاجأة المريرة كانت بانتظاره.

فما إن ولج المبنى حيث يسكن في شارع بارباس في باريس، وفتح علبته البريديّة المحشوّة بالإعلانات العديدة، حتّى رأى بينها رسالة من منى تتوثّب، كأنّها تناديه، ولم يعرف لماذا توجّس منها شراً، وهو الّذي كان يطير فرحاً كلّما وصلته منها رسالة. لم يفتحها في الحال، بل صعد إلى الغرفة الصّغيرة الّتي يسكنها، والّتي بالكاد تتّسع لسريره وطاولة، فوضعها جانباً وألقى نظرةً على الإعلانات، ثمَّ أمسك الرّسالة وأخذ نفساً عميقاً كمن يُقدم على معركةٍ خاسرة.

قبل أن يفتحَها، نظر إلى تاريخ الإرسال في أسفلها، فازداد ريبةً، إذ رأى أنّه لم يمضِ إلّا أسبوعٌ واحدٌ على إرسالها، في الوقت الّذي كانت تحتاج فيه الرّسائل لأسابيعَ طويلةٍ حتّى تصلَ من بيروت. لقد وصلت إليْه كالسّهم، كطلقة رصاصة، قرأها ولمّا يزلْ واقفاً، ثمَّ تهالك على السّرير متمدِّداً على ظهره، قاطباً جبينه وعاضّاً برفقٍ على شفته السفلى. وغرق في تأمّلٍ عميقٍ بلا معنى ولا مغزى ولا هدف. نسي الرّسالة ووجوده الآن في هذا المكان، وبدأت التّفاصيل الحزينة في حياته تتوالى كمن يقرأ قصّةً كئيبةً لحياة إنسانٍ آخر.

مضت أكثر من ساعة، خُيِّلَ إليه فيها أنّه نام، ولكنّه في الواقع كان أشبه بالمُخدَّر. وفجأةً كمن أُعطِيَ حقنةً منشّطة، استوى بسرعة وجلس على حافة السّرير، مُمسكاً رأسه بكفّيه ومطرقاً إلى الأرض، متفكّراً في هذه الحياة الّتي ترميك أحياناً بمفاجآتٍ كالصّواعق، كطعنات الخناجر.

كان يعلم أنَّ هناك شيئاً ما يجول برأس حبيبته، وكان القلق قد بدأ يساوره، ولكن ما عساه يفعلَ الآن؟ ها قد أتى الخبر الّذي كان يتسلّل

منذ فترةٍ إلى عقله وقلبه فيختبئان منه كاللّصّيْن. أجل، ما عساه أن يفعلَ وما أصعب تقبّل القرار حين يكون مؤلماً ولا بديل منه.

كتبت منى رسالتها لشارد في اليوم نفسه الّذي اغتيل فيه بشير الجميِّل في الرّابع عشر من أيلول 1982، قبل تسلّمه مهماته الرّئاسيّة. فقد رجع زوجها في أواخر تلك اللّيلة، محطّماً، منهاراً، فاقداً أعصابه. وصبَّ عليها جامَّ غضبه، كأنّها هي القاتلة، وهي كانت فعلاً تكره الرّجل، إنّما كانت دائماً تكره القتل أيضاً، وتعارض عقوبة الإعدام حتّى لأسوأ المجرمين، ولا تدعو إلّا إلى المحبّة والتّسامح.

لم يكن هو الآخر بعد يعلم بما يدور في خلدها، وتلقّت كلماته النّابيّة والجارحة بهدوءٍ وصمت، وما إن أنهى سيل إهاناته حتّى وقفت قائلة «فليسامحك الربّ»، وذهبت فانزوت في غرفتها، مُقفلةً الباب على نفسها، واتّخذت قرارها المؤجّل منذ فترة.

بدأت تخطُّ رسالتها لشارد، ومزّقتها مرّاتٍ عديدة قبل أن تستقرَّ بها على النّص الّذي قرأه. وبعد أيامٍ من كتابتها، ورغم الحالة الأمنيّة المتردّيّة النّاتجة عن عملية الاغتيال، قصدت أمَّ نجم. كان لا بدَّ لها من إخبارها بقرارها، واستطاعت الوصول إليها بعد المرور بحواجزَ عديدة.

سألت أمُّ نجم عن الطّارق، قبل أن تفتحَ الباب وترتمي في عناقٍ حميمٍ مع صديقتها، ثمَّ دخلت غرفة النّوم وجاءت بطارق ببزّته العسكريّة ومسدّسه على خصره. فقد كان الوضع الأمنيُّ يتطلّب منه الحذر الشّديد. فالإسرائيليّون يبحثون عن القادة العسكريّين للحركة الوطنيّة. وكان طارق يعمل مع بقيّة الرّفاق لتشكيل نواةٍ للمقاومة، فكان يدخل البيْت ويخرج منه كاللّص.

رأت أمُّ نجم تساؤلاً في عينيِّ منى حول وجود طارق معها في الشّقّة،

فأخبرتها أنّهما متزوّجان منذ حصلت على طلاقها منذ شهور، ويعيشان الآن معاً منذ سفر ابنها الأصغر إلى أوستراليا.

ما إن بدأت منى تروي قصّة حبّها لشارد، حتّى تبسّمت أمُّ نجم قائلةً إنّها، منذ فترة، كانت شبه متيقّنةٍ من الأمر، ولم يكن عليها إلّا استدراج طارق في لحظات ضعفه ليبوحَ لها بكلِّ شيء. لم يعد على منى إلّا إخبار صديقتها بالقرار الّذي اتّخذته. حاولت أمُّ نجم ثنيها، ولكنّها تراجعت أمام التّصميم الواعي والمدرك لمنى. فكان واضحاً أنَّ هذا القرار لم يكن وليد اللّحظة، إنّما كان نتاج تفكيرٍ عميقٍ منذ فترةٍ طويلة، وكان إيمانها سيصل بها إليْه، عاجلاً أم آجلاً.

وبينما كانتا تتودّعان على الباب، عرفت كلتاهما أنّهما لن تتقابلا ثانية، فتعانقتا بحرارة، وأكملتا حديثاً مُطوّلاً على الباب قبل أن تنهيَ منى الكلام قائلة:

– كنتُ دائماً وسأبقى أعتزُّ بصداقتك يا وداد، وأحببت شارداً ولا أزال. أشعر بالخجل أحياناً ويصعب عليَّ الاعتراف بهذا الحبِّ حتّى أمام نفسي، إنّما، في الوقت نفسه، لم أندم عليه ولو للحظة. إنّه أسمى ما حصل معي في حياتي. وأعتقد أنّه أفضل لأيِّ إنسانٍ أن يمرَّ بتجرِبة حبٍّ فاشلة، من أن لا يقعَ في الحبِّ أبداً.

واستدارت منصرفةً من دون أن تنتظرَ ردَّ صديقتها.

- 3 -

«حبيبي شارد،

حين أقولها لك، تجدني أصعد إلى السّماء نجمةً برّاقة، وحين كنتُ أسمعها منك، كانت تقتحم جسميَ الولهان الذّابل فتحيله وردةً متفتّحة، وها أنا أجد نفسي مضطرّةً أن أناديك بها، يا حبيب قلبي، للمرّة الأخيرة، وهذا لا يعني أنّني توقّفت للحظةٍ عن حبّك، أبداً، فحتّى مجرّد الكتابة لك تملأ كياني فرحاً وغبطة، وذكراك لن تفارقَ خيالي.

ولكن، لا شكَّ أنّك لمست أنّني أعيش منذ سنواتٍ صراعاً قاسياً بين قلبي ووجداني، بين عشقٍ يملأ كياني وإيمانٍ يردعه، صراعاً لم أعد قادرةً على التّعايش معه، فالاستمرار على ما أنا فيه، سوف يؤدّي بي حتماً إلى الانتحار أو الجنون.

خلال لقاءاتنا الأولى يا شارد، كان يتملّكني شعورٌ بالرّضا، مثَلي مثل النّاس جميعاً، نجد دائماً وبسهولةٍ الأعذار لأخطائنا. فالإنسان تبريريٌّ بالفطرة. كنتُ تائهةً ألوذ بغرامي، ولكنَّ الرّهبة من سيدنا يسوع، كانت لا تزال جاثمةً على صدري كجمرٍ ملتهبٍ تحت الرّماد، إلى أن عادت فاستيقظت تحرقني وتعذّبني، حتّى وصلتُ الآن إلى قناعةٍ راسخةٍ أنّني لن أستطيعَ متابعة حياة الزّنا، فأين الفرار من ربّي بإثمي وذنبي؟ وما الحلّ؟

تيقّنتُ قبل كلِّ شيء، أنّني لا أستطيع متابعة حياتي مع نبيل تحت سقفٍ واحد. فأنت لا تدرك أيَّ إنسانٍ حاقدٍ وقاسٍ أصبح عليه، مع أنّه يملك جزءاً كبيراً من الحقّ. ثمَّ فكّرتُ بالهروب معك بعيداً، ولكن، هل سأستطيع العيش من دون رؤية أولادي؟ وتركهم يكبرون وعار أمّهم يلاحقهم؟ وأيضاً، إلى متى سوف نستطيع تخطّي فارق العمر بيننا وتجاهله؟ فهل هناك أيُّ احتمالٍ أن ينجحَ الزّواج بين رجلٍ وامرأةٍ تكبره بخمس عشرة سنة؟ هذا إذا استطعنا تخطّي عقبة الدّين، وأعرف أنّك مستعدٌّ لتغيير ديانتك من أجلي، ولكن، كونك تؤمن بعدم وجود خالقٍ لهذا الكون سيبقى عائقاً أمامنا.

ووجدتُ نفسي أخيراً أمام خيارٍ وحيد، مضحّيةً بالحبِّ الكبير الّذي يجمعنا، متألّمةً من أجلكَ، إنّما، في الوقت نفسه مدركةً أنَّ هذا أفضل لكلينا. لقد اتّخذت قراري يا شارد، ولا رجوع عنه، فسوف أترهبن وألجأ للعيش في الدّير، مسلّمةً نفسي لربّي، ليس فقط طلباً للسّماح والغفران. فأنا على ثقةٍ أنَّ سيّدتنا العذراء الحنونة لن تتركَني وسوف تحتضنني برأفةٍ ومحبةٍ كما تفعل مع كلِّ أبنائها التّائبين، إنّما، قبل كلِّ شيء، لأنَّ هذا ما أريده، وأعتقد أنَّ نفسي كانت تتوق إليه دوماً.

أرجوك يا شارد، لا تعمل على حثّي على الرجوع عن قراري، فهذا لن يزيدَني إلّا ألماً. ومنذ اللّحظة الّتي تصلك فيها رسالتي هذه أتوسّل إليك ألاّ تحاولَ لقائي؛ هذا لا يعني أنّني لست مشتاقةً إليك، معاذ الله، فقلبي يتمنّى رؤية وجهك الصّبوح، ولكنَّ وجداني منذ الآن أصبح في مكانٍ آخر، ملكاً لربِّ السّماوات والأرض.

أنصحك يا شارد أن تبقى في فرنسا، وألاّ تفكّرَ بالعودة إلى هذا البلد الخرِب والهجين، إلّا للزّيارة، وعش حياتك، وأنا على يقينٍ من أنّك سوف تصل إلى مراتبَ عاليةٍ يا فيلسوفي الصّغير، وسوف تحصل على

السّعادة من دوني، ولن يضيرَني أبداً أن تجدَ لنفسك زوجةً وحبيبةً تتابع حياتك معها، بل بالعكس هذا ما أتمنّاه لك من كلِّ قلبي.

ولاتحزنْ، أولسْتَ من دعاة فكرة أنَّ كلَّ ما في هذه الحياة حظٌّ وصدفةٌ فقط. هذا هو حظّنا في الحياة. ولا تجعل مني عقبةً في مستقبلك، بل فلتبقَ ذكرى حبّنا منارةً تنير قلبك أينما ذهبت.

وأخيراً أسألك وأتمنّى عليك أن يستمرَّ التّواصل بيننا منذ هذه اللّحظة عبر الرّسائل، وسوف تتلقّى منّي رسالةً كلَّ شهرٍ ما حييت، وإن فقدتُ عنوانك فسأكتبها وأحتفظ بها علّها تجد طريقها إليك في السّماء، وسوف تبقى يا شارد في قلبي ملاكاً طاهراً يسكن روحي إلى أن يتغمّدَني الربُّ برحمته.

ودمتَ لي سالماً.

منى، في 14/ 9/ 1982».

في اليوم التّالي لكتابة رسالتها، قصدت خوري الكنيسة، واعترفت له بكلِّ شيء، طالبةً المغفرة. وأنهت اعترافها بالطّلب منه مساعدتها لترك الحياة المدنيّة والتّرهّب.

بعد أن لمسَ الخوري صدقها، وأيقن أنَّ حياتها الزّوجيّة لن يقدّرَ لها الاستمرار، أثنى على قرارها ووافق على تقديم يد العون لها، متكفّلاً بإقناع زوجها.

لم تُفاجئ منى كثيراً موافقة زوجها بسرعةٍ على هَجْرها، فهو الآخر كان قد وصل إلى قناعةٍ أنَّ متابعة حياتهما بهذا الشّكل أصبحت لا تُطاق. والمخرج الّذي وجدته سوف يكون مُشرّفاً لكليهما. وعرض عليها التّواصل مع ديرٍ بالقرب من بيروت، ولكنّها أصرّت على الابتعاد. وقبل نهاية السّنة كانت قد استقرّت في أحد الأديرة البعيدة في أقصى الشّمال.

-4-

«حبيبتي منى،

ما إن أنهيت قراءة رسالتك حتّى وجدتُني تائهاً في دهاليز الحياة، ضائعاً بين مسافات الزمن. وعندما عزمتُ على الردّ، وفي قلبي وعقلي وعلى لساني ألف قصّةٍ أرويها ومشاعرُ غاليةٍ أحكيها، وَقَفَتْ كالسّدِّ أمام قلمي، كلمات شاعرنا المحبّب إلى قلبيْنا محمود درويش:

«من أيْن أبتدي؟ وأيْن أنتهي؟

ودورة الزّمان دون حدْ

وكلُّ ما في غربتي

زوّادةٌ فيها رغيفٌ يابسٌ ووجدْ

من أيْن أبتدي؟

وكلُّ ما قيل وما يُقال بعد غدْ

لا ينتهي بضمّةٍ...أو لمسةٍ من يدْ».

أعترف لك أنّني منذ فترةٍ يا حبيبتي، وهل سأستطيع مناداتك بغير هذه الكلمة؟ أشعر بنذير شؤمٍ يتوثّب في أعماقي، كشجرةٍ تهدأ مذعورةً مستشعرةً قدوم العاصفة. كنتُ، كمن يقرأ روايةً ستنتهي لا بدَّ بانكسار البطل وهزيمته، ويتابعها أملاً بمعجزةٍ تعكس الفصل الأخير للنّهاية الحزينة.

وكم كان بودّي ألاّ أزيدَ عليك آلامك، ولكنّني لاأستطيع إلّا أن أعبّرَ لك كم أشعر بنفسي مكسوراً كئيباً، وقد حطَّ عليَّ حزني العتيق كالغمامة السّوداء، مُطبقاً على زهور أحلامي الذّبلى، فكأنّني كلّما أقفز أتعثّر.

كنت لأترجّاك العودة عن قرارك، ولكنّني مُتيقّنٌ من أنّه حاسمٌ ونهائيّ، نابعٌ من إيمانك العميق ومن محبّتك للآخرين ورغبتك بسعادتهم. وأنا، كما قلتِ، أؤمن بعدم وجود خالقٍ لهذا الكون، ولكنّني أقدّر إيمانك وكلَّ إيمان، وأعرف في قرارة نفسي أنّك وصلتِ إلى حيث كنتِ تصبين. وكنتُ أحياناً أشعر في حشرجات كلامك وفي خلجات جسدك بمعاناتك الّتي كنتِ تجهدين لإخفائها عنّي، ولطالما آلمتني. ولم أشأ في أيّة لحظةٍ تغليب حبّكِ على عميق إيمانك وثنيكِ عنه، فهل سأفعل الآن وأنتِ تذهبين به إلى حدّه الأقصى؟

والآن، كما أشرتِ، ها أنا أشحذ همّتي بتفسيري العبثيِّ لهذه الحياة، ومقتنعٌ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بأنّها، فعلاً، حظٌّ وصدفةٌ فقط، وبأنَّ كلَّ ما يجري معنا من الصّغيرة إلى الكبيرة مقدّرٌ ومكتوبٌ سلفاً لا تغيير فيه. فلا مفرَّ عندي إذن، من قدرٍ لم أخترْه يوماً.

أجل يا حبيبتي، سوف أتابع حياتي، على أمل استلام رسالتك كلَّ شهر، واعلمي أنّني سأكون لكِ في أيّة لحظةٍ تتراجعين فيها عن قرارك، ومهما كانت الظّروف ولو بعد سنين، فلا أظنُّ أنّي سأجد ملاذاً عاطفيّاً في حضن امرأةٍ أخرى، أو أنَّ حبّاً آخر سيسكن قلبي من جديد، فكيف سأهبُ ما لا أملك؟ وهل ينمو الزّرع في تربةٍ جافةٍ من دون ماء؟

وأنهي رسالتي بما بدأ محمود درويش به قصيدته:

«تحيةٌ وقبلة،

وليس عندي ما أقول بعدْ»

باريس، في 22/ 9/ 1982».

-5-

ومرّت السنوات على شارد رتيبةً ثقيلة، فكأنَّ الزّمن توقّف عنده في تلك اللّيلة الّتي تلقّى فيها رسالة منى.

ومع أنّه أنهى الدكتوراه في الفلسفة وهو لمّا يبلغ بعد الخامسة والعشرين من عمره، وبدأ يدرّس كأستاذٍ في السّوربون. ومع أنّه حاول أن يعيشَ حياته كما نصحته منى، وبنى علاقاتٍ واسعةً في المجتمعين اللّبنانيِّ والفرنسيّ، وانتقل من علاقةٍ جنسيةٍ إلى أخرى، فقد كان كمن يبحث في كلِّ امرأةٍ عن منى فلا يجدها. وظلَّ يلازمه شعورٌ أنَّ ذلك الرّجل النّاجح في حياته هو غريبٌ عنه كأنّه إنسانٌ آخر يتقمّصه، وأنَّ شارداً الحقيقيَّ لا يزال هناك في مكانٍ آخر وحيداً وحزيناً، يبحث عن ذاته الّتي فقدها إلى غير رجعة.

ظلّ يهيم متمسّكاً ببارقة أملٍ تعيد إليه منى، إلّا أنّ أحلامه استحالت، مع الزّمن، إدماناً على الحسرة والألم. حتّى الرّسائل الشّهريّة الّتي واظب على إرسالها أصبحت تفقد شيئاً فشيئاً من رونقها، كوردةٍ غريبةٍ في حقلٍ من الأشواك تنتظر ذبولها وتآكلها. ولم يلبث أن انطوى في عزلةٍ كئيبة، مُفرِّغاً كلَّ وقته لعمله التّدريسيِّ وكتابة المقالات الفلسفيّة، المتمحورة بغالبيّتها حول عبثيّة الحياة، والّتي كانت، ما إن تصدر، حتّى يتبعها نقدٌ ونقاش، بين مؤيّدٍ ومعارض، ممّا جعله إنساناً مرموقاً في مجاله.

وكما وعد منى، فهو لم يبحث عن طريقة لرؤيتها، وبكلِّ الحالات لم يكن ليستطيع. فالحرب عادت بأعنف ممّا كانت، وجعلت من بيروت الشّرقيّة وامتداداتها الجبليّة كانتوناً مسيحيّاً مقفلاً لا مجال لدخوله من دون التّعرض لخطر الموت، حتّى إنّه لم يستطع رؤية ابنته زينب، وإن رآها فما عساه يقول لها؟ واكتفى بمشاهدة صُورها الّتي كانت تصله من حينٍ إلى آخر، تظهر فيها كمزيج منه ومن أمّها، بعينيْها الواسعتيْن العسليتيْن وشعرها البنيِّ المتموّج.

ولمّا وضعت الحرب اللّبنانيّة أوزارها في سنة 1990، وعاد لبنان بلداً موحّداً، وفُتحت المعابر بين الكانتونات المقفلة، كان لا يزال يتابع رسائله من دون توقّف، ويمنّي النّفس من جديدٍ برؤية منى، ولكن وصلته منها الرّسالة الأخيرة، ومن مطلعها الّذي تعتذر فيه على نكثها بوعدها بالكتابة له مدى الحياة، حزر نهايتها الأليمة، وصعقته كما فعلت مثيلتها قبل ثماني سنوات، كان كمن ضربته موجةٌ عاتية، وما إن همَّ بالنّهوض حتّى طرحته أرضاً موجةٌ أعتى.

كانت منى لا تزال تشعر بحبّها ينتفض من حينٍ إلى آخر في كِيانها، كمارِدٍ يتحايل للخروج من قمقمه، إلى أن أتت لحظة القرار الحاسم، حين وقفت قبالة المرآة تمشّط شعرها، قبل دقائقَ من مباشرتها كتابة رسالتها، فصدمتها الشّعرات الشيباء الكثيرة، رأتها كأنّها تختطُّ على صفحة عينيْها وتغشي بصرها، ورأت التّجاعيد على وجهها وجبينها، كما تراها كلُّ امرأة، أخاديدَ تحفر في قلبها.

فكيف سوف يراها شارد الآن؟ أوليس من الأفضل أن يتحاشى الإنسان لقاء حبيبه بعد سنينٍ طويلة؟ ألن يشعرَ بالصّدمة حين يرى صورةً مغايرةً تماماً عن تلك الّتي لا تزال مزروعةً في رأسه؟ ولم تعترف، حتّى

لنفسها، بأنَّ هذا هو السّبب الأوّل الّذي دفعها إلى اتّخاذ قرارها الجديد.

تبسّم شارد ألماً حين قرأ في ذيل الرّسالة تهنّئةً له بعيد ميلاده، فما كان لينتبهَ أنّه أكمل في هذا المساء الثّلاثين من عمره، وها هو في شقّته وحيداً بلا أعيادٍ قادمة، وقد أعلى القدر مرساته من جديد، فاستلقى على الكنبة منهكاً كمحاربٍ آن له أن يستريح، يرقب الظّلام يهبط على باريس وفي قلبه، وغرق متأمّلاً في حياته يستعرضها منذ بدايتها.

لم يستطع أن يتذكّر إلّا بعض الأحداث من طفولته قبل لقائه بمنى، الّتي عبرت في ذهنه، كومض البرق، كئيبةً متفرّقةً وغير منتظمة، وسرّه ما وفّره من حزنٍ بنسيانها.

وبدل أن تنشرحَ أساريره، فقد انقبض قلبه لذكرى لقائه الأوّل بمنى، مرَّ بها كمن يصادف شبحاً عزيزاً مُتوفّى، وقفز بذكرياته هارباً إلى مراهقته، حيث ارتسمت تضاريس حياته لاحقاً، بنجاحاتها وإخفاقاتها، وحيث تنقّلت أحاسيسه بين بحرٍ هائجٍ مؤجّجٍ بالعواطف وبحيرةٍ هادئةٍ ساكنةٍ وديعة، في صراعٍ مستعرٍ من دون أيّة ضوابط، كلُّ أمرٍ كان يمكن أن يحصلَ له، وكذلك نقيضه بالدّرجة نفسها من الاحتمال، وحيث مرّت به خلالها، لحظاتُ كرهٍ للحياة شارف فيها على الانتحار، أو شغفٍ بها لدرجة الشّعور بامتلاك السّعادة واحتكارها.

وما لبثت تأمّلاته أن تحوّلت به إلى تساؤلاته الدّائمة، فماذا كان ليحصلَ لو أنّه سافر إلى موسكو بدل باريس؟ ألم يكن من الممكن أن يكونَ الآن متزوّجاً من فتاةٍ روسيّةٍ ويسكن في موسكو؟ أو أن يكونَ أستاذاً معيداً في الجامعة في بيروت؟ وأيضاً، ألم يكن من الممكن أن يقضيَ حتفه برصاصةٍ طائشةٍ كالآلاف من اللّبنانيّين؟ أوليست هذه الحياة مجرّد كذبةٍ يصدّقها ضعاف العقول؟ هل نحن موجودون فعلاً؟

أوليس كلُّ هذا الوجود مجرّد عدم؟

غطّى وجهه بكفيْه ممرّراً أطراف أصابعه صعوداً ونزولاً على جبهته، ثمَّ جلس مُطرقاً واضعاً كوعيْه على ركبتيْه، شابكاً يديْه كمن يعتصرهما. وما لبث أن وقف قاطعاً سيل ذكرياته، هازئاً بحزنه. فعلى ماذا يحزن؟ ولماذا أيضاً يفرح؟ ما دام كلُّ ما في حياته مكتوباً ومُقدّراً منذ ولادته، وما دام كلُّ هذا الكون وهذا الوجود ليسا إلّا نتاج الصّدفة، وما دامت أبسط حركةٍ يقوم بها ليست إلّا نتاج التّفاعل بين ما كانه قبلها وبين البيئة حوله، وحكماً، فسوف يصبح بعدها ما كان ليكونَه.

وما همّ حتّى إن كان سيعيش أو سيموت؟ فسِيّان إن تابع حياته أو وضع الآن حداً لها، ولكنّه تابع، كطائرٍ يغرّد خارج سربه.

الهوامش

(1) الزغردة، أو «الزلغطة» في اللّهجة العامّيّة، هو إصدار صوتٍ يصل مداه إلى البعيد، وذلك بتحريك اللّسان بسرعةٍ إلى الأعلى والأسفل مرّاتٍ عديدة، وهي تقريباً حكرٌ على النّساء، وأحياناً تسبق كلَّ زلغوطةٍ أبيات شعرٍ شعبيّةٍ غنائيّةٍ من وحي المناسبة.

(2) خيط المصّيص هو نوعٌ من الخيطان القويّة.

(3) التّصفيط في اللّهجة العاميّة.

(4) كلمة عاميّة تعني آلةً خشبيّةً تستعمل لإحداث خرقٍ في الأرض، ربّما أتت من فعل طعن.

(5) اللّيل يطبق مرّةً أخرى فتشربه المدينة - والعابرون إلى القرارة مثل أغنيةٍ حزينة، (المومس العمياء، بدر شاكر السياب).

(6) الطرّاحة هي فراش مربع أو مستطيل يُجلس عليه.

(7) بساط منسوج من القصب.

(8) طعام يُطبخ من العدس والرز أو العدس والبرغل.

(9) من قصيدة لمريد البرغوثي:

غمزةٌ من عينها في العرسِ وانجنّ الولد!
وكأنّ الأهلَ واللّيلَ
وأكتاف الشّباب المستعيذين من الأحزان بالدّبكة
والعمّات والخالاتِ والمختار
صاروا لا أحد.....

(10) نهج البلاغة، علي بن أبي طالب.

(11) المتنبي: والهجرُ أقتلُ لي ممّا أراقبه أنا الغريق فما خوفي من البلل.

(12) الشّاعر الرّاحل خليل حاوي:

وعرفت كيف تمطّ أرجلها الدّقائق
كيف تجمد
تستحيل إلى عصور.

(13) «الميجانا» و«الدّلعونا»، أغنيات فولكلوريّة لبنانيّة.
(14) الرّكوة، عبارة عن إناء معدني إسطواني مخصّص لصنع القهوة، قاعدته أوسع من الفتحة العليا.
(15) الشّاعر الرّاحل محمود درويش:
وحين أعود إلى البيت..
وحيداً فارغاً إلا من الوَحدةْ..
يداي بغير أمتعة..وقلبي دونما وردةْ..
فقد وزّعتُ ورداتي.....
(16) الشّاعر الرّاحل نزار قباني:
قولي لي، كيف أنقذ نفسي من أمواج الطّوفانِ
قولي لي، ماذا أفعل فيكِ وأنا في حالة إدمانِ
قولي ما الحلّ فأشواقي وصلت إلى حدود الهذيانِ.
(17) أحبيه كما لم تحب امرأة وانسيه كما ينسى الرجالَ، أحلام مستغانمي- ذاكرة الجسد.

عماد م. الأمين

الرفيقة وداد

بسبب الاعتداءات الإسرائيلية تهجر عائلة أم نجم (وداد) قريتها التي تقع على الحدود ، ثم تنتقل العائلة إلى بيروت، ثم تنتقل مرة أخرى من بيروت وإليها بسبب الحرب الأهليّة.

في أجواء الحياة الحزبيّة، بكل أشكالها، التي كانت تسود تلك المرحلة، تدور أحداث هذه الرواية التي تسرد سيرة أم نجم (وداد) وعائلتها، فتقدّم لنا صورة عن ظروف الحياة في مرحلة الحرب الأهليّة، وانقسام بيروت بين شرقية وغربية.

سيرة "الرفيقة وداد"، هي سيرة أمرأة متزوجة من مسؤول تنظيمي، يحمل أفكاراً تقدّمية لكنه لا يمارسها في حياته، فقرّرت أخذ مصيرها بيدها.

"عندما رأت أم نجم (وداد) زوجها يبالغ في حلاقة ذقنه، ويتحاشى تلاقي نظراتهما، تقدّمت منه ، منقادة بحسّها الأنثوي، وبخبرة النساء الفطريّة بنصب الكمائن الحواريّة، سألته: هل ننتظرك على العشاء الليلة؟

أربكه سؤالها، وحاول إخفاء ارتباكه بأن أطال تنشيف وجهه. كان متيقناً أن عينيها تراقبان كل حركة يقوم بها. وبغبائه الذكوريّ المتعالي أجاب:

- لا عندي مهمّة تنظيمية هذا اليوم. فلا تنتظروني على العشاء.

بعد خروجه، دخلت غرفة نومها، نزعت عنها ثيابها العلويّة ووقفت أمام المرآة تخاطب جسدها كأنها تختلي به للمرّة الأولى. شعرت بمعاناته وتأنيبه لها على إهمالها له في السنين الفائتة. ألقت نظرة متفحّصة على ثدييها قبل الحدث الذي كانت خطّطت له، وكأنها ستنتقل معهما إلى مرحلة جديدة من حياتها..."

ISBN 978-9953-582-87-0

9 789953 582870

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ القاهرة ـ تونس

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com